عيسى

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدّمة	7
عيسى من وحي القرآن	40
من صفات النبي عيسى	111
1 . مؤيّد:	111
2 . وجيه:	112
3 . صالح:	112
4 . حكيم:	113
5 . عليم:	114
6 . رسول:	115
7 . خلاَّق:	116
8 . مُصدِّق:	116
9 . مُحِلُ:	117
10 . داعٍ:	118
11 . مُنَاصَر:	119
12 . مُطهَّر:	120
13 . مُبَرَّأُ:	121
14 . مرفوع:	122

15 . مُبْرِي:	123
16 . مُحيي:	123
17 . مُنَاصَر:	124
18 . صادق:	124
19 . فائزٌ في الجنّة:	125
20 . مرضي عنه:	125
21 . كليم:	126
22 . بشير:	129
23 . منبئ:	130
خلق عيسى:	131
عيسى كلمة من الله:	146
عيسى مسمى:	153
الكلمة والروح:	166
روح عيسى:	172
الروح بين آدم وعيسى:	180
من البشرى إلى الكلمة إلى الإشارة:	197
عيسى بشرا رسولا:	225
رسالة عيسى:	232
مضمون الدّعوة:	235

إنجيل عيسى: 237
مضامين الإنجيل: 248
صورة المؤمن في الكتب السماوية: 267
معجزات عيسى: 269
المائدة غاية إطعام أم آية إفحام؟ 279
خصوصية الجعل في عيسى: 284
قاعدة جبر الروح مع الكائن: 296
قاعدة جبر النفس: 296
قاعدة جبر العقيدة: 298
قاعدة جبر الخواطر: 298
قاعدة جبر الحاجة مع مشبعاتها: 300
ميثاق عيسى: 304
وصية الله لعيسى: 319
الثالوث: 334
وفاة عيسى: 350
عيسى من توفيته إلى إنزاله: 361
الوفاة سابقة للموت ولاحقّة عليها: 374
الوفاة بين سابق عليها ولاحقّ لها: 375
الوفاة بين المعنى والمصطلح: 377

عيسى من آل عمران 392

عمران مسيرته: 394

عيسى في النذر: 397

جدة عيسى: 398

مريم أم عيسى: 401

عيسى في الاصطفاء: 405

الوضع (وضع عيسى): 425

أمر الصوم: 429

النبي عيسى من السنّة 432

مريم أمّ عيسى: 435

موسى يتكلّم يوم ولادته: 437

دعاء عيسى: 438

نزول عيسى من علامات قيام السّاعة: 439

انفتاق الأرض وهبوط آدم: 440

عيسى يرفع التشديدات عن بني إسرائيل: 449

الحواريون أنصار الله لعيسى: 450

قتل الشبيه ورفع عيسى: 453

تفرّق الملل: 459

الرّافع رفع عيسى: 460

نزول عيسى ابن مريم: 503

المقدّمة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، والصّلاة والسّلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى من اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد

لا يزال الحديث عن سيدنا المسيح عيسى ابن مريم يتجدد كلّ يوم، ولا تزال الأفكار يحتدم جدلها ما بين باحث عن حقّ يقين وآخر مدافع عن ضلال مبين، وفي هذا الوسط وعلى درجة من التأني والروية وبمستويات الاعتراف والتقدير والاحترام للآخر ارتأينا البحث في سيرة سيدنا عيسى ابن مريم وقضايا رسالته الفكرية والعقدية وما أثارته من جدل في مسائلها بين الباحثين، وكذلك قضايا من معه من الأنبياء والصديقين والحواريين.

ولا نغالي إذا قلنا إنّنا نهجنا منهجا تحليليا شموليا في النظر بكل القضايا، فما تركنا شيئا في موثوقاتنا المعرفية إلا وتناولناه بالعرض والتحليل.

وقد يسألنا سائل ما هي موثوقاتكم المعرفية؟

نقول:

إنّ البحث الجاد عن الحقّيقة أولى له أن يترك كل ما لا يُعقل أو يُدحض أو ما يُنفي بما هو أقوى منه إلى ما يحصل معه التسليم.

فكان القرآن الكريم المصدر الرئيس لموضوع بحثنا، وهنا لابدّ من الإشارة إلى أن اعتمادنا النص القرآني لما فيه من قوّة الحجّة ورسوخها،

كما أنّ أصحاب العقول المنصفة لم يجدوا في القرآن ما يخالف المنطق أو يجافي الحقّائق.

عليه: فاعتمادنا على النصّ القرآني مدعم من جوانب كثير جدا، ولا نعتقد أن في ذلك تعفسا للفكر المحاور أو مصادرة لقناعاته لأننا ندعوه للحوار الفكري المستند على النصوص الموثوقة.

كما أنّ من موثوقاتنا المهمة في عرض الأفكار والقضايا والموازنة بينها وترجيح أحدها كانت الحجّة والمنطق.

إنّ منطق العقل المجرد المحايد يستند على إيمانه وصدق عقيدته وإخلاصه للبحث عن الحقّيقة ولا شيء غيرها، ساعين إلى تلمس عراها في كل ما يدل عليها.

ولا يخفي على من يقرأ عن عيسى صلّى الله عليه وسلّم أهمية البحث في سيرته صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن متغيرات رئيسة حدثت معه في البدء والانتهاء، ففي الخلق حدث أن خُلق مغايرة لجميع البشر من أم ومن غير أب فغايرت آية خلقه حتى خلق آدم الذي خلق من غير أم ومن غير أب، وفي الانتهاء رُفع عيسى إلى السماء، وكانت نهاية أراد الله أن تكون مغايرة لنهايات جميع خلقه فيما نعرف، ذلك أدى إلى أن تتوه الأفكار التائهة التي لا تستند في معارفها على موطئ صلب، وفي مقابل ذلك ازداد المؤمنون إيمانا بربّهم وزادهم من عنده هدى.

وتناول هذا البحث عددا من القضايا المهمة منها خلق عيسى الذي كان من أكثر القضايا المختلف عليها بين الباحثين، وذلك لعدم قدرة بعض الباحثين من الماديين على قبول حقّيقة أن عيسى ولد من أم ومن غير أب بأمر الله عزّ وجلّ متناسين أن آدم وهو أب للبشرية كلها

خلق من غير أم وأب، وهذا هو المنطلق الفكري الذي انطلقا منه في عرض هذا الموضوع.

كما فصّلنا في رسالة عيسى، وكتابه (الإنجيل)، وميثاقه، ووصية الله له، وخصوصية الجعل في عيسى، وادعاءات الثالوث والبنوة والشرك، وتمت مناقشة هذه القضايا مناقشة مستفيضة بكل ما نعتقد من حجّة ومنهج، وذلك لأن هذه القضايا من الخطورة والأهمية بمكان يلزمنا البحث فيها.

ومن جانب آخر فإنّ رسالة عيسى عاصرها عدد من الأنبياء هم زكريا ويحي والصدّيقة مريم والحواريين أخلصوا ما أوحى الله لهم فنصروا دين الله ورسوله عيسى صلّى الله عليه وسلّم فكان لكل هؤلاء مكان في هذا الكتاب.

أمّا عن خلق عيسى فهو يشابه خلق آدم دون أن يكون ذاته، ويتبيّن ذلك من خلال حقّائق التناظر والتباين الآتية:

أوّلا: حقّائق التناظر:

- آدم وعيسى خلقا إعجازا بدون اتصال جنسي.
- خلق آدم وعيسى بالأمر (كن).
- روحهما من الله مباشرة.
- سمّى الله ادم وعيسى بأسمائهما.
- تعلم الاثنان من علم الله.

ثانيا: حقّائق التباين:

1 . آدم أصل وعيسى فرع.

2 ـ آدم لم يكن له أم وعيسى أمّه مريم.

ـ ادم خلق بكلّ المراحل في السماء، وعيسى خلقه مشترك فالأمر سماوي والخلق ارضي.

ـ آدم خلق مكتملا جسدا وعقلا في برهنة الأمر (كن) بينما خضع عيسى في نموه لقوانين الأرض.

تعلم آدم أصول الأشياء، وتعلم عيسى دقائق الأشياء.

أوّلا: حقّائق التناظر.

الخلق من التراب

يرتكز الإيمان بهذه الحقّيقة على طبيعة المتعاطي لها، فإذا كان من أصحاب اتجاه الإيمان بالغيب فيكفيه أن يقرأ قول الله تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)، فيوقن بما فيه دون الحاجة إلى إثبات آخر، أمّا أصحاب الاتجاه المادّي فلن يكون بالإمكان محاورتهم إلا بما يؤمنوا به من مادية بحتة وبأدلة مادية صرفة، وهذا أمر يمكن أن نقدمه لهم لإيماننا أن القول الإلهي هو حقّيقة يقينية صادقة تدل عليها آيات الله ومنها الآيات المادية، فلو نظر أحدهم إلى أحد إسلافه وقد كُتِبَ عليه الله الموت من قبل أترى يستطيع أن يميز اللحم من التراب فيعرف الأصل عن غيره؟

ثمّ أتراه يستطيع أن يستخرج أي شيء من أعضاء جسد الميت أو أن يعرف أين صارت؟ ثم هنا، نأتيه بما يؤمن، حيث أنّ العلم المادي يقول: أنّ المادة تتحلل إلى عناصرها الأولية، وما في القبر إلا التراب! صار لزاما عليه أن يؤمن أن الجسد البشري مخلوق من تراب بهذه الأدلة

المادية. وهكذا آدم وعيسى صلّى الله عليهما وسلّم خُلقا من تراب لأنّهما بشر.

2- الخلق الإعجازي بدون اتصال جنسي.

هذه القضية يقينية بالنسبة لنا سواء أكانت لآدم أم كانت لعيسى، ونشك أنّ هناك من يقول غير ذلك عن آدم، ولكن الشك في خلاف هذا القول يأتي مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم ومن المهم مناقشة الأمر للوصول إلى مقاربّة لفهم الحقّيقة.

نقول إن الأمر لا يعدو عند المشككين إلا انصرافا كاملا للبحث عن:

النطفة!

من أين جاءت؟

كيف جاءت؟

والإجابة عن هذه التساؤلات تنحصر في القول الآتي: إن انصراف هؤلاء للبحث عن النطفة ومحاولة إيجاد علاقة نسبية لعيسى صلّى الله عليه وسلّم على أساس البحث عن مصدر النطفة هو محض جهل يتمثل في البحث عن الشيء في غير موضعه، وهم في ذلك بين محبٍ مغالٍ يقول: إنّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم هو ابن الله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[1]، وبين مبغضٍ قالٍ يقول إنه ابن يوسف النجار كما قالت

[1] - البقرة 30.

طائفة من اليهود[2]، وهذا في الحقّيقة بهتان عظيم كما وصفة الحقّ سبحانه وتعالى فقال عن فعلهم وقولهم: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}[3].

أمّا نحن فنقول مؤمنين:

إنّ خلق عيسى كمثل خلق آدم ولا نطفة على الإطلاق في خلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم لأنه في خلق آدم لم تُذكر النطفة في كل الآيات التي جاء الحديث بها عن خلق آدم بل ذكر الصلصال المسنون مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[4]، عليه يتبين أنَّ الصلصال سوّي ثم نفخت فيه الروح دون نطفة، وعيسى كذلك لم تدخل النطفة في خلقه وإنما هو أمر الله (كن) فكان عيسى في لحظته جنينا متكامل النمو خلقا معجزا من الله ليكون آية مصداقا لقوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}[5].

هنا نتساءل:

هل تقتصر قدرة الله على خلق آدم من دون نطفة؟

بالتأكيد الجواب يحمله التساؤل لان الله القادر على كل شيء خلق آدم من غير نطفة وكذلك خلق عيسى ابن مريم من غير نطفة.

---

[2] – الفصل في الملل، ابن حزم، ج 2، ص 11.

[3] – النساء 156.

[4] – الحجر 28-29.

[5] – مريم 20-21.

أمّا الآيات التي يأتي فيها ارتباط خلق الإنسان بالنطفة كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}6، فهذا من الثوابت الأساسية للخلق من دون إعجاز أي بقية البشر، وهي من القوانين الإلهية التي وضعها ثوابت في كون متحرك متغير كالزمن والضوء، فهي من الثوابت التي تُسيّر الكون المتحرك.

3- الخلق بالأمر كن.

خلق آدم وعيسى صلّى الله عليهما وسلّم بالأمر الله (كن)، وكن هذه ليس كلمة من حرفين كما قد يتوهم البعض، بل هي حالة الاكتمال المطلق في لحظة المشيئة مع بقاء الثوابت في موازينها، فكما مرَّ آدم بمراحل مرَّ عيسى بمراحل، إذ لم يُخلق بكن على هيئة الاكتمال الخلقي بل مرَّ بالطفولة ثم الفتوة إلى الكهولة، لكن الأمر (كن) قضى بأن يكون آدم ليُجعل خليفة، ويكون عيسى نبيا ورسولا. أما المراحل فهي من محصلات الأمر (كن) مشارِكة مطيعة في تنفيذه.

وهنا فانّ عيسى عليه السّلام آية من آيات الله في خلقه؛ فقد خلقه في بطن أمّه العذراء بروح منه جلّ جلاله. حيث جاء الملك جبريل إلى السّيدة مريم وهي تتعبّد، حيث بشرها بأنّها ستلد ابنا له قدسية، وأنّه سيكون رسولا من رسل الله ونبيا من أنبيائه دون أن يكون له والد، وهذه هي الآية المعجزة؛ فعيسى عليه والصّلاة والسّلام كان حمله استثنائيا، وكلامه استثنائيا.

[6] - المؤمنون 12-13.

كانت لدى عيسى عليه السّلام القدرة على فعل بعض المعجزات كسائر المرسلين والأنبياء مع الاختصاص بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

ويقال أنّ في زمان عيسى عليه السّلام كان علم الطب متقدّما، فلما رأى أهل ذلك الزمان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علموا أنّها ليست من حد صناعة الطب، وإنّها معجزة لعيسى من عند الله؛ ليؤمنوا برسالته ويتبعوه7.

علّم الله عيسى عليه السّلام الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بني إسرائيل، أي، بعد أن انحرف بنو إسرائيل عن الصّراط المستقيم، وتجاوزوا حدود الله؛ فأفسدوا في الأرض وأنكر فريق منهم البعث والحساب والعقاب، وانغمسوا في الشّهوات والملذات حينئذ بعث الله إليهم عيسى ابن مريم رسولا منقذا.

قام عيسى عليه السّلام بدعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، والعمل بأحكام التوراة والإنجيل. وأخذ يجادلهم ويبيّن لهم فساد مسلكهم، ولكن لما رأى عنادهم وظهرت بوادر الكفر فيهم وقف في قومه قائلا: من أنصاري إلى الله؟ فآمن به الحواريون وعددهم اثنا عشر قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ربّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرّسول فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}8

ومن آيات عيسى عليه السّلام أنّه يعلم بمجمّد عليه والصّلاة والسّلام رسولا من بعده، أي أنّه قد بُشر به، وبه بشّر من بعده. {وَإِذْ

7 مختصر إظهار الحقّ، ص 161.

8 آل عمران 52، 53.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}9.

ومع أنّ عيسى عليه والصّلاة والسّلام هو عبد الله ورسوله، ولكنّ أهل الكتاب قالوا عنه ما لم يكن فيه، وفيه قد اختلفوا؛ فمنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، ومنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو عبد الله ورسوله. ونحن نقول بلا تعصّب والحقّ بيّنة من الله، أنّه عبد الله ورسوله. {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}10.

ومع ذلك قد جعل الله في أتباع عيسى والمؤمنين به رأفة ورحمة، ولذا؛ فهم أقربّ مودّة لأتباع محمّد عليه والصّلاة والسّلام، مصداقا لقوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاس عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}11.

وسمي عيسى عليه السّلام بالمسيح "لأنّه كان لا يمسح بيده ذا عاهة إلا وقد شفي، وهناك من يقول: إنّه خرج من بطن أمّه ممسوحا بالدّهن، أو كان يمسح الأرض أي يقطعها"12. وهذه من صفاته. وكذلك الحكمة من صفاته حيث قال: "من علم وَعمل فَذَلِك يدعى عَظِيما فِي ملكوت السَّمَاء"13.

---

[9] الصّافات 6.

[10] النساء 159.

[11] النساء 82.

[12] كنز العمال، 3، ص 342.

[13] المقصد الأسنى، ص 110.

كان عيسى عليه السّلام نبيا متواضعا يلبس الشّعر ويأكل ممّا يتوفّر لديه، وفي هذا الأمر قَالَ الْحسن الْبَصْرِيّ: "كَانَ عِيسَى علية السّلام يلبس الشّعْر وَيَأْكُل من الشَّجَرَة ويبيت حَيْثُ أَمْسَى. وَكَانَ النّبي مجمّد صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم يلبس الصُّوف"14.

عيسى ابن مريم المسيح الكريم عليه والصّلاة والسّلام لا يقبل الكذب من أفواه النّاس ولا يقبله سلوكا؛ فذات مرّة يروى أنّ "عيسى عليه السّلام رأى رجلا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال لا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذّبت بصري"15.

وعليه: نحن نعتقد أنّ صفات الله المطلقة بالسّمع والإجابة هي أقربّ إلينا من حبل الوريد، ونحن نعتقد يقينا أنّه السّميع لنا والمجيب لنا، أمَّا الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم فهو السّميع لهم والمجيب عليهم، وعلينا أن نتبيَّن المعنى الدلالي للكلمات ونفرق بين (السّميع لنا والمجيب لنا) وبين (السّميع لهم والمجيب عليهم)، ففي الحالتين نستوي أنه السّميع لهم ولنا، ويكون الاختلاف بين (المجيب لهم) التي تدلّ على الإجابة المباشرة وبين (المجيب لنا) التي تدل على الإجابة غير المباشرة، فالأولى تفتح آفاق الكلام المباشر، والثانية تقفله وتفتح باب الإجابة دون الاستماع إلى الكلام المباشر كما هو الحال مع الرّسُل في كثير من الأحيان، قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}16.

عيسى صلّى الله عليه وسلّم هو مؤتى البيّنات والمؤيد بروح القدس، قال تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ

14 التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 22.

15 كشف الخفاء ط القدسي، 2، ص 292.

16 محمّد 14.

الْقُدُسِ}17، ولذلك فهو وجيها في الدنيا والآخرة وهو من الصالحين والمقربّين.

إنّه مكلِّم النّاس في المهد وهذه لم تؤتَ إلا له ولآدم الذي خُلق من قبله على التمام إنسانا راشدا، ولذلك لم يكن عيسى صلّى الله عليه وسلّم ثالث ثلاثة كما يظن بعضهم، الذين يريدون أن يشركوا بالله في خلقه وملكه، ومن المستغربّ في الوقت الواحد يؤمن النّاس بأنّ أمر كن لا يكون إلا بيد الله وهو الحقّ، وهو الذي به كان عيسى ابن مريم مسيحا مرسلا، وفي الوقت ذاته يؤمن البعض بأنّ عيسى ابن الله! فكيف يؤمنوا بذلك وهم يؤمنون بانّ الله لا يتجسد في المادة بالمطلق؟ أي أنّ مريم روح ومادة وكلاهما من المخلوقات بالأمر كن، وأن عيسى روح ومادة (جسد) وفقا لقاعدة (كن فيكون) وأن الله ليس بروح ولا مادة وهو يَخلق ولا يُخلق، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}18.

أقول نعم، لا مجال للمقارنة، المخلوق لا يمكن له أن يقارن بالخالق جلّ جلاله.

بُعث عيسى صلّى الله عليه وسلّم بمعجزاته رسولا إلى بني إسرائيل يخلق من الطّين كهيئة الطّير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}19، يُفهَم من هذه الآية الكريمة أنّ عيسى لم يَخلق طيرا، بل خلق هيئة له، (شبيه بالمشبّه) والذي يُعظِّم هذه المعجزة هو نفخه للروح فيه بإذن الله ليكون طيرا، ولذا فكلّما تحقّق النفخ تحقّقت معجزة عيسى

[17] البقرة 87.

[18] النحل 17.

[19] آل عمران 49.

صلّى الله عليه وسلّم التي إذن له الله بها، ولأنّ الأذن من الله يخلق المعجزات؛ فالله الباقي باقٍ إذا أعطى معجزة لعبده لابدّ أن تتحقّق ولا استغراب في ذلك، ولذلك من لا يؤذن له من الله لن يخلق معجزة.

عيسى صلّى الله عليه وسلّم صاحب المعجزات بإذنه تعالى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وهو منبئ ومصدق لما بين يديه من التوراة ومُحل لبعض ما حُرم ومبشر للخير وداعٍ إليه.

بُعث عيسى صلّى الله عليه وسلّم إلى بني إسرائيل مصدقا لمن قبله من الرّسُل ومبشرا بخاتمهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[20].

المسيح عيسى ابن مريم على المستوى البشري هو الوحيد الذي أعلمنا الله برفعه إليه وبقائه حيا، فهو لم يُقتل ولم يُصلب ولم يَمت بعد ولكن شُبِّه لهم، والشبيه كما يعلم الكل ليس بالمتطابق مع المشبه قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[21].

وعليه أذن الله لعيسى صلّى الله عليه وسلّم أن يخلق من الطين كهيئة الطير فخلقه طيرا بأذنه عزّ وجلّ، قال تعالى: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

[20] الصف 6.

[21] النساء 157، 158.

طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}22. إنّها معجزة من المعجزات التي وهبها الله الخلّاق لعيسى عليه والصّلاة والسّلام، أي أنّ الله تعالى قد هيأ عيسى بمقدرة تمكّنه من خلق ما يشبه الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا، وذلك بالإذن الذي منحه الله لعيسى، أي أنّ الله الخلّاق قد أذن لعيسى أن يظهر مقدرة الخلق. وهذا يعني: أنّ عيسى عليه السّلام قد أصبحت لديه صفّة الخلّاق في أن يخلق وفقا للإذن الذي منحه الله إليه.

وهنا؛ نلاحظ أنّ الله المقتدر قد مدّ عيسى بمقدرة الخلق، وبعض من المقدرات الإعجازية الأخرى؛ ذلك لأنّ المقتدر قادر على إظهار قدرته بفعل الاقتدار، ولذا فالمقتدر المطلق هو كامل المقدرة، والمقتدر بالإضافة هو تام القدرة، والفرق كبير بين كامل المقدرة بالمعطيات الاطلاقية حيث لا نقيصة فيه، وبين تام المقدرة وهو الذي لم يبلغ الكمال استحالة، ويملك معطيات الاقتدار في دائرة النسبية.

ولذا فالاقتدار أبلغ بكماله المطلق، والقدرة قد يدخلها نوع من التضمين بالمقدور عليه ومنها الملك والمليك في معناه، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ربّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} 23 وقوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}24.

والقَدِيرُ فَعِيلٌ، والمقْتَدِرُ مُفْتَعِلٌ من اقْتَدر وهو أَبْلغُ. والقَدِيرُ: هو الفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ على قَدْرِ ما تقضِي الحِكْمَة لا زائدا عليه ولا ناقِصا عنه، ولذلك لا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ به إِلاَّ اللّهُ ومن استمد صفاته منه كما هو حال عيسى عليه والصّلاة والسّلام.

---

[22] آل عمران 49.

[23] – المؤمنون، 116

[24] – القمر 55

ولهذا؛ فالمقْتَدِرُ هو الله تعالَى، فهُوَ الَّذِي ينتفي عنه العَجْزُ من كلّ وَجْهٍ تعالَى شَأْنُه.25 ووصف الخليفة فيه وارد، إذ يقول أحد هذا مقتدر، ويقصد بذلك من ناحية المال أو من ناحية المنصب أو الوجاهة أو العطاء في القول وأداء الأفعال الحسان وهذه من صفات الخليفة الذي استمد اقتداره من المقتدر الأعظم، أي أنه المتمكن من التصرف في الأمور التي هو قادر على أن يفعلها نتيجة ما يملكه من قوّة اقتدار، إذ يقول تعالى {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}26 والمراد من التمكين هنا أن الله جلّ وعلا جعله ملكا يتصرف في الأرض يأمر وينهي.

المقتدر: هو من يملك الأمر ويحسن التصرف دون غفلة فلا يفوته شيء، ولا شيء إلا منه، ومتى ما أراد له مشيئة يقول له كن فيكون.

نفخ الروح:

وهذا حقّ لأنّ الإنسان مركب من جسد ونفس وروح. وقوله تعالى: (ونفخت فيه من روحي) في حقّ آدم، وقال في حقّ عيسى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ ربّها وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}27، وهذا يدفع إلى تساؤلات منها:

ما الرّوح المنفوخة؟

25 - تاج العروس، ج 1 ص 377.

26 - يوسف 21

27

وما نفخت؟ ونفخنا؟

ولماذا استخدم اللفظ نفخ؟

وما دلالة كلمة نفخ؟

وما دلالتهما في صيغة الماضي؟

ألا يعني في صيغة الماضي الدليل على حدوث الفعل في المستقبل وهذا من قدرة الخالق جل في علاه، ودلالة على حصول ما لم يحصل بعد، وهنا أنزل الله الفعل الماضي بدل المضارع لأنّه في زمن الله كل الزمان سواء لأنّه سبحانه خالق الزمن.

ثم نتساءل عن نفخت، ونفخنا؟

وماذا يشير اقترانها بتاء الفاعل مع آدم؟ ونا الفاعلين مع عيسى؟

أيعني امتلاء شيء قابل للامتلاء؟

أيعني استعداد لقبول النفخ؟

ألا تعني الإعداد (التسوية) لأدم من البدء لقبول النفخ؟ والكلمة المبشرة لمريم {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}[28].

وعلى ماذا يدل (من روحي) وليس (روحي) مع آدم و(من روحنا) وليس روحنا مع عيسى؟

فنقول: نفخت كانت في خطاب الحضور، لأنّ الحضور مصدقون مؤمنون من جن وملائكة.

---

[28] آل عمران 45.

(ونفخنا فيه) فخطاب الغياب لأنّ المخاطبين ليسوا في حضرة النفخ، ونفخنا في عالم البشر لوجود كافرين يؤكد أنّه كما كان النفخ في غيره كان النفخ فيه.

ونتساءل:

هل النفخ خروج ودخول؟

وما المنفوخ؟

وما طبيعته؟

هل النفخ حلول الروح واتحادها؟

هل الروح جزء في جزء؟

هل الروح مخلوق من الله ليكون الإنسان حيّا بها؟

أهي خلق مثل آدم وعيسى؟

أم ماذا تكون؟

بالطبع قد تكون واحدة من السوابق وقد تكون غير ذلك.

وسنتناول كل تساؤل في حينه ولكن علينا أن نرنو بدقة وتبصر في معنى (نفخ) التي جاءت نفخت ونفخنا.

وفي معنى الرّوح لغة، وفي علاقة نفخ بكلمات قريبة المعنى منها مثل بث، نفث.

مع التأكيد بأنّ علماء اللغة تناولوا معاني الكلمات بالمستوى الإنساني، قياسا ووصفا على البشر، وسياق الكلمة في الآية سياق

إلهي، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن نسوي بين البشري والإلهي، لذا فعلينا أن نستشرف اللغة لنستبين ما قيل فيها.

ونؤكد أنّ النفخ الإلهي لا علاقة له بالفم مطلقا، لكنّه نتعلق بأمر الكينونة، ولا يمكن تجسيد الأمر الإلهي، لذا فعلماء اللغة ربّطوا بين النفخ وبين الفم والشفتين وهذا نحن نرفضه.

ونؤكد أنّ النفخ من الروح ليس فيه أداة وليس له وسيلة بل فيه غاية وهي جعل آدم في مرحلة جديدة ليكون خليفة في الأرض، وجعل عيسى في رحم مريم.

النفخ لغة:

النفخ: بفتح فسكون مصدر نفخ، (إخراج الهواء من الفم بقوّة).

والنفخ في الصور: من مشاهد الآخرة، {ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد}29، وستكون ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث30.

يقول صاحب اللسان في معنى النفح" (نفخ) النَّفْخ معروف نَفَخ فيه فانْتَفَخ، نَفَخ بفمه يَنْفُخ نَفْخا إذا أَخرج منه الريح يكون ذلك في الاستراحة والمعالجة ونحوهما وفي الخَبر فإِذا هو مُغْتاظٌ يَنْفُخُ، ونَفخ النّار وغيرها ينفُخها نَفْخا ونَفِيخا"31.

وفي التنزيل: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}32.

---

[29] ق 20 .

[30] معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 484.

[31] لسان العربّ، ج 3، ص 62.

[32] الحاقة 13.

وفي التنزيل: {فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}33.

والسؤال:

كيف وصلت الكلمة إلى مريم؟

نقول: إنّ النصّ القرآني اختار لفظة غاية في الإعجاز للتعبير عن طريقة تبليغ الكلمة فقال عز من قائل (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) هنا نقف مع ألقاها وقفة الباحث عن بعض ملامح الإعجاز فيها.

تنص المعاجم اللغوية على أن جذر هذه الكلمة له عدة دلالات منها:

1- دلالة نصها: (وتلقَّت المرأَة وهي مُتَلَقٍّ عَلِقَتْ)34، هذا الدلالة فيها تأكيد على طبيعة خلق عيسى من جهة، وفيها تنزيه للعذراء مريم، فقد خُلق عيسى بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)، هنا يظهر إعجاز اختيار سياق بكلمة منه، ولو لم يأت ذكر الكلمة وجاءت البشرى فقط لتوهم البعض في خلق عيسى ولبحث عن سبب للحمل به من قبل مريم، ولكن إلقاء الكلمة على مريم دفع عنها وعن ابنها أية شبهة حيث أصبحت هناك وسيلة واحدة خُلق بها عيسى هي الكلمة الملقاة على مريم.

ومن الضروري أن نقف مع إعجاز أن تكون الكلمة معرفة بالإضافة ولم تكن معرفة بغيرها، نقول إن اختيار أن تكون الكلمة معرفة بالإضافة من الأسرار الدقيقة في الأسلوب القرآني من جهة،

---

33 آل عمران 94.

34 – لسان العربّ، ج 15، ج 253.

وحصرا دلاليا من جهة أخرى، فقد كانت الإضافة إلى الله عزّ وجلّ لتأكيد انعدام القدرة لأيٍ سواه في هذا الفعل، كما في هذا دلالة على حصر إلقاء الكلمة بالله عزّ وجلّ وبهذا نصل إلى دلالة تنزيه مريم عليها والصّلاة والسّلام إذ حددت الآية ما تلقته مريم بأمر واحد فقط هو الكلمة المخصوصة بكونها مولود نبي اسمه عيسى، الكلمة فقط ولم تتلق ما تتلقاه النساء ليتكون في رحمها ما يشاء الله، هذا هو قمة التنزيه لمن اصطفاها الله وطهرها وعجبا لمن يقولون غير ذلك من مفترياتهم الباهتة على السيدة الصديقة.

2- اللقاء "والأُلْقِيَّةُ ما أُلقِيَ وقد تَلاقَوْا بها"[35]، اللقاء كان من طرف مريم حيث كانت فيها ملكات التلقي لكلمة الله عزّ وجلّ، ولو لم تكن مريم على درجة من الطاعة وقوّة الإيمان والعقيدة ما يمكنها من تلقي ما ألقاه الله عزّ وجلّ عليها لما استطاعت مريم أن تستوعب الكلمة وتقوم بحقّها.

واللقاء يدور في فلك المتوقّع الممكن لانّ مريم في سيرتها كانت في رحم أمها تهيأت لهذا اللقاء، حيث جعلت أمها امرأة عمران الصلة الإيمانية في هذه البذرة المباركة منذ الحمل مصداقا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السّميع الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

[35] – لسان العربّ، ج 2، ص 253.

زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[36].

فتقبل الله نذر امرأة عمران وهي مريم وكانت لا تزال في مرحلة الرحم، وسنفصل الحديث عن ذلك في ترجمة مريم عليها والصّلاة والسّلام إنشاء الله، عليه نقول إنّ مريم التي ذكر الله أنها من ذرية النبوة كانت مهيأة لاستقبال حدث عظيم، وقد يسأل سائل عن خوفها ودعائها على نفسها بالموت فهل هو مناقض لما نقول، الإجابة بالنفي قطعا لان مريم تصرفت من واقع بشريتها، فهي امرأة طاهرة جاءها أمر قد يحدث لها ما تكره لذلك قالت في مرحلة الخوف (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)، أما وقد سمعت الاطمئنان القلبي بحديث ابنها المولود معها فقد تحول هذا الخوف إلى قوّة حقّيقة تمثلت في حملها للمولود ومواجهة كل من حولها به دون خوف أو تردد، إنها قوّة الإيمان الذي لا يمكن له أن يحدث فجأة وإنما هو ممّا يُبنى في النفس ويُؤسس في القلب، لذلك نقول إن مريم تلقت الكلمة جسدا وروحا.

3- الوصل، يقول الألوسي: "وأوضحه بقوله سبحانه: (ألقاها إلى مَرْيَمَ) أي أوصلها إليها وحصلها فيها"[37]، والوصل هنا يفسره قوله تعالى (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، فهذه الذرية هي ذرية متصلة كما أراد الله عزّ وجلّ لها أن تكون، وبما أن مريم لم يحدث لها أن تواصلت مع مخلوق من ذرية النبوة يمكن له أن يحدث التواصل كان أمر الله بإيصال الكلمة إلى مريم منه لتتواصل كلمة الله عزّ وجلّ فيما بعد من عيسى إلى محمّد صلّى الله عليهما وسلّم.

---

[36] - آل عمران 34-37.

[37] - تفسير الألوسي، ج 4، ص 326.

وبقي أن نعرف عن سلوك عيسى الإنسان الرّسول لتوضح ملامح بشريته أكثر وصولا إلى مناقشة ادعاء بنوته أو ألوهيته فيما بعد.

نعتقد من المهم القول أنّنا ومع عيسى بالخصوص نواجه انحسارا معرفيا عند البعض يخصّ كينونته على وجه التحديد، حيث ذهب هؤلاء إلى وصف عيسى بما ليس فيه، فوصفوه بابن الله، ثم قالوا هو وأمّه إلهين بالمشاركة، وهذه الادعاءات كلها إنما هي محض جهل وضعف في آن واحد، يتمثل الجهل بانعدام المعرفة الحقّة بالكينونة الإلهية وهذا مهم جدا لان المدعين يعرفون عيسى لكنهم لا يعرفون الله حقّ معرفته، يقول الحقّ سبحانه مبينا ومعرفا العباد ببعض صفاته: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}38، ثم بعد ذلك تأتي تعليلات مبينه لعلة الانعدام منها:

. انعدام الإرادة: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}39، لو هنا حرف امتناع لامتناع أي أنّ الله لم يتخذ ولد ولم يرد اتخاذ الولد، والسياق على ذلك يبين انعدام الإرادة وذلك يرجع إلى حكمة لا نعرفها وأخرى يدلنا الله عليها بما دلنا عليه، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين أي أن حاجته إلى الولد منعدمة بكل الصور ومع كل الاحتمالات، كما أنّ مطلق القدرة للذات يرفض افتراض الولد لان مطلقية القدرة تعني: أنّ تحديد هذا الولد محال لاستحالة وجود مطلق آخر يرث المطلق الأوّل والأوحد لا في القدرة ولا في القوّة ولا في أي شيء آخر.

---

[38] الفرقان 1-2.

[39] الزمر 4.

. انعدام التكافؤ، لابدّ لحصول البنوة تبنيا لا ولادة، لانّ ذلك محال في حقّ الخالق الذي خلق كل شيء ثم هدى، لابدّ من حصول التكافؤ بين طرفي العلاقة وذلك محال في أصل الوضع، فالله الباقي جلّ وعلا تتضاءل أمام عظمته المخلوقات فأنّى لمخلوق أن يتعاظم عظمته، أو أن يرزق رزقه؟ أو أن يعدل عدله؟ أو أن يبطش بطشه؟

قال تعالى: {وَمَا يَنبَغِي للرّحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَدا إِن كُلُّ مَن في السموات والأرض إلاَّ آتى الرّحمن عَبْدا مريم}40، أي هو محال، أمّا الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأما التبني فلأن الولد لابدّ وأن يكون شبيها بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولأنّ اتخاذ الولد إنّما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، والمراد أنّه ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة والنّاس إلا وهو يأتي الرّحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربّوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد41.

3 . الامتناع للأحدية، الله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، صفات الكينونة لله عزّ وجلّ، واتخاذ الولد هو بالضد منها لان اتخاذ الولد يعني فيما يعني الاشتراك، والتعدد لان اتخاذ ولد يوجب أن يكون ولد آخر ثم آخر ثم آخر ولا مانع إذا تحقّقت الحالة الواحدة من تكراراها، وهذا يعني أن يكون ولد أول أكبر ثم من هو أصغر اقل وهكذا من تباين المستويات الذي يوجب ولا شك تعالى بعض على بعض؟

عيسى عليه الصّلاة والسّلام نبيا مناصرا من أصحاب الحقّ على إحقّاقه، وتأييد دون تردد مع تحمَّل ما يترتب على كل قول أو فعل أو

---

40 مريم 92-93.

41 تفسير الرازي، ج 10، ص 345.

عمل من مسؤوليات جسام، ولذا فللمناصرة ثمن من يستطيع دفعه يوصف بأنّه نصير ومن لم يستطع فلا يوصف بذلك.

والمناصرة لا تكون إلا بالآتي:

أ . مناصرة المطلق الذي بيده الأمر (كن) متى ما أراده أن يكون كان وفقا لما تستدعيه الضرورة للمُنَاصَر الذي غايته مناصرة الله عزّ وجلّ، {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}42، وقال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}43.

ب . مناصرة النسبي في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع تتنوع وتتعدد وفقا للآتي:

* مناصرة بالكلمة.

* مناصرة بالوسيلة.

* مناصرة بالعمل والفعل.

ج . مناصرة تضرع ودعاء لله ربّ العالمين كما جاء في دعاء نوح صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ ربّ لَا تَذَرْ عَلَى

---

[42] الحج 40.

[43] المائدة 110.

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ربّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}44.

ومع ذلك؛ فالمناصرة يمكن أن تكون على حقّ ويمكن أن تكون على باطل، فمن ناصر الأنبياء والرّسُل ناصر الحقّ، ومن ناصر أعدائهم ناصر الباطل.

وعليه: المنَاصَر هو المعان من قبل الآخرين على ما يقول ويعمل، فمن ناصره على الحقّ أسهم في إحقّاقه وشاركه نيل الجزاء والثواب، كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي ناصره الحواريون المحبون للحقّ وإحقّاقه، قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}45.

عيسى كليم الله:

الكلام خاصية بشرية بين النّاس لأجل التواصل والتفاهم والترابط والتعلم والتعرف والتخاطب، والكلام في دائرة الممكن لا يكون إلا على موضوع أو أمر ولا يكون إلا بين مكلِّم ومكلَّم (مرسل ومستقبل)، ولذلك كان الكلام نعمة على الألسُن والآذان الصاغية للحقّ بين المتكلمين الذين به عرفوا الحلال والحرام، والإيمان والكفر، والأمر والنهي، والأخذ والاجتناب.

ومع أنّ الكلام خاصية بشرية بين النّاس إلا أن مصادر التكليم متنوعة ومتعددة منها:

---

[44] نوح 27، 28.

[45] آل عمران 52.

أ ـ هناك من يكلمه الله، كما هو حال الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}[46].

ب ـ هناك من يكلم الله، الذين يكلمهم الله يكلمونه ولهذا الرّسُل كلَّمهم الله وكلَّموه بالطاعة والهداية قال تعالى: {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[47].

ج ـ الكلام بين الأنواع الثلاثة الرئيسة، (الملائكة، الجن، آدم) كلام ألله إليهم وطاعتهم إليه، وكلام بعضهم للبعض مع السجود لآدم والعصيان من بعض النوع (إبليس).

د ـ هناك من يكلمه ملك، الرّسُل والأنبياء علاقاتهم مباشرة مع الله في كل ما يتعلق بالنبأ العظيم والرّسالة العظيمة، ولذلك يكلمهم الله مباشرة من وراء حجاب (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)، أو يكلمهم برسول ملك كما هو حال جبريل المكلف معهم عليه السّلام لنقل ما يوحى إليهم صلّى الله عليهم وسلّم.

هـ ـ هناك من يُكلِّم الجن، كما هو حال سليمان صلّى الله عليه وسلّم.

---

[46] المائدة 116.

[47] المائدة 116، 117.

و ـ هناك من يتكلَّم مع الأبالسة والشياطين، بحقّ ليبطل ما يسحرون به أعين النّاس وما يفسدون به في الأرض، وهناك من يخاطبهم ليشاركهم في زيادة الإفساد في الأرض والإفساد بين العباد قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}48، وقال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ}49.

ع ـ هناك الكلام بين النّاس ومعهم، وينقسم الكلام إلى ثلاثة مستويات:

* مستوى آدم صلّى الله عليه وسلّم الذي تكلَّم لحظة خلقه مع ربّه تعالى ومع الملائكة والجن.

* مستوى عيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي تكلَّم من تحت أمه بصوت اسمعها، ثم تكلم في مهده مع أهله وبني قومه، إنه الكلام المعجزة تنفيذا للأمر (كن)، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}50، وقال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا

---

48 الجن 6.

49 الحشر 16.

50 مريم 23 ـ 25.

كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}51.

وعليه فإن عيسى كليم أي أنّه مُكَلم ومُكَلِم، مكلم من الله، وطليق اللسان في الصغر بالحقّ مع وضوح وبيان وإعجاز كلماته، وهي تصدر من وعي وإدراك، ففي كلماته طمأنينة لامه الخائفة التي دعت على نفسها بالخوف فجاء كلامه أية سلاما وأمنا لها، أي أنّ كلامه في المهد كان معجزة خاصة به أتاه الله إياها، ثم أنّ كلامه في المهد كان كلاما واعيا بلسانٍ راشدٍ، ثُم أنّه في رشده كان لسانه لسانا مبلّغا بالرّسالة والنبأ العظيم الذي كلّفه الله به ليبشّر به العباد من بني قومه للتي هي أحسن وأقوم.

وقد يتساءل البعض: هل يجوز القول عن الإنجيل إنّه كتاب عيسى؟ الإجابة هي نعم يجوز لانّ المولى الحقّ عزّ وجلّ نسب مثل ذلك لأنبيائه فقال صحف إبراهيم وموسى.

والأمر الذي يوجب البحث ويثير التساؤلات هو الإنجيل نفسه من حيث أنّ من أرسل به إلى النّاس وهو عيسى صلّى الله عليه وسلّم كان من أصحاب المعجزات المادية العينية مثل الطب والإحياء والخلق بإذن الله وكذلك علم الأسرار.

فهل كان الإنجيل من معجزاته؟

ولماذا أرسل بالكتاب وهو معه معجزات وخوارق عظيمة تجعل كل من يشاهد يقتربّ من الإيمان ثم اليقين بالحقّ من الله عزّ وجلّ؟

---

[51] مريم 30 . 35.

كما يثير زمن الإنجيل رغبة البحث فقد جاء بعد التوراة وبعد الزبور، فلماذا؟

وهل كان كتابا لمرحلة محددة وقوم مخصوصين؟

ثم ماذا حمل هذا الإنجيل من مضامين؟

لا شك أنّ عيسى المخلوق نبيا ورسولا لبني إسرائيل جاء بمعجزات تقصر العقول عن استيعاب حقّيقتها إلا بالإيمان بالله الخالق عزّ وجلّ، فهو قبل ذلك أي عيسى نفسه كان معجزة لبني الإنسان خلقا وإفصاحا، خلقا في الخلق المعجز لكل قدرة على الإتيان بمثل هذا الخلق وفد سبق تفصيل القول في خلقه صلّى الله عليه وسلّم، وإفصاحا من حيث الكلام في المهد والإفصاح بالدور الذي كلف به.

ومع ذلك أرسل الله عيسى بالمعجزات وهي مجموعة من المستعصيات الطبية وصولا إلى قمة ما استعصى كمعالجة الأبرص وشفاء الأكمة ثم بعد ذلك إحياء الموتى بإذن الله، وختمها بعلم الأسرار.

ولأنّ عيسى معجزة وله معجزات فقد تكلّم يوم ولادته، وهذا بلغة العصر ومنطقه قد لا يصدّق من البعض، ولكن بمنطق المعجزات فهو الممكن بعينه، وهذه هي الأخرى قد لا تكون ميسّرة الفهم لدى البعض، ولكنّها لدى المؤمنين فالخالق قادر على كلّ شيء، وهذه لا تكون إلّا بأمره، الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

وإلّا كيف يقبل العقل أنّ الخَلق الأوّل من طين، والكلام يوم الخلق؟ أي: الم يكن آدم من طين؟

الم يكن آدم من غير أب ومن غير أم؟

وأيهما أقربّ للعقل أن تُخلق جنينا في بطن أمكّ ثمّ تلدك وتتكلّم يوم ميلادك، أم أنّك تخلق من تراب وتتكلّم لغة أنت مصدرها بعد الإلهام الرّباني؟

معجزة التكلّم في المهد هي من معجزات عيسى عليه السّلام الذي حملته السيدة العذراء وأنجبته ثمّ جاءت به إلى قومها؛ فتعجب النّاس من هذا الابن، وبدأوا باتهامها بأنّها لمست رجلا غريبا عنها، إلّا أنّ الله تعالى أنطق رسوله وهو في المهد؛ فتكلم بكلام عجيب؛ فأسكت كلّ من سمع صوته.

وفوق كلّ ذلك فقد رفع الله عيسى، والرّافع "هو الذي يرفع من استحقّ الرّفع من رسله وأوليائه، يرفع منزلتهم في الدنيا بإعزاز كلمته ويرفعهم في الآخرة بارتفاع درجتهم"52. وهو الذي رفع عيسى على الخصوص حافظا ومنزّلا له حينما يأتي الموعد الذي لا يعلمه إلّا هو جلّ جلاله.

ولذا؛ فالرّافع هو الذي بيده القوّة الممكّنة من تحقّيق الرّفعة وإحداث النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد. والرّافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال على الله تعالى مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}53.

---

[52] تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 41.

[53] الأنعام، 165.

وفي لسان العربّ المحيط: الرّافع هو "الذي يرفع المؤمن بالإسعاد وأولياءه بالتقريب، والرفع ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض في كل شيء"[54].

ولو عُدنا للآية السابقة (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إنَّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم) لعرفنا أنَّ الرّافع جلّ جلاله هو الذي جعل الخلائف تتوالى من ولادة سابقة إلى موت يلاحقّها، ومن ولادة جديدة إلى موت متجدد، حتى النهاية بالولادة التي لا يلاحقّها الموت أبدا (البعث).

وبما أنّ الله جعلنا خلائف الأرض، إذن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. وبما أنّ الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. إذن الرزق في الأرض والعيش عليها لن ينتهي مادام الموت لم يمت بعد. والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة، وحينها تصبح الأرض مطوية مثل طي السماوات.

والخلائف: جمع خليفة، وهم الذين يأتون من بعد سابق عليهم من بني جنسهم، وهم من ترتبط صفات اللحوق بهم، ممّا يجعل الموت يلاحقّ كل ولادة ويجعل الاتصال لا ينقطع بالرغم ممّا يفعله الموت، ولذلك فلله في خلقه شؤون.

وقوله: (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي مع أنّه خلقكم في أحسن تقويم، إلا أن مصائركم على الأرض تعتمد على ما تقدمه أيديكم من عملٍ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوى مع من يُفسد فيها. ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب، فالذين استجابوا لربّهم الذي جعلهم خلائف الأرض، سينالون جزاءهم حسنات، والذين

[54] لسان العربّ، ج 1، ص 1197.

لم يستجيبوا لربّهم الذي يُرِيدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[55]. ولذلك فالعلو في الدرجات الحسان رفعة مقام، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرّفعة الحسنة. فرفع الله بعض من الخلائف درجات ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب، أي بما تقدم الأيدي، ولذا فأسباب تحقّيق الرّفعة لم تكن محجوبة عن العباد، أو مقصورة على فئة منهم، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحا يرضاه الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرهُ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرهُ وما ربّك بظلام للعبيد. ولهذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحا، ويعمل على إصلاحها بإصلاحه لِما يفسده المفسدون فيها.

الرّافع: هو المِمكّن من إحداث النقلة، من مستويات دنيا إلى مستويات عُليا، والرّافع هو الذي لا يَرفَع إلا بعد تقديرٍ لِما يُرفع، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف بالرفع قبل أن يَقدِمَ على رفعه. ولكن لأن الرّافع في هذه الآية الكريمة هو الله عزّ وجلّ، لذا فهو الرّافع بقوّة علمه لعلم الغيب.

ولأنّ وراء فعل الرفع هدف وغاية، لذا أظهر الله الهدف من الرفع وهو (ليبلوكم في ما آتاكم) وهذه الآية تعني ليمتحنكم فيما رزقكم به وما أعطاكم من نعم، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك من مُلك من مُلكه تعالى في طاعته وإجلاله، يتفوق في ما يُبتلى به من امتحانٍ، ويفوز بالجنّة، ومن لم يطع الله ويشرك به أو يفسد في الأرض فيخسر المستوى الذي خلقه الله تعالى عليه وهو (أحسن

[55] الأنعام، 132.

التقويم) ويخفضه على كفة الميزان إلى أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلى العليين على الكفة المماثلة للميزان العدل.

ولذلك فإنّ الله سريع العقاب (إنَّ ربّك سريع العقاب) أي أنّه في الوقت الذي يَحدث فيه السلوك الانحرافي يُكتب في ذات الوقت الفعل العقابي المناسب للفعل الانحرافي، الذي لا يُمحى إلا بالاستغفار والتوبة والرحمة من الله تعالى. ولذلك، مع أنّ ما يَقدِم عليه الإنسان ويراه سريعا من أفعال خارجة عن الطاعة التامة لله تعالى، إلا أنّ الله خالق العباد والأعمال يرى الأعمال والأفعال قبل حدوثها وحدوث السرعة التي يرى بها المخلوق ما يرى، وفقا لقاعدة: (يعلم ما لا نعلم) مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحقّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}56، وقوله جلّ جلاله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}57. ولهذا فالله سريع العقاب لمن عصاه فيما أمر، وهو سريع في إحداث المغفرة مصداقا لقوله تعالى: (وإنّه لغفور رحيم)، فالله القادر بكل سرعة على رفع الأعمال بالحسنات، قادر بالسرعة ذاتها على إحداث المغفرة والرحمة لمن يتعظ ويهتدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذا فإن الرحمة فعل استجابة للطاعة، فمن أطاع الله فقد فاز بالرّحمة فوزا عظيما، ومن عصى الله فقد خسر بخسران الرّحمة خسرانا كثيرا، وما ربّك بظلامٍ للعبيد.

---

[56] الأنعام 73.

[57] النعام، 59.

وختاما: لم نترك قضية اهتدينا إلى أهميتها إلا وأخذناها بالنقاش والحوار والبحث التفصيلي ساعين إلى تقديم عمل مفيد وعلى درجة من الأهمية دون أن ننسى أن الكمال لله وحده فإذا وقعنا من دون قصد فيما يخالف عقيدة صحيحة (ولا نظنّ فعلنا)؛ فما ذلك إلا من سهوة أو غفلة والله المستعان.

إنّنا نقدم اليوم كتابا نعتقد أنه يختلف في طريقة العرض والمناقشة عما سبق أن قرأنا واطلعنا ممّا كتب عن عيسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد تجرد البحث عن المؤثرات الفكرية خلا يقيننا بأنه عبد الله ورسوله أُرسل برسالة إلى بني إسرائيل يُصدق بما لديهم من التوراة ويُحل لهم ما حُرم عليهم مدعما بآيات الله المعجزات.

كذلك نأى البحث عن المماّحكات والصراعات والسجالات لأنّها لم تكن من غاياته ولا هدفا من أهدافه، وقلنا إن الموضوعية هي هدفنا الذي نصبو إليه لذلك تركنا كل المخاصمات خلف ستار الاحترام والتقدير وذهبنا نلتمس النور في غير هذه الساحات المفخخة.

كما نعتقد أنّه من الواجب القول أنّ عملنا هو محاولة في الطريق ليست هي الأخيرة ولن تكون، ولكنها يد مدت تدعو إلى المشاركة للنهوض بالبحث بهذه القضايا المهمة من قضايا القصص في القرآن الكريم.

نقول: إنّ الكمال لله، وأنّ الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، وندعوه مخلصين أن يكون هذا العمل من أحاسن أعمالنا، أنّه نعم المولى ونعم النصير.

وما التوفيق إلا من عند الله

عيسى

من وحي القرآن

عيسى ابن مريم هو المسيح صلّى الله عليه وسلّم الذي خُلق بالأمر (كن)؛ فكان متكلما في المهد، ومعجزة من معجزات الله في الأرض مثله في الخلق كمثل آدم (كن؛ فكان)، فآدم صلّى الله عليه وسلّم كان من الأرض ولم يكن له أب ولا أم وهكذا كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم من مريم دون أن يمسها انسيا، قال تعالى: {قَالَتْ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[58].

لقد سُمّي من عند الله تعالى (عيسى المسيح ابن مريم) الذي بُشّرت أمّه به قبل أن تنجبه، ولما أنجبته كلّمها، ثمَّ كلّم النّاس وهو في المهد، ولذا فهو المتكلِّم والمكلَّم الذي أنطقه الله بقوّة الكلمة الحجّة مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}[59]، ولذا فهو المتكلم والمكلَّم من زوايا ثلاث:

الأولى: أنّ مثله كمثل آدم كان متكلما ساعة خلقه على الأرض بالأمر كن، ولذلك كان آدم أوّل المتكلّمين على الأرض ساعة خلقه وأيضا عيسى كان آخر المتكلّمين على الأرض ساعة خلقه عليها، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ

[58] آل عمران 47.

[59] آل عمران 47.

هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}60.

الثانية: إنَّ الأنبياء والرّسُل المصطفين من عند الله يكلّمهم الله بالنبأ العظيم، أو الرّسالة العظيمة، ويكلّمهم إعجازا دون غيرهم، ولذلك لا يقتصر التكليم على نبي دون آخر، ولذلك قال لعيسى كن فكان مسيحا، وبعد أن كان رسولا ونبيا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}61. صيغة السؤال (أَأَنْتَ قُلْتَ) تدلّ على التكليم المباشر وهي تحمل في مفهومها ما يدل على إشارة للمتحدث المباشر وهذه تبعد الواسطة. ولأن علاقته تعالى بالأنبياء والرّسُل علاقة تعظيم فعلينا ألا نقارن علاقاتنا بالله مع علاقته تعالى بأنبيائه ورسله علاقته بهم صلّى الله عليهم وسلّم هي علاقة العظيم بالمعظمين بالاصطفاء المباشر وبالنبأ العظيم أمَّا نحن فعلاقاتنا به علاقات تسليم بالغيب، قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}62. من حيث المفهوم تدل هذه الآية الكريمة على عدم الاستثناء أي ما من رسولٍ إلا وقد أظهره الله على غيب من غيبه تعالى، ويحوطه بحفظه وهيمنته، ونحن نتفق في هذا المعنى مع تفسير الرازي لهذه الآية بقوله: "لمن ارتضى يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي يكون رسولا"63.

[60] مريم 23 . 25.

[61] المائدة 116.

[62] الجن 26، 27.

[63] تفسير الرازي، ج 16، ص 101.

الثالثة: تكليم الرّسُل والأنبياء لله تعالى ضرورة لاستيعاب المترتب على النبأ العظيم أو الرّسالة العظيمة، أو للإجابة على التساؤل كما أجاب عيسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}64. في الآيات الكريمة السّابقة وردت كلمة (أنت) مكررة أربّعة مرات اللاحقّة منها تؤكّد على سابقتها تأكيدا للحديث المباشر الذي لا ينقله الوسطاء، ولذلك فأنت كلمة تشير إلى المتحدث معه ولا يقولها إلا متكلم وتعود دلالات مفهومها على من يوجه الكلام إليه.

وعليه: نحن نعتقد أنّ صفات الله المطلقة بالسّمع والإجابة هي أقربّ إلينا من حبل الوريد، ونحن نعتقد يقينا أنّه السّميع لنا والمجيب لنا، أمّا الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم فهو السّميع لهم والمجيب عليهم، وعلينا أن نتبيَّن المعنى الدلالي للكلمات ونفرق بين (السّميع لنا والمجيب لنا) وبين (السّميع لهم والمجيب عليهم)، ففي الحالتين نستوي أنه السّميع لهم ولنا، ويكون الاختلاف بين (المجيب لهم) التي تدلّ على الإجابة المباشرة وبين (المجيب لنا) التي تدل على الإجابة غير المباشرة، فالأولى تفتح آفاق الكلام المباشر، والثانية تقفله وتفتح باب الإجابة دون الاستماع إلى الكلام المباشر كما هو الحال مع الرّسُل في كثير من

---

[64] المائدة 116 . 118.

الأحيان، قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}65.

عيسى صلّى الله عليه وسلّم هو مؤتى البيّنات والمؤيد بروح القدس، قال تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}66، ولذلك فهو وجيها في الدنيا والآخرة وهو من الصالحين والمقربّين.

إنّه مكلِّم النّاس في المهد وهذه لم تؤتَ إلا له ولآدم الذي خُلق من قبله على التمام إنسانا راشدا، ولذلك لم يكن عيسى صلّى الله عليه وسلّم ثالث ثلاثة كما يظن بعضهم، الذين يريدون أن يشركوا بالله في خلقه وملكه، ومن المستغربّ في الوقت الواحد يؤمن النّاس بأنّ أمر كن لا يكون إلا بيد الله وهو الحقّ، وهو الذي به كان عيسى ابن مريم مسيحا مرسلا، وفي الوقت ذاته يؤمن البعض بأنّ عيسى ابن الله! فكيف يؤمنوا بذلك وهم يؤمنون بانّ الله لا يتجسد في المادة بالمطلق؟ أي أنّ مريم روح ومادة وكلاهما من المخلوقات بالأمر كن، وأنّ عيسى روح ومادة (جسد) وفقا لقاعدة (كن فيكون) وأن الله ليس بروح ولا مادة وهو يَخلق ولا يُخلق، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}67.

أقول نعم، لا مجال للمقارنة، المخلوق لا يمكن له أن يقارن بالخالق جلّ جلاله.

---

[65] محمّد 14.

[66] البقرة 87.

[67] النحل 17.

بُعث عيسى صلّى الله عليه وسلّم بمعجزاته رسولا إلى بني إسرائيل يخلق من الطّين كهيئة الطّير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}[68]، يُفهَم من هذه الآية الكريمة أنّ عيسى لم يَخلق طيرا، بل خلق هيئة له، (شبيه بالمشبَّه) والذي يُعظِّم هذه المعجزة هو نفخه للروح فيه بإذن الله ليكون طيرا، ولذا فكلّما تحقّق النفخ تحقّقت معجزة عيسى صلّى الله عليه وسلّم التي إذن له الله بها، ولأنّ الأذن من الله يخلق المعجزات؛ فالله الباقي باقٍ إذا أعطى معجزة لعبده لابدّ أن تتحقّق ولا استغراب في ذلك، ولذلك من لا يؤذن له من الله لن يخلق معجزة.

عيسى صلّى الله عليه وسلّم صاحب المعجزات بإذنه تعالى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وهو منبئ ومصدق لما بين يديه من التوراة ومُحل لبعض ما حُرم ومبشر للخير وداعٍ إليه.

بُعث عيسى صلّى الله عليه وسلّم إلى بني إسرائيل مصدقا لمن قبله من الرّسُل ومبشرا بخاتمهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[69].

المسيح عيسى ابن مريم على المستوى البشري هو الوحيد الذي أعلمنا الله برفعه إليه وبقائه حيا، فهو لم يُقتل ولم يُصلب ولم يَمت بعد ولكن شُبِّه لهم، والشبيه كما يعلم الكل ليس بالمتطابق مع المشبه قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ

[68] آل عمران 49.

[69] الصف 6.

بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}70.

وعليه أذن الله لعيسى صلّى الله عليه وسلّم أن يخلق من الطين كهيئة الطير فخلقه طيرا بأذنه عزّ وجلّ، قال تعالى: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ ربِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}71. إنّها معجزة من المعجزات التي وهبها الله الخلّاق لعيسى عليه والصّلاة والسّلام، أي أنّ الله تعالى قد هيأ عيسى بمقدرة تمكّنه من خلق ما يشبه الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا، وذلك بالإذن الذي منحه الله لعيسى، أي أنّ الله الخلّاق قد أذن لعيسى أن يظهر مقدرة الخلق. وهذا يعني: أنّ عيسى عليه السّلام قد أصبحت لديه صفّة الخلّاق في أن يخلق وفقا للإذن الذي منحه الله إليه.

وهنا؛ نلاحظ أنّ الله المقتدر قد مدّ عيسى بمقدرة الخلق، وبعض من المقدرات الإعجازية الأخرى؛ ذلك لأنّ المقتدر قادر على إظهار قدرته بفعل الاقتدار، ولذا فالمقتدر المطلق هو كامل المقدرة، والمقتدر بالإضافة هو تام القدرة، والفرق كبير بين كامل المقدرة بالمعطيات الاطلاقية حيث لا نقيصة فيه، وبين تام المقدرة وهو الذي لم يبلغ الكمال استحالة، ويملك معطيات الاقتدار في دائرة النسبية.

ولذا فالاقتدار أبلغ بكماله المطلق، والقدرة قد يدخلها نوع من التضمين بالمقدور عليه ومنها الملك والمليك في معناه، قال تعالى:

70 النساء 157، 158.

71 آل عمران 49.

{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ربّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} 72 وقوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}73.

والقَدِيرُ فَعِيلٌ، والمقْتَدِرُ مُفْتَعِلٌ من اقْتَدر وهو أَبْلغُ. والقَدِيرُ: هو الفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ على قَدْرِ ما تقضِي الحِكْمَة لا زائدا عليه ولا ناقِصا عنه، ولذلك لا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ به إلاَّ اللهُ ومن استمد صفاته منه كما هو حال عيسى عليه والصّلاة والسّلام.

ولهذا؛ فالمقْتَدِرُ هو الله تعالَى، فهُوَ الَّذِي ينتفي عنه العَجْزُ من كلّ وَجْهٍ تعالَى شَأْنُه.74 ووصف الخليفة فيه وارد، إذ يقول أحد هذا مقتدر، ويقصد بذلك من ناحية المال أو من ناحية المنصب أو الوجاهة أو العطاء في القول وأداء الأفعال الحسان وهذه من صفات الخليفة الذي استمد اقتداره من المقتدر الأعظم، أي أنه المتمكن من التصرف في الأمور التي هو قادر على أن يفعلها نتيجة ما يملكه من قوّة اقتدار، إذ يقول تعالى {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}75 والمراد من التمكين هنا أن الله جلّ وعلا جعله ملكا يتصرف في الأرض يأمر وينهي.

المقتدر: هو من يملك الأمر ويحسن التصرف دون غفلة فلا يفوته شيء، ولا شيء إلا منه، ومتى ما أراد له مشيئة يقول له كن فيكون.

ومن مظاهر اقتداره ما أذكره:

---

72 - المؤمنون، 116

73 - القمر 55

74 - تاج العروس، ج 1 ص 377.

75 - يوسف 21

أوّلا: يظهر أدوات مقدرته لخلقه:

اظهر الله سبحانه وتعالى مقدرته في مواضع كثيرة وهي بالكمال كما جاء في القرآن الكريم، وهذا الأمر متعلق بأمور كثيرة، منها ما يتعلق بالكون الذي تعيشه المخلوقات، ومنها ما يتعلق بالمعجزات التي ظهرت على يد الأنبياء عليهم والصّلاة والسّلام، ومنها ما نعلمه ونستدل عليه ومنها ما لا نعلمه حتى نستدل عليه، فالكون بوصفه الفضاء المفتوح أمام من خلق في أحسن تقويم الذي يراه دائما ويمعن نظره به متسائلا من خلق هذا الكون العجيب؟ وعلى أي نظام يسير، ومن هو المخطط له حتى يجري بهذه الدقة العجيبة فلا يصطدم القمر مع الشمس ولا النجوم بعضها مع بعض وكل في فلك يسبحون، وهذه التساؤلات تقود إلى نصوص من القرآن الكريم وأكثرها تحتوي على اشتقاقات الفعل (رأى) مثل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[76] هنا الباري عزّ وجلّ يستعرض آيات قدرته وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره، فضلا عن ذلك جعل البرق آية إنذار وتبشير معا لأنهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه.

وإنشاء السحاب: تكوينه بإثارة الأبْخرة التي تتجمع سحابا. ومع كل التساؤلات فالخليفة لا تساؤل له لأنه يعلم وراء كل مخلوق خالق، والخالق بالمطلق هو أحسن من المخلوق دون مقارنة ظنية أو شكية، ولهذا فهو المؤمن بالحقّ قولا وإتباعا بالعمل الصالح الذي ينتج خيرا كثيرا.

---

[76] - الرعد 12 - 13

هنا يرى الخليفة قدرة الله سبحانه وتعالى من خلال ما يرى أمامه من عظمة الباري عزّ وجلّ وقدرته، فالبرق فيه جانبان، جانب يرغب فيه الخليفة، ففيه إشارة إلى نزول الغيث والذي فيه تتجلى رحمة الله تعالى بإحياء الأرض، فيخرج منها ما يخرج رزقا للإنسان وبقية الكائنات، إذ يقول تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}77 ومن ذلك أيضا قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آَيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ}78هذا جانب الرغبة، أما جانب الرهبة فيتجلى في البرق ففيه صوت شديد يفزع منه بعض البشر حين النظر إليه أو سماعه، ومن عواقب البرق في بعض الأحيان مصاحبته بالصواعق التي تؤدّي إلى إهلاك المصاب.

والمعجزات التي رافقت الأنبياء عليهم والصّلاة والسّلام هي جانب مهم من جوانب إظهار مقدرة الباري عزّ وجلّ، منها ما كانت مادية، ومنها ما كانت عقلية، ونقصد بالجانب المادي أنها كانت ترى بالعين المجردة، كمعجزات موسى عليه والصّلاة والسّلام، العصا وغيرها، وولادة عيسى عليه والصّلاة والسّلام، وما كان يعمله أمام النّاس، إذ كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، أما الجانب الأخر فهو المعجزة العقلية وهي القرآن الكريم الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله الأمين محمّد عليه والصّلاة والسّلام آيات مفصلات وفي كل آية قرآنية إعجاز مادي يستوجب الإدراك ومن أدركه آمن. لذا فعلى الخليفة الذي آمن أن يبحث في دائرة العلوم والمعارف دون توقف حتى

77 - الروم، 24

78 - غافر 13

يُّمكن النّاس من الاطلاع عليها، فإن اطلعوا عليها آمنوا وإن آمنوا اهتدوا وإن اهتدوا كانوا من المستخلفين فيها بالإصلاح والعمل النافع.

نلتمس من تاريخ الأمم أن كل أمة جاء فيها رسول أو نبي كانت تطلب منه برهانا على صدقه، ومن حقّها أن تطلب هذا البرهان إن لم يحصل لها العلم بنبوته من طريق آخر، وذلك للتثبت من صحة نبوته، ولكن دون تعنت أو شطط، فيأتي البرهان على صورة معجزة ما، سواء كان ذلك ما طلبوه، أو شيئا آخر غير الذي طلبوه.

ينزل الله سبحانه وتعالى بحكمته العالية المعجزات على أيدي رسله المكرمين، باعتبار أن الشواهد المادية والمعنوية الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته تضع الباحث عن الحقّ أمام البرهان الواضح، الدال على صدق الرّسول في دعواه بالرّسالة. ذلك لأن الذين يتحداهم الرّسول بالمعجزة بشرا لا يستطيعون الإتيان بها منفردين أو مجتمعين، في حدود قدراتهم الممنوحة لهم بحسب مستواهم.

والمعجزة أمر ممكن عقلا، خارق للعادة، يجريه الله تبارك وتعالى على يد من أراد أن يؤيده، ليثبت بذلك صدق نبوته، وصحة رسالته.

عند الحديث عن المعجزات المادية نتحدث عن معجزة النّبي موسى عليه والصّلاة والسّلام، فقد بعثه الله تعالى إلى قوم كان السحر عندهم هو الأمر الشائع الذي لا يمكن مجاراته أو التغلب عليه أو حتى الوقوف أمامه إلا أن قدرة المقتدر عزّ وجلّ كانت الحجّة الدامغة أمام أنظار السحرة، إذ يقول تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ

سُوءٍ آَيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آَيَاتِنَا الْكُبْرَى}79 وإبراز انقلاب العصَا حيّةً في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشكّ عن أن يتطرقه لو أمره بذلك دون تجربّة لأنّ مشاهدَة الخوارق تسارع بالنفس بادئ ذي بدء إلى تأويلها وتُدخل عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدأ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حيّة لم يشك في أنّ تلك الحيّة هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقّيق حقّيقة المسؤول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء، وأن الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلّم معتاد ولا في صورة المعتاد، كما دلّ عليه قوله بعد ذلك: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}80، فقد اشتهر أهل مصر في ذلك الزمان بالسحر وبلغوا القمة فيه، ولذلك فان سحرة فرعون لما رأوا المعجزة علموا أنها ليست من نوع تخصصهم لخبرتهم بالسحر، فآمنوا في الحين، وهذه آية ومن ورائها آيات، إذ يقول تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِربّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آَمَنَّا بِربّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}81.

---

[79] – طه، 17 – 23

[80] – التحرير والتنوير، ج 9 ص 36

[81] – طه، 70 – 73

أما المعجزة الأخرى فهي معجزة (الرجز) يعني العذاب وتتضمن هذه المعجزة صورا متتالية من الآيات الرّبانية، طلب موسى من فرعون أمرين:

الأمر الأول: استجابته للدعوة الرّبانية، وإيمانه بالله هو وقومه.

الأمر الثاني: فهو السماح له بأن يخرج بني إسرائيل من مصر ويغادر بهم إلى أرض الكنعانيين (فلسطين).

ولم يستجب فرعون لأيّ مطلب منهما وهذه آية من ورائها آيات، وأخذت فرعون العزّة بالإثم، وعتا عن أمر الله تبارك وتعالى، وتمادى في تكذيب موسى عليه والصّلاة والسّلام، واستمر في إذلال بني إسرائيل وإهانتهم وتسخيرهم.

فأمر الله تبارك وتعالى موسى عليه والصّلاة والسّلام أن يعلن لفرعون وقومه أن الله تعالى سيوقع بهم ألوانا من العذاب، عقوبة لهم ماداموا على كفرهم وعنادهم وإصرارهم على التمادي في الباطل، وأعلن لهم موسى ذلك وتوالت على مصر صنوف العذاب الرّباني، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آَيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آَيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}82.

أما النّبي عيسى عليه والصّلاة والسّلام فكان خاتمة أنبياء بني إسرائيل، وقد أرسله الله تعالى إليهم، وأنزل عليه الإنجيل وأيده بخوارق عادات باهرات، فمنها ما كان إرهاصا بنبوته، ومنها ما كان معجزة مرافقة لرسالته، ليشهد الله تعالى له بصدقه فيما يبلغ عن ربّه.

فمن إرهاصاته، ولادته من أم دون أب، شهد له بذلك القران الكريم، معلنا براءة أمه وحصانتها، وموضحا طريقة تكوينه في بطنها بوساطة نفخة جبريل عليه السّلام. وكلامه وهو صبي في المهد، ووصف حال أمه حين جاءت به إلى قومها تحمله، إذ يقول تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}83.

أمّا معجزاته، فقد أرسل عليه والصّلاة والسّلام إلى قوم يفاخرون بمهاراتهم بالطب، وبلغوا فيه الحد الأقصى، فجاءت معجزته من ذلك القبيل يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، إذ يقول تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ ربّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي

[82] - الأعراف 130- 136

[83] - مريم 27 34

بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}84 آيات من الله تبارك وتعالى في خمس من المعجزات لعيسى عليه والصّلاة والسّلام، وهذه المعجزات لا يستطيع أحد القيام بها إلا أن يكون مقتدرا وهذه صفة المقتدر الأعظم الذي ليس له مثيل ولا يقارن بالمطلق، إنه الله جلّ جلاله، وهذه القدرة تتجلى هنا من خلال عرض معجزات لا يمكن للبشر إطلاقا القيام بها أو حتى محاولة التفكير فيها، فهنا يكون التسليم بها لا محالة.

أمّا نبينا محمّد عليه والصّلاة والسّلام فكانت بعثته إلى قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة، فقد بعث بين فصحاء قريش، وكانت العربّ تتحاكم في الفصاحة بين أيدي قريش، إذ كانوا يجتمعون في أسواقهم كعكاظ يلقون الخطب والقصائد ويتفاخرون بالفصاحة ويتحاكمون لدى الحكماء هناك، لهذا كانت قريش أفصح العربّ، لأن العربّ يفدون إليها جميعا فتأخذ من جميع لغاتها الأفصح منها، لهذا كانت معجزته صلّى الله عليه وسلّم العظمى في القران الكريم المشتمل على جميع أجناس البلاغة، وقد تحداهم القران الكريم على أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن الإتيان بمثله وذلك في قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}85 ثم تحداهم أيضا بالإتيان بعشر سور مثله إن استطاعوا مع علمه المسبق بانعدام استطاعتهم، ولكن لإعطائهم الفرصة في دائرة المستحيل بالمطلق، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}86 بيّن الله سبحانه وتعالى إعجاز القرآن الكريم، وأنّه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور

[84] - آل عمران، 49

[85] - الطور 33 - 34

[86] - هود 13

من مثله، لأنّ كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين، فضلا عن ذلك أن الرقم عشرة لا يعني أنهم يستطيعون الإتيان فعلا بعشر سور فإن مجموع السور العشرة شيء واحد. ألا وهو عجزهم لأنّ الإتيان بأي شيء. ثم تحداهم بسورة واحدة من مثله وذلك في قوله جلّ وعلا: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}87 ومع هذا فإنهم عجزوا عن الإتيان بمثله وعن الإتيان بسورة واحدة من مثله، كما خاطبهم بذلك في قوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}88 فقد ثبت عجزهم عن معارضة القران الكريم ولجأوا إلى الحربّ وقتال المسلمين، وحينها استوجب الجهاد والجهاد آية من ورائه آيات عظام.

وعليه، كلّ شيء في الخلق آية، وآيات الخالق لا يمكن أن يعدها أو يحصيها مخلوق مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ربّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ربّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ربّنَا لِيُقِيمُوا والصّلاة فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ربّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ

[87] – يونس، 38

[88] – الإسراء، 88

وَمَا يَخْفي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ربّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ والصّلاة وَمِنْ ذُرّيَّتِي ربّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ربّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[89].

نتبيَّن عددا من المعجزات تستوجب الوقوف عندها اتعاظا بها في الحياة الدنيا وطاعة تامة بمن أنزلها وخلقها لا إله إلا هو. وهكذا جميع آيات الكتاب الحكيم هي معجزات ومن هذه المعجزات ما جاء في الآيات الكريمة السابقة الذكر في سورة إبراهيم عليه والصّلاة والسّلام، وهي:

1 . الخالق هو الله ولا خالق سواه، والخليفة هو المؤمن بأن الخالق هو المقتدر الأعظم فلا غالب له أبدا.

2 . ومن آياته العظام خلق السماوات، التي فيها المجرات والحركة كل في فلك يسبحون، والسماوات جمع السماء، والخليفة وحده يؤمن بوجودها يقينا، مع أنّه لم يرها هي كما هي وهذه مليئة بالمعجزات العظام، والمعجزة المضافة إليها أن يتم الإيمان بها دون أن ترى بالعينين المخلوقتين آية من آيات الخالق.

3 . ومن آياته خلق الأرض معجزة منها خَلق المعجزة وهي آدم الذي خلق هو من أديمها آية سبحانه إنه المقتدر جلّ جلاله. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا

[89] إبراهيم، 32 ـ 42.

قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النّار يُسْجَرُونَ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[90]، ومن آية الخلق من التراب تتعدد الآيات العظام، ولهذا سبق أن قلنا من كل آية تتولد الآيات وفي كل آية معجزات تتعدد سبحانه إنه المقتدر العظيم. ولذا أوضح في تعداده لبعض من الآيات معجزات تتعدد، خلق الأرض آية، وخلق آدم منها آية، وجعله خليفة فيها آية، وخلقه للنطفة آية، وخلقه للعلقة آية، وإخراج الطفولة منها آية، وجعله النمو والكبر عبر الزمان آيات تتعدد، من مولود إلى طفل وصبي وشاب ورجل وكهل وشيخ وعجوز كل هذه آيات نراها بأم أعيننا ممّا يجعل في رؤيتها آيات تتنوع من ذكر وأنثى وخلق الموت آية تلاحقّ جميع الأعمار وهو على كل شيء قدير مقتدر. وكما أنه خلق الحياة والممّات آيات عظام كذلك خلق الخليفة مؤمنا من الذين خلقهم في أحسن تقويم، وكان منهم الكافر والمشرك والضال والغافل والغني والفقير، وكان منهم الأنبياء والمرسلين، كل ذلك آيات فمن يهتدي يهتدي لنفسه ومن يضل يضل عن نفسه وهكذا تتولد الآيات من الآية بما لا يحصى ولا يعد، ومع ذلك تجد من يجادل في آيات الله بغير حقّ، أي بغير حجّة تسنده أو دليل يستدل به وهذه في ذاتها آية حيث الخالق يخلق في أحسن تقويم

[90] غافر 67 . 77.

ثم لا يؤمن به أو يشرك به أو لا يهتدي إلى ما يجب الهداية إليه، سبحانه إنه المقتدر العظيم الذي بحمده نهتدي وبحمده نشكره ونتوب إليه وبه نستعين على كل شيء بنية واثقة من مقدرته على تحقّيق الفعل المراد وهذه آية والحمد لله ربّ العالمين.

4 . ومن آياته أنزل من السّماء ماء: مع أنّ مصدر الماء لم يكن السماء، إلا أنّه جعل من البخر آية لرفع الماء من البحار والأنهار والمحيطات إلى الأرض الجرز وحيث يشاء، وفي هذه آيات تتعدد، وهي آيات مبصرة تُرى بجميع الحواس قال تعالى: {ربّ الْمَشْرِقَيْنِ وَربّ الْمَغْربَيْنِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ ربّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذِّبَانِ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى

الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ}91.

آيات عظيمة تتولد من آيات عظام، انظروا ما خلق في السماوات والأرض وعليكم بإتمام سورة الرّحمن وآياتها العظام ولن تحصوها ولن تعدوها بالمطلق حيث وراء كل آية آيات عظام، فما بالكم بآيات الكتاب كله سبحانه إنه المقتدر وهو على كل شيء قدير فله الحمد والشكر إنه ربّي الذي لا إله إلا هو، به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأمر أسرتي وما أملك إليه فنعم المولى ونعم الوكيل والنصير.

5 . إخراجه للثمرات رزقا: سبحانه قد خلقنا وخلق لنا رزقا متنوعا ومتعدد مع تعددا آياته وتنوعها، ولذا وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فاتقوا يا أولي الألباب واستغفروا الله يغفر لكم من ذنوبكم ويجعلكم من المستخلفين والوارثين في الدارين. قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِربْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

---

[91] الرّحمن، 17 . 60.

الْأَلْبَابِ}92، إنها الآيات الكريمة المتولدة من الآيات العظام فانظروا كيف يضاعف الثمرات مع مضاعفة الحسنات سبحانه إنه المقتدر على ذلك والفعَّال لما يريد.

6 . تسخيره للفلك لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ: من آياته العظام التي نزلت في الآيات السابقة الذكر من سورة إبراهيم عليه والصّلاة والسّلام، الذي جعل منه تعالى في ذاته آيات، آيات في اصطفائه أبوا الأنبياء، وآيات في تحديه قولا وعملا للكفرة والمشركين، وفي براءته من النّار آيات عظام مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}93. ما أجمل الآيات تتولد وتتعدد وتتنوع من الآية الواحدة، وما أجمل إبراهيم نبيا يولد في قوله المعجزة من ربّه الذي جعل أمر النّار عليه أن تكون بردا وسلاما.

وعليه فإنّه سخر الفلك تجري في البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات بأمره آيات خلقها للتنقل والتواصل والنجاة كما هو حال

---

[92] البقرة، 265 . 268.

[93] الأنبياء، 59 . 72.

نوح عليه والصّلاة والسّلام الذي قال فيه تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ ربّهُ فَقَالَ ربّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}94. إنها الآيات التي تجعل الذين خلقوا في أحسن تقويم على أحسن خليفة في القول الصادق والفعل الخالص. وهكذا كانت الفلك آيات في البحار والبحيرات والأنهار والمحيطات قال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى ربّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِربّهِمْ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ

[94] هود 36 . 35.

وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}[95].

7 . ومن آياته أنّه سخر لمن يريدهم خلائف في الأرض الشمس والقمر دائبين: كما سبق أن أوضحنا أن الشمس آية وكذلك القمر آية، وهنا جاءت آية عظيمة مرتبطة بهما وهي أن كل منهما دائب أي طائع في حركته وزمانه للأمر الذي خلقه بالقول (كن)، وفي هذا الدَّأب تناهٍ في الطاعة دون الخروج إلى معصية. ولهذا فإن الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، والحسبان مبلغ الدقة التي لا تدخلها الغفلة أو المغالطة أو الخطأ، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالحقّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[96].

8 . من آياته أنّه سخر لمن يراد له أن يكون خليفة الليل والنهار: نعم إن الليل والنهار آيتان عظيمتان مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آَيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آَيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آَيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

---

[95] الشورى 32 ـ 44.

[96] يونس، 5، 6.

تَفْصِيلًا}97. النهار مبصرا بضوئه للعمل والإصلاح والفلاح والعمار في الأرض، والليل سكنا ولباسا للراحة لأجل العمل بعد أن يعود النهار مبصرا.

9 . من آياته إيتاء العباد من كل ما سألوه: قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}98. سبحانه إنه المقتدر الذي يملك بالمطلق ويعطي ما يشاء لمن يشاء متى شاء، رغبات النّاس تتعدد وتتنوع وتتطور، ومع ذلك فإن آيات المقتدر أعظم وهذه آيات كريمة تستوجب الحمد والشكر والعرفان بالطاعة والعبادة، وفوق ذلك يتم استخلاف الإنسان في الأرض وحمل الأمانة وهو بها ظلوما جهولا قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

---

97 الإسراء، 12.

98 البقرة، 58 . 61.

جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[99].

10 . ومن آياته النعم التي خلقها وهي لا تعد ولا تحصى: قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[100]، بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الخالق مثل المخلوق، الخالق مصدر لكل خلق، والمخلوق ليس بمصدر خلق، وذلك لأنّه لا يخلق (يصنع) إلا من مخلوق (مصنوع) سابق عليه، ولهذا لا يعد مصدرا للخلق، ولكن من يستمد صفاته من صفات خالقه تكون روح الخلق فيه فيخلق ممّا خلق له الخالق أشياء، أي انه القادر على استمداد الشيء من الشيء، ولكن غير قادر على خلق الشيء من أساس وجوده وخلقه.

11 . من آياته أن الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم منه الظلوم الكافر: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[101] خُلق الإنسان في أحسن تقويم ليكون الخليفة في الأرض التي منها خلق، ولأنّه منها خلق، عليه أن يعمل على الإصلاح فيها، إلا أنّ الفرقة كانت بين مصلح ومفسد، وبين كافر ومؤمن، وبين ضال ومهتدٍ، وبين محسن وظالم، ومنذ البداية كان الصراع بين ابني آدم مصداقا لقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ

[99] الأحزاب، 72، 73.
[100] النحل 17 . 20.
[101] إبراهيم، 34.

اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[102] الآية إعجازية دالة على كل ما هو قابل للتحقّق، ومن آياته أن الذي خُلق في أحسن تقويم عندما يكون ظلوما، يقصر تفكيره عن تفكير الغراب الذي لم يكن من المخلوقين في أحسن تقويم، ولذا فالهداية نور بها يتم الاستيضاح دون لبس أو غموض، وبعد أن وقعت الآيات وهي القتل بغير حقّ، وعدم المعرفة بمواراة الجثمان جاء فعل الغراب آية، ثم جاء فعل الندم آية، وهكذا تتولد الآيات من الآية بفعل المليك المقتدر.

12 . من آياته الدعاء والاستجابة: الدعاء الخالص له الاستجابة الخالصة، فإبراهيم عليه والصّلاة والسّلام دعا ربّه بقوله كما جاء في الكتاب الحكيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ربّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ربّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ربّنَا لِيُقِيمُوا والصّلاة فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ربّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ربّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ والصّلاة وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ربّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ربّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

---

[102] البقرة، 27 ـ 31.

غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}103.

وعليه لكل دعاء استجابة ولكن زمن الاستجابة في علم الغيب، أي متى تكون الإجابة هذا الأمر بيد المجيب المطلق جلّ جلاله. الإجابة تأخذ أوجه فهي قد تتزامن مع الدعاء، وقد تكون تالية له بوقت قصير وقد تكون ذات زمن بعيد، ولكن شيئا واحدا لا نغفل عنه وهو لابدّ أن تكون الإجابة من السميع المجيب. وإلا هناك من يظن أنه سميع ولا يجيب؟ استغفر الله إنه الحقّ المجيب. قال تعالى: {وَقَالَ ربّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}104، وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}105. أمّا الكافر والمشرك فآلهتهم لا تستجيب وذلك لفقدانها صفة السمع، وهي لا تنطق ولا تمتلك آية، ولأن الاستجابة آية، إذن لا وجود لآية إلا من سميع قريب مجيب لا يغفل أبدا ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يموت ولا يبلى. ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}106.

من خلال ما سبق بين الله تبارك وتعالى أدوات قدرته والتي يمكن أن نقسمها على قسمين: القسم الأول: وقتيه مرتبطة بزمان ومكان مثل معجزات الأنبياء موسى وعيسى عليهم والصّلاة والسّلام، أما

103 إبراهيم، 35 ـ 42.

104 غافر 60.

105 هود 61.

106 الأحقّاف، 5.

القسم الأخر فهي معجزات دائمة ومستمرة وهي معجزة القرآن الكريم فهي خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكلها دلائل تشير إلى اقتدار الباري عزّ وجلّ المتمكن الذي بيده كل شيء.

ثانيا: موزع الأرزاق كما يشاء:

الرزق مفردة تتردد بين طيات القرآن الكريم، وهي محور كبير يدور حوله كثير من خطابات الكتاب الحكيم، فهي أمر عظيم تتجلى من خلالها قدرة الباري عزّ وجلّ، فالخلق أجمعين قدر لهم خالقهم تبارك وتعالى أمورهم جميعا منها أعمارهم، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}107 هنا عملية عرض لخلق الإنسان من بداية تكونه إلى الموت، إذ أن عمر الإنسان مقدر له فلا ينقص ولا يزيد ساعة واحدة، يقول الحقّ تبارك وتعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}108 كذلك الرزق قدره الله سبحانه وتعالى بين النّاس بمختلف ألوانهم ودياناتهم واعتقاداتهم، إذ يقول الحقّ تبارك وتعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}109 فمن رحمة الله تبارك وتعالى انه يرزق حتى الكفرة الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما

107 - الحج 5

108 - الأعراف 34

109 - الإسراء، 20

قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة، ولذا فهم الوارثون حقّا والمستخلفون حقّا إذ يبشرهم بقوله: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}110 فرحمته واسعة تتخطى كل الحدود التي يفكر بها الخليفة فهي أمامه يجدها في الآخرة. أما توزيع الرزق، فهو بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد فيه ما يقتضي الحظر كالكفر مثلا. أما توزيع الرزق فلا يكون بالتساوي بين النّاس جميعا فهو مقتدر أن يرزقهم جميعا بالتساوي لكنه بمشيئته وحكمته وإرادته لا يرزقهم بالتساوي، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}111 هنا تتسم معاني الاقتدار بأوضح صورة قادر وقدير ومقتدر يتصرف كما يشاء، ويعطي كما يشاء، ويأخذ كما يشاء بيده الملك، يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته، فيخص بعضا بالإناث وبعضا بالذكور، وبعضا بالصنفين جميعا، ويزوجهم ذكرانا، ويخص آخرين بالعقم فلا يهب لهم ولدا قط. توزيع وفق ما يريد جلّ جلاله فهو المقتدر.

أمّا الغيث فهو جانب آخر من جوانب رحمة الله سبحانه وتعالى الدالة على اقتداره، فهو لا يعطيه بالتساوي بين النّاس إنما يخص به من يشاء وفق حكمته وإرادته العظيمة، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}112 الغيث

---

[110] – الأعراف 156

[111] – الشورى 49 – 50

[112] – الشورى 28

رحمة لأنه ماء والماء مصدر كل حياة مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}113 فعندما يكون الماء مطرا تكون الرحمة فيه لإحياء الأرض، وهذه الرحمة ليست مقيدة بأحد المخلوقات إنما هي مطلقة لهم جميعا، وذلك لأنها وراء كل رزق، فهنا دلالة واضحة على قدرة الله تبارك وتعالى في إعطاء رحمته وتوزيعها كيفما يشاء متى ما شاء.

وقد يمنع الرزق بسبب المعصية التي تكون سببا في انقطاع الرزق، كما ورد في قوله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنّة إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُون فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ ربّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُون أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ ربّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى ربّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى ربّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}114 إن الله سبحانه وتعالى يعطي العبد على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواضب على شكره على ما أعطاه من نعم، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى قد يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات، وقد يزيده ابتلاء. روي أن رجلا من ثقيف وكان مسلما، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقربّ صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيبا وافرا للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا

[113] الأنبياء، 30.

[114] - القلم، 17 – 33

كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين، مثل ما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم115 هذه القصة تتأطر ضمن إرادة المقتدر تبارك وتعالى، الذي يتجلى من خلالها أن منع الرزق هنا وان كان فيه سبب وهو المعصية لكن مشيئة الله هي التي جعلت من البستان المثمر رمادا يتطاير في الهواء.

ويقابل منع الرزق منح الرزق بإرادته ومشيئته، إذ يقول تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}116 والاستغفار هنا هو الإيمان أي آمنوا إيمانا يكون استغفارا لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم فإن غفر لكم فسيأتيكم الخير الواسع في الدنيا والآخرة، فالله تعالى هو المقتدر بان يرسل عليكم الرزق من أموال وبنين وغير ذلك.

ولأنّه المقتدر كان عادلا في توزيعه للرزق على كلّ ما خلق مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}117، إذا بالنسبة للرزق لكل نصيبه فيه، لا يخلق

---

115 - تفسير الرازي، ج 15 ص 445

116 - نوح 10 – 12

117 هود 6، 7.

شيئا إلا وعليه برزقه لا يظلم ربّك أحدا. وهذه شرعة من اتبعها كان مهتديا بالحقّ للحقّ ومن كفر فقد ضل سواء السبيل، ولهذا كان الخليفة مصلحا وكان الضال مفسدا وما ربّك بظلام للعبيد.

رابعا: مقتدر بإنزال العقاب أو رفعه:

العقاب اسم يتردد ضمن سياق كثير من الآيات القرآنية، وذلك لأن النص القرآني يحتوي بين طياته على ثنائية الثواب والعقاب، فقد كان العقاب هو الحل الأخير لكثير من الأقوام التي لم ترتدع ولم تتعظ ولم تتراجع عن غيها بعد أن رأت آيات الله سبحانه وتعالى وقدرته على أيدي أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، فالعقاب مقدَّر من الله سبحانه وتعالى فلا يمنعه إلا هو، فكثير من الأقوام حل عليهم عقاب الله سبحانه وتعالى مثل قوم نوح عليه والصّلاة والسّلام كان عقابهم الغرق، والطوفان آية مهيبة لقدرة الباري عزّ وجلّ في الخروج عن المتعارف لدى النّاس، وتحول الأرض إلى بحر هائج أمواجه تشبه الجبال العظيمة، إذ يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}[118] الطوفان ما كان إلاّ عن مثل زلازل

[118] – هود 40 – 45

تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها الذين حقّ عليه القول، منظر رهيب تتجلى فيه قدرة الباري عزّ وجلّ يبدأ من الاختيار من كل شيء زوجين دلالة البقاء، وعدم انتهاء الأمر نهائيا بل فيه عودة إلى الحياة، وفيه إعمار للأرض التي تريد دائما الخليفة المؤمن والعادل الذي اختاره الله تبارك وتعالى ليستخلفه في الأرض، فمنظر الطوفان تتجسد فيه أروع صور الاقتدار التي تدلل على عظمة الباري عزّ وجلّ فهذه السفينة تجري وسط هذه الأمواج العنيفة وهي تحمل ما عليها، ثم بعد أن ينتهي الطوفان ترسو وتبدأ صفحة جديدة من تاريخ البشرية.

ونلحظ من قوله تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) شيئين:

الشيء الأول: إن مفتاح الحركة بالنسبة للسفينة هو (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا) فكانت تجري في أمان بالرغم من تلاطم الأمواج، وإن مفتاح الإيقاف هو (بسم الله مُرساها) فوقفت بسلام في مكان النجاة المحدد بقوّة المقتدر جلّ جلاله.

وقوم لوط كان عقابهم أن جعل الله تبارك وتعالى قريتهم عاليها سافلها، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[119] وقوم شعيب كان عقابهم بالصيحة، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا

---

[119] - هود 82 – 83

لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}120 وقوم صالح أخذتهم الرجفة {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}121، هنا تجلت قدرة الله سبحانه وتعالى في إنزال العقاب على الأقوام التي لم تستجب لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وبهذا طويت حياتهم من الدنيا كلمح البصر ولم يعد لهم من ذكر سوى أسماءهم وبقايا ديارهم التي توحي دائما بقدرة الباري عزّ وجلّ في إنزال عقابه على المستحقّين، بعد ذكر هذه الأقوام وما حل بها نقصد قوم صالح ولوط وشعيب نأتي إلى قصة يونس عليه والصّلاة والسّلام الذي آمنت قريته بعد أن كاد يحل بها العذاب، فرفع عنها ونجت منه بالإيمان. وهي لمسة من ناحية أخرى تزين الإيمان للمكذبين، لعلهم يتقون العذاب الذي ينذرون. ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وقوم موسى المهلكين، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}122 قوم يونس بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءٍ منقطعا. وإذ كان الكلام تغليطا لأهل القرى المعرضين عن دعوة الرّسُل، وتعريضا بالتحذير ممّا وقعوا فيه. فالمقتدر تجلت قدرته في رفع العقاب عن قوم يونس فلا أحد ينزل العقوبة أو يرفعها إلا هو المقتدر تبارك وتعظم.

المقتدر: هو رحمن وجبّار، ورحيم وشديد العقاب، أي أنّه فعال لما يريد، إنّه المقتدر على الثواب والعقاب والحاجة والإرزاق، ولذا لكل

---

[120] - هود 94 -95

[121] - الأعراف 78

[122] - يونس، 98

فعل سبب وعلة ولهذا لا يمكن أن يظلم ربّك أحدا، إنه المقتدر بعدله ومغفرته سبحانه إنّه ربّي.

إنه المقتدر على الحياة والممّات والبعث، والمقتدر على الابتلاء وفك الابتلاء اللهم فك ابتلائنا عنا وارزقنا رزقا نافعا وملكا طاهرا، وأبناء صالحين مصلحين يصلحون ولا يفسدون في الأرض التي منها خلقنا وفيها استخلفنا ولا تجعلنا وإياهم سافكي دماء بغير حقّ، واجعلنا على العدل والطاعة والاهتداء للحقّ بالحقّ إنك الحقّ جل جلالك.

رابعا: كشف الضر:

يتردد عندنا في الحياة صبر أيوب فيضربّ المثل بصبره، وتكتب القصائد الكثيرة بذكر صبر أيوب، وكيف تحمل ما تحمل من المعاناة والآلام فلم تثنه عن إيمانه بالله تبارك وتعالى بل زادته إيمانا، إذ يقول تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}123 في هذه القصة العظيمة التي أرخت لحياة نبي من أنبياء الله فوسمته بسمة من أعظم السمات، ألا وهي سمة الصبر، فالضر الذي أصاب النّبي أيوب عليه والصّلاة والسّلام هو مقدر من الباري عزّ وجلّ وهو الذي يرفعه متى أراد لحكمة ومشيئة تتعلق به تبارك وتعالى، وهذا مثل واضح وبيّن أراده الله تعالى من أجل الاتعاظ واللجوء إليه، فهو المقتدر على كشف الضر اللهم فك الضر عنا وارحمنا بواسع رحمتك إنك سميع مجيب.

[123] - ص، 41 – 44

للبحر أهوال ومشقة يتعرض لها الخليفة فيلجأ إلى الله تعالى كي ينقذه ممّا تعرض له يقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}124 والضر هنا هو الغرق فالصيحات تتعالى وتستغيث تطلب النجاة والوصول إلى البر الذي هو المأمن فمن يصل بهم إلى البر لا يوجد أحد غير هو المقتدر الذي ينقذهم ممّا هم فيه، وهم في دعائهم يقصدونه هو لا غير.

والخليفة يتخلق بخاصية كشف الضر من خلال وجوده في المجتمع ومتابعة إخوانه والوقوف على أحوالهم، والضر قد يكون أنواعا، منه الضر البدني وهي الأمراض التي تنتشر في بعض الأحيان فتصيب إنسانا دون آخر من باب الابتلاء. ومنه الضر المادي، كأن يتعرض بيت من البيوت إلى الهدم نتيجة للتعرية أو سقوط الأمطار بغزارة الذي يؤدّي إلى الفيضانات. فيسعى الخليفة بكل السبل من أجل رفع الضر وإرجاع الأمور كما كانت.

ولهذا فإن رفع الضر آية من آيات الله العظام فهو يرينا الرحمة جنبا إلى جنب مع الشدة والعقاب، وذلك لأجل أن نهتدي ولا نضل، ولأجل أن نعمل فلاحا وإصلاحا ولا نفسد فيها بغير حقّ، ولا نظلم أحدا.

وعليه بالنسبة للخليفة إلحاق الضرر بالكافر يعده رحمة لا كما يعده الكافر على نفسه، وهكذا إلحاق الضر بالمؤمن يرضي الكافر ولا يغيظ المؤمن لأنه يعتبره ابتلاء والابتلاء يزول بالإصلاح والهداية، ولهذا إنه تنبيه للعمل الخيّر والتمسك به، فمن اهتدى يهتدي لنفسه ومن

124 - الإسراء، 67

ضل عنها ضل. فالمؤمن إذا وقع عليه ظلم حتى ولو كان مقتدرا على رده وردع صاحبه يقول في نفسه ما أمر به الله تعالى أن يقال: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرّسول مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}125.

خامسا: إصلاح الخلائق:

المقتدر هو الذي يقدر على إصلاح الخلائق على وجه لا يقدر عليه غيره فضلا منه وإحسانا، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}126. القول السديد هو قول الحقّ، وقول الحقّ إصلاحي، ولأجل الإصلاح يجب أن يقال القول الحقّ حتى لا تزور الحقّائق بمشبهات ليست هي كما هي.

وتتقابل مع لفظة الإصلاح لفظة الإفساد، فعندما يراد الإصلاح لابدّ أن يكون هناك فساد، ولذا يستوجب إحلال الشيء المصلح محل الشيء المفسد، ولأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم فهو المدرك الذي يمتلك العقل الذي به يميز بين ما يجب الإتباع وبين ما يجب الابتعاد عنه وتجنبه، ولأن الله جعل كل شيء بالقوّة على الإرادة، فما يبدو لأحد موجبا قد لا يكون كذلك للآخر، ولهذا يدور الصراع حتى يغلب أحدهم الآخر أو يهزمه، وفي هذا الأمر مغالبة، والمغالبة تدس خلفها ردود الأفعال والضغائن والثأر في أوقات الغفلة أو المفاجئة.

[125] آل عمران، 72. 74.

[126] - الأحزاب 70 - 71

ولأنّ المقتدر جعل للتخيير والتسيير فسحة في القول والفعل في دائرة الإرادة والنسبية، فكان الخليفة مؤمنا مهتديا، وكان الكافر مشركا ضالا، وهذا الأمر ورد منذ بداية الخليقة، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}127 فمنذ خلق أدم عليه والصّلاة والسّلام ترددت لفظة الفساد والتي أصبحت بدايتها عمليا بقتل قابيل لأخيه هابيل، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحقّ إِذْ قَرباّ قُرباّنًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}128 فالفساد لابدّ له من إصلاح فلا يحقّ له أن يستشري بين النّاس ويكون دينهم الذي يتوارثونه، فلابدّ أن يتدخل المقتدر جلّ جلاله ويكون التدخل عن طريق أنبيائه ورسله عليهم والصّلاة والسّلام، وهكذا جاءت الرسالات السماوية لتبشر بما يريده الباري عزّ وجلّ من أجل الإصلاح المنشود، ولهذا نجد نصوصا كثيرةً في القران الكريم ترد على لسان الأنبياء تتضمن محاور الإصلاح التي يريدها المقتدر تبارك وتعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شعيبا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ ربّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}129 يتسم كلام نبي الله شعيب عليه

[127] - البقرة، 30

[128] - المائدة، 27 – 20

[129] - الأعراف 85

والصّلاة والسّلام لقومه بالمراجعة أي أنه كان يكرر عليهم دائما ما يريده المقتدر عزّ وجلّ ممّا يدل على أن الإصلاح المنشود لا يتم من خلال تبليغ واحد، وإنما يحتاج إلى تكرار وعرض للحجج والبراهين التي تبطل الفساد وتدحضه وتبين مواطن الخطأ والزلل التي فيه، أما قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}130 بشارة من الله تبارك وتعالى أن هذه الأرض لا تبقى بيد الكفرة وأهل الفساد إنما مآلها إلى الصالحين من عباده الذين استخلفهم فيها وجعلهم الوارثين، فلهم الدور الكبير في عملية الإصلاح من خلال تبليغ ما أمر به الله عزّ وجلّ ويكون ذلك بالقول السديد، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}131 فالقول السديد هو مطلق كأن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو أذانا يسمعه النّاس، وهو قول الحقّ الذي لا يدخله الباطل، وهو في مجمله نداء إصلاح وتبشير بخير آتٍ، من الله تبارك وتعالى للمؤمنين بأن يتَّسِموا بالتقوى وسداد القول، ولابدّ لهم من النهي عن المنكر، لأن فائدة النهي عن المنكر التلبّسُ بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبعث الفضائل، ويتردد الإصلاح أيضا حتى مع حال المؤمنين أنفسهم، إذ يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى محمّد وَهُوَ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}132 فقوله {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح. فالله سبحانه وتعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر، وهذه المعادلة تتسم

130 - الأنبياء، 105

131 - الأحزاب 70 - 71

132 - محمّد 2

بما جاء به الخطاب القرآني الذي ركز على هذين الطرفين في معادلة الحقّ، يقول تعالى: {فَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}133 وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}134ويمكن أن نطلق على طبيعة هذا الخطاب بخطاب الرغبة، الذي يتحقّق من خلاله ما يريده الباري عزّ وجلّ، فضلا عن ذلك أن العمل الصالح الذي يقابله العمل الفاسد تتطابق عليهما ثنائية الثابت والمهتز، فالثابت (الحقّ) يبقى كما هو لا يتغير مهما تعرض لأي شيء، أما المهتز فهو في بعض الأحيان قد يضمحل وينتهي فلا يبقى منه شيء سوى الذكرى، فالثابت هو العمل الصالح والمهتز هو العمل الفاسد الذي في حاجة لأن يصلح.

وعليه: الثبات قوّة والاهتزاز ضعف:

الثبات قيمة تُقدّر بالفعل الذي هي عليه. أو بالفعل الذي به يتم الثبات.

والثبات لا يعني الجمود. والاهتزاز لا يعني الحركة.

ولهذا الثبات قاعدي. والاهتزاز استثنائي. ومع ذلك كل شيء نسبي.

ما تعتقد أنه على ثبات، قد يفاجئك بحركته وامتداده، وما تعتقد أنه في حالة سكون توقع أنه قد يتحرك في أي وقت من الأوقات بتمرد أو ثوران وامتداد. ومع ذلك أيضا، لا ثبات إلا بقوّة مقتدر، ولا اهتزاز إلا بقوّة مقتدر.

---

133 - الحج 50

134 - العنكبوت 7

ولهذا فالقدرة قيمة قاعدية للثبات والحركة. فمن يصمد (يثبت) بقوّة في مواجهة القوّة، ومن يضعف أمام قوّة تهزه من مستواه أو تحركه من مكانه لا يقارن بمن صمد وثبت.

ووفقا لدائرة المتوقّع وغير المتوقّع، الثابت والمهتز كلاهما في حالة حركة، سواء كانت الحركة سالبة أم موجبة.

وعليه، لا ثبات ولا اهتزاز، إلاَّ لوجود قابل للمشاهدة أو الملاحظة (الإدراك عن وعي).

فالثبات على المبادئ مسألة قيمية مفضلة عند بني الإنسان، ولكن أية مبادئ؟

تلك التي يرضونها النّاس ويختارونها بإرادة.

ولهذا فالقاعدة هي:

الثبات على المبادئ.

والاستثناء هو:

الاهتزاز عن المبادئ.

وقد يوصف المهتز عنها بالمنحرف السالب. ممّا يجعل للمصلحين المستخلفين أدورا متنوعة ومتعددة في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

ولذا قد استمدت المبادئ قوتها من الثبات، واستمدت ضعفها من الاهتزاز.

وعليه كل شيء في حالة حركة.

فعلى سبيل المثال: الأرض في حالة حركة. ولأن الأرض تتحرك، إذا كل ما عليها في حالة حركة، حتى وإن كان ساكنا في حياته أو في مماّته.

ولهذا، يتحرّك المحمول في حامله:

. الحافلة الناقلة للركاب على الأرض المتحركة تتحرك.

. الأم الحامل الراكبة في الحافلة المتحركة على الأرض المتحركة، جنينها يتحرك في بطنها، مثلما هي تتحرك مع الركاب في الحافلة.

وهكذا تتعدد المتحركات وتتنوع والحركة واحدة سواء كانت في المادة، أو كانت في الفكرة التي تمتد من عقل مفكر إلى عقل مفكر آخر. وإذا سكنت عند البعض فزمن سكونها لن يطول. ولهذا فهي في حالة حركة.

ولهذا، فالعلاقة بين الثابت والمهتز. علاقة بين سكون وحركة.

وبما أنّ في السكون ثبات نسبي.

وفي الحركة امتداد نسبي.

إذن القاعدة هي:

1 . الثبات النسبي.

2 . الحركة النسبية.

والاستثناء هو:

1 . الثبات غير النسبي.

2 . الحركة غير النسبية.

ولأنّه لا مطلق إلا من عند الله.

إذن كلّ شيء بالنسبة للبشر نسبي.

ولذا:

- فكر في الثابت.

- فكر في المهتز.

- شاهد الثابت.

- لاحظ المتحرك.

وهكذا تتعدد المتحركات وتتنوّع والحركة واحدة.

ولذا فإنّ المعلومة أو السلوك يقعان بين المهتز والثابت إلى أن يصنّفان بمصادق.

فكّر في الثابت كما تفكِّر في المهتز:

بما أنه لا مطلق إلا من عند الله.

إذن بطبيعة الأمر بالنسبة لبني الإنسان كل شيء نسبي، ولهذا حتى القيم هي ذات ثبات نسبي، ومع أنّها القابلة للتطوير والتغيير عبر الزمن، إلا أنّها الأكثر استقرار.

ولهذا، لا فرق بين الثبات والاهتزاز من حيث أن كل منهما نسبي.

والذي جعل كل منهما على حالة من النسبية، هو التداخل بين الحركة والسكون. ولهذا، الثبات على حالة من الاهتزاز. والاهتزاز على حالة من الثبوت، ولو لم يكن الثبات نسبيا ما تغيرنا وتغيرت أحوالنا

وأصبح أجدادنا مسلمين بعد أن كانوا من الجاهلين قبل الرّسالة المحمّدية الخاتمة.

ولأنَّ كل شيء نسبي، إذن كل شيء ممكن. فلا تستغربّ أن يحدث ما لم تتوقع أن يحدث.

وعليه: إذا وقع ما لم تتوقع فعليك بالتعامل معه وفقا للرسالة الخاتمة حتى لا تندم يوم لا ينفعك الندم وتأكد إن الحقّ ثابت ودائم فلا تستغربّ.

وعليك أن تعرف وفقا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) أن كل شيء قابل لأن يتغير كلما توفرت معطياته أو اشتراطاته.

وعليه فكّر في الثابت كما تفكر في المهتز، فكل شيء يتغير. واعرف أن الزمن كفيل بذلك إذا توفرت العزيمة ورسمت الخطط. ووضع المستقبل هدفا رئيسا لإحداث النقلة.

بطبيعة الأمر بما أن كل ثابت وكل مهتز هو نسبي.

إذن التفكير فيهما يعد ضرورة قبل اتخاذ القرار. ولذلك تتماثل دائرة الثابت والمهتز مع دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، من حيث: أن 50% من الدائرة هو ثابت أو متوقع، وأنّ 50% من الدائرة هو المهتز أو غير المتوقّع. وأيضا قد يكون الثابت سالبا، وقد يكون موجبا، وهكذا المهتز يمكن أن يكون سالبا ويمكن أن يكون موجبا.

ولذا فإن المتغير المتداخل يربّط الثابت والمهتز في علاقة دائرة واحدة مثلما يربّط المتوقّع وغير المتوقّع في علاقة دائرة واحدة وهي دائرة (الممكن). ولهذا تتداخل الحركة مع السكون، ويتداخل السكون مع الحركة.

وبما أن نسبة من السكون في حالة حركة. ونسبة من الحركة في حالة سكون.

إذن لا وجود للقوّة المطلقة بالنسبة للخلق. ولذا فكّر في الثابت حتى تتيقن، وفكر في المهتز مثلما أنت متيقن.

وبما أنّ هناك حركة.

إذن بالطبيعة لا وجود للثبات المطلق، ولا وجود للاهتزاز المطلق.

النسبية مرونة في الثبات والاهتزاز:

لو لم يكن كل شيء نسبي ما استطعنا أن نصحح المعلومات الخاطئة التي تشربّها المنحرف وأثرت في أقواله وأفعاله وسلوكه سلبا.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . مرونة النسبية في الثابت.

2 . مرونة النسبية في المهتز.

والاستثناء هو:

1 . انعدام مرونة النسبية في الثابت.

2 . انعدام مرونة النسبية في المهتز.

وبما أن النسبية مرونة في الثابت والمهتز.

إذن المرونة حركة استيعابية.

وعليه:

1- كن مرنا.

2- ناقش كل كبيرة وصغيرة ولا تتشبث وجادل النّاس بالتي هي أحسن ولا تظلم أحدا واتقي الله في نفسك وأهلك ودينك ووطنك وإلا ستندم يوم لا ينفعك الندم.

3- ثِق أنِّ المرونة تخلق النُقلة، والنقلة تصنع المستقبل الأفضل والجود.

4- ثِق أنَّ كلَ ممكن نسبي.

5- تأكّد أنَّه لا وجود للثبات المطلق.

6- تأكّد أنَّ الجمود يؤدّي إلى التخلف.

7- كُن مرناّ يتم استيعابك.

8- كن مرنا تُقدَّر.

9- لا تتشبّث حيث لا وجود بين أيدنا لمطلق.

10- ثِق أنَّ كلَ شيء يتغيّر إلى النهاية.

11- ثِق إن لم تتغيّر إلى ما يُفيد سيتم تجاوزك أو يستهدفك الآخرون بالتغيير.

12 ـ ثق من يتغير عن قيمة سيتجه إلى غيرها.

13 ـ ثق من يتطلّع إلى قيمة نافعة سيترك أو يتجاوز عن أخرى.

القيم ثوابت عنيدة: القيم ثوابت؛ لأنها تستمد من مصادر ثابتة (الدين والعرف)، ولهذا يحتكم النّاس بها. إنها مكمن القوّة في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع. فبدون القيم لا تجد المحبة بين النّاس تربّة صالحة

لنموها، وبدونها لا يجد من يحافظ عليها، ولا يجد من يكنُ له التقدير والاحترام.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . القيم ثوابت.

2 . القيم عنيدة.

3 . القيم مكمن المحبة.

والاستثناء هو:

1 . القيم ليست ثوابت.

2 . القيم ليست عنيدة.

3 . القيم مكمن الكريهة.

ولهذا الكره اهتزاز، والاهتزاز تبدل.

المحبة ثبات، والثبات استقرار.

وعليه: –

. استقر تبني حياتك.

. استقر تصنع لك عنوان.

. استقر تفكر في المستقبل.

. استقر تحقّق التغيّر وتصنع النقلة.

ولذا فإنّ التبدّل لا يُسهّم في بناء الحياة الأسرية والاجتماعية والإنسانية ولا يؤسس عنونا ولا يصنع تاريخا ويحقّق مستقبلا، ولا يسهم في تنظيم المجتمع وعلائق أفراده وجماعاته.

ومع ذلك ليس دائما التمسك بالقيم فضيلة، القيم البالية التي لا تُسهم في صناعة المستقبل وتحدث النقلة، التمسك بها يؤدّي إلى التخلف الثقافي والحضاري، ويطمس الشخصية المتطلّعة، ويظهر الشخصية الانسحابية الضعيفة التي لا تستطيع تحدى الواقع وأسبابه وعلله التي تشد إلى الخلف في زمن الاندفاع إلى الأمام.

القيم التي يشب النّاس عليها عبر الزمن قد يعتقد البعض أنها مسلمات لا يُقبل المساس بها حتى وإن لم تواكب حركة التغير الاجتماعي والإنساني. ولهذا القيم ثوابت عنيدة، فالمتمسكون بها لا يطيقون فراقها أو الحياد عنها. فأمرها ليس هينا، وعلى المستخلفين فيها مراعاة ذلك والعمل على تجاوزه بالمنطق والحجّة والجدل بالتي هي أحسن، وليس بالإكراه، مع مراعاة البدء مع النّاس من حيث هم ثم العمل معهم في اتجاه ما يجب، لأجل إحداث النقلة بإرادة.

وعلى الخليفة أن يضع في حساباته أهمية القيم بأهمية ما تحقّقه من منافع ومكاسب للأفراد والجماعات والمجتمعات، وبمدى أهميتها في تقوية الوحدة الاجتماعية وفي استيعاب الآخرين الذين لا يكون استيعابهم على حساب ما تحقّقه القيم السائدة من منافع للمجتمع الذي كان سببا في إنتاجها، ولا تكون على حساب الاستخلاف في الأرض والورثة في الجنّة.

ولهذا الثوابت العنيدة قواعد. الحياد عنها ليس بالأمر الهين، مع أنّه ممكن. وذلك لأن الزمان كفيل بمتغيراته أن يغير أو يؤثر في الثوابت.

الإنسان مواقف والاهتزاز لا يخلقها:

وبما أن الإنسان مواقف. والاهتزاز لا يخلق المواقف.

إذن القاعدة هي:

. ثبات المواقف.

والاستثناء هو:

. اهتزاز المواقف.

ولهذا فالإنسان مواقف مع ما يُحب أو يُفضِّل، ومواقف ممّا لا يُحب وممّا لا يُفضّل. وذلك من أجل الآتي:

1 . إثبات الأنا المقدّرة قيميا (التي تمارس حقّوقها وتؤدّي واجباتها وتحمْل مسؤولياتها).

2 . إثبات الذات الاجتماعية المقدّرة (اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ونفسيا وذوقيا وثقافيا).

3 . إثبات الضمير الإنساني المقدّر (اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ونفسيا وذوقيا وثقافيا).

ولذا فإن، تقدير المواقف قاعدة. وعدم تقديرها استثناء.

ولهذا عليك أن:

. تسعى لنيل التقدير.

. تسعى لنيل الاحترام.

. تسعى لنيل الأعراف.

. تسعى لنيل الاعتبار.

. تطلّع إلى ما يجب.

. تفهّم ظروف النّاس ولا تغتر.

. تمسّك بدين الكافة ولا تغفل عن ممّارسة أقواله وأفعاله الحسان.

وعليه:

1 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في الخيانة والضلال.

2 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في السرقة.

3 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في الكذب.

4 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في تعاطي المخدرات.

5 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في تضييع الوقت.

6 . أفِق من غفلتك تجد الحقّيقة بين يديك.

الثابت يُعبّر عن الجوهر والمهتز يعبّر عن الصورة:

بما أن الثابت يُعبّر عن الجوهر والمهتز يعبّر عن الصورة.

إذن القاعدة هي:

1 . الثبات جوهري.

2 . الاهتزاز يعبر عن الصورة.

والاستثناء هو:

1 . الثبات ليس جوهري.

2 ـ الاهتزاز لا يعبر عن الصورة.

ولذا عندما يُعبّر الثابت عن الجوهر يُعبّر المهتز عن الصورة.

ولهذا يُزاح الشك عن الثابت ويَعلُقْ بالمهتز.

وتظهر الحقّائق في الجوهر وتختفي في كثير من الأحيان عن الصورة.

ولذا فإنّ الظاهر غير الكامن، فلا تغرَّنّك الأقوال والأفعال التي بها يتقربّ البعض للبعض زلفى. ولذلك على الخليفة معرفة الآتي:

ـ أنّ الحقّيقة تكمن في الجوهر.

ـ أنّ الصورة قد لا تعكس الحقّيقة.

ـ أنّ القيم ثوابت وفقا لقاعدة الممكن.

ـ أنّ للثوابت معايير تقاس بها وتُقوّم.

ـ أنّه لا معايير لمهتز.

ـ أنّ الشك يُمكّن من التعرّف والتبيّن.

ـ أنّ التفكير ضرورة قبل اتخاذ القرار.

ـ من لا يخطط لمستقبله يفاجأ.

ـ من لا يقارن لا يتمكّن من التمييز والتعرف على المفارقات.

ـ أنّ المعلومة تُحلل وفقا لمتغيراتها.

ـ لا تشخّص الحالة إلا في الوقع التي هي عليه.

ـ أنّ كل شيء ممكن فلا استغراب.

لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن:

بما أنّه لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن.

إذن الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والزمان.

ولأنّه ممكن فهو متوقع الحدوث، وبعد حدوثه قد يكون مساويا لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل.

ولذا فالممكن ضروري الحدوث إلا أن نسبة حدوثه احتمالية ممّا جعلنا نفترض الآتي:

. الاحتمال الأوّل: يكون الممكن مساويا للمتوقع السالب أو الموجب.

. الاحتمال الثاني: يكون الممكن أقل من المتوقّع السالب أو الموجب.

. الاحتمال الثالث: يكون الممكن أكثر من المتوقّع السالب أو الموجب.

بناء على هذه الافتراضات الثلاثة لا يُمكن أن يكون الامتداد إلا في مجال الممكن، ولا ممكن إلا في دائرة الزمان.

ولذا فإنّ ما نشاهده أو نلاحظه أو نحس به أو نتذوّقه أو نشمه أو نسمعه هو الواقع في حدود الممكن.

ولأنّه في حدود الممكن النسبي، يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجاله بالنسبة إلى مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا فمنَّا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا. وهذا يدل أن بعضنا قدراته التمييزية أقل والبعض الآخر يساوينا أو يتفوق علينا.

وعلى الخليفة أن يعرف:

كل شيء نسبي.

أنّ الثبات لا يعني الجمود.

أنّ المهتز يُمكن أن يثبت.

أنّ الإصلاح ممكن.

أنّ العلاج ممكن.

أنّ الممكن لم ولن يكون مستحيلا.

وعليه:

. لا تكن أسيرا للصغائر.

. تطلّع لتُحوِّل خسائرك إلى مكاسب.

. ثق أنّ السباحة لا تُعلَّم على الفراش.

. ثق أنّك قادر فكل شيء ممكن.

. ثق أنك قوّة فلا تركن إلى الضعف.

. لا تعطل طاقاتك نتيجة عثرة واحدة في الطريق.

. ثق أنّ الأفعال أكثر حجّة من الأقوال التي لم تكن حجّة.

. تطلّع إلى المستقبل.

. غيّر وتغير لتحدث النقلة.

. اعمل على صناعة مستقبلك، وشارك الآخرين من أجله.

الثبات والاهتزاز في حالة تداخل:

لا غرابة أن نلاحظ الثبات والاهتزاز في الشيء الواحد نتيجة إدخال متغيرات عليه، فالرياح على سبيل المثال: كمتغير على ثبات شجرة النخيل يجعلها في حالة اهتزاز، وإذا اشتدت الرياح حتى تصبح عاصفة قد تؤدّي إلى إسقاط النخلة أرضا. ومع ذلك وإن سقطت على الأرض فلن تسقطها الرياح من أذهاننا فهي الثابتة فيها. وهكذا شخصية الإنسان المحترم الذي نال التقدير من الكثيرين فقد تهتز شخصيته في وقت من الأوقات وتحت ظروف معينة، وقد يحاول أمام البعض أن يُظهر تمسكه وثباته على بعض القيم إلا أنه سيكون مهتزا أمام الكثيرين. وهكذا يثبت المهتز ويهتز الثابت بإدخال المتغيرات عليه أو بتعرضه لمواقف تجعله في حالة اهتزاز بين التقدير والتقليل والتحقّير.

ولهذا الإنسان ثابت ومهتز:

ثابت من حيث أنه إنسان (كجوهر).

ومهتز في سلوكه (كظاهر)، ومهتز من حيث لونه، ونوعه، ومراحل نموه، وقدراته واستعداداته.

ولذلك يثبت الجوهر وتهتز الأقوال، والأشكال، والأفعال، والسلوكيات.

وعليه:

. فكّر في الثابت.

. فكّر في المهتز.

. شاهد بتركيز.

. لاحظ بوعي.

. انتبه بإدراك.

. افطن بعقل.

. تدبر بحكمة.

والخليفة له دور كبير في عملية الإصلاح، فهو المحور الأساس لهذه العملية إذ يتطلب منه أن يكون واعيا في عملية الإصلاح، لأن المستخلفين يختلفون كل واحد عن الآخر في كل شيء، في التصرف والتفكير والحاجات، وعملية الإصلاح تتطلب ثنائية الرغبة والرهبة التي تعد القاعدة في التعامل، فقد أكد عليها القرآن الكريم في كثير من الآيات، إذ يقول تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النّار كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النّار الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}[135].

سادسا: المقتدر لا يحتاج إلى أحد:

الحاجة هي طبيعة بشرية يتسم بها النّاس، فمن غير الممكن أن يستغني النّاس عن بعضهم البعض وخاصة في أمور الحياة ومتطلباتها، فهذا الطبيب وهذا المهندس وهذا المعلم كلا حسب عمله يحتاجه النّاس، وهذه الصورة التي عليها النّاس جميعا تتغاير عندما تتجه الوجوه

---

[135] - السجدة 16 - 20

إلى السماء بقصد الدعاء، هنا تتبلور ملامح الحاجة لكل من خلال استعمال مفردة (ربّنا) التي وردت في سياق كثير من الآيات القرآنية، فهي تدل على اللجوء الكامل إلى الله تبارك وتعالى وبيان شدة الحاجة إليه، إذ يقول تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ ربّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ربّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّار أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ممّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[136] هنا يعلّم الله تبارك وتعالى الدعاء فيستعرض صنفين، الصنف الأول يدعو الله جلّ وعلا فيطلب حظ الدنيا، ولا يلتفت إلى حظ الآخرة، وهذا يترتب عليه أمر أخر وهو فقدان النصيب في الآخرة وذلك بقصوره الطلب من الدنيا، أما الصنف الأخر يطلب الأمرين جميعا، أما بالنسبة إلى الصنف الأول يرتسم فيه النهي عن الاقتصار على طلب الدنيا، والذمّ لمن جعلها غاية رغبته، ومعظم مقصوده، أما الصنف الثاني ففيه طلب الأمرين الدنيا والآخرة والحسنة فيهما كل ما يريده الخليفة ويتمناه فهي مطلقه غير مقيدة بشيء، قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ربّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ربّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ربّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[137] دعاء تكرر فيه لفظة ربّنا، ممّا يدل على أن الخليفة يلح في الدعاء، فضلا عن ذلك كثرة ما يريده الخليفة من طلبات إلا أن بداية الآية تفتح لنا منفذا في الولوج بقضية طلب الحاجات وهي قضية نستعرضها من خلال قوله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) فتكليف النفس إلا ما تسعه

[136] - البقرة، 200 - 202

[137] - البقرة، 286

قدرتها فضلا ورحمةً، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها، فهل هذا الكلام ينطبق على المقتدر؟ بطبيعة الحال يكون الجواب لا. إذن فطلب الحاجات مقتصر على البشر فهم الذين يحتاجون الله تبارك وتعالى في كل شيء، أما هو جل في علاه فلا يحتاج إلى أحد فهو الغني الكريم، وهو مالك الملك بالمطلق وهو على كل شيء قدير، نعود إلى لفظة (ربّنا) والتي تقابلها إن جاز القول لفظة (عبادي) إذ يقول تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}138 وقوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم}139 فقوله يا عبادي مؤذن بأن بعده إعداد للقبول واطمعا في النجاة، وهذا لا يليق إلا بالمقتدر جلّ جلاله الذي يريد الخلاص لعباده والفوز بالجنّة والابتعاد عن النّار.

سابعا: المقتدر إن شاء فعل:

تبرز مقدرة الباري عزّ وجلّ في تصرفه في كثير من الأمور من خلال مشيئته العظيمة التي يحدد من خلالها ما يحصل وما سوف يحصل، وقد وردت المادة اللغوية (شاء) وتفرعاتها في القرآن الكريم مائتين وست وثلاثين مرة، فهي ذات كثافة ترددية عالية وهذا يدل على أهمية المادة اللغوية وحملها لكثير من الدلالات القرآنية التي تكاد تستوعب معظم موضوعات القرآن المتعلقة بالمشيئة، فهذه الكثافة العالية توحي لنا بالمقتدر جلّ جلاله في الاختيار، ونقصد بذلك مشيئته، يقول تعالى: {وَربّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ

---

[138] - العنكبوت 56

[139] - الزمر 53

آخَرِينَ}140 وقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}141 وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}142 هذه الآيات الكريمة بمجملها يدق فيها المقتدر ناقوس الخطر للمستخلفين في الأرض، فذهابهم قائم وبقائهم قائم. فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع قادر أن يبدلهم بخلق آخر، ولم يمتنع عليه ذلك كما قال تعالى: {وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ} بمتعذر أو متعسر، فإنه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن كان هذا شأنه كان حقّيقا بأن يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء.

وقادر إن شاء فعل مرتبطة ارتباطا كليا بالتهديد والوعيد الذي تشكل منه الخطاب القرآني وهذا ما رأيناه في سياق الآيات المتقدم

ثامنا: مرتب الأقدار بحكمته:

وتعالى ورحمته، من ذلك قصة يوسف عليه والصّلاة والسّلام، فقصة يوسف لها خصوصية لم تجتمع لقصة غيرها في القرآن الكريم، فهي قصة دائرية، إذ نرى من القراءة الأولى أن بدايتها رؤيا، يقول تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ}143 ونهايتها تحقّيق لهذه الرؤيا بقوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ

[140] – الأنعام، 133

[141] – فاطر 16

[142] – إبراهيم، 19

[143] – يوسف 4 – 5

أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}144، وهذا يفضي بنا إلى القول أنها قصة رؤيا، إذ أن للرؤى في تحريك أحداثها دورا كبيرا، فضلا عن ذلك أن هذه القصة اشتملت على مواقف كثيرة تبلورت حولها قدرة الله سبحانه وتعالى، فمنذ البداية أي من الرؤيا مرورا بالبئر، قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}145 ووجوده في بيت عزيز مصر: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}146 والمراودة، {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}147 وسجنه}ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ}148، وتفسيره للرؤيا، {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}149 ومن ثم يكون على خزائن مصر}قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

---

[144] - يوسف 100

[145] - يوسف 15

[146] - يوسف 21

[147] - يوسف 23 – 24

[148] - يوسف 35

[149] - يوسف 47 - 49

الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين}150 وبعد ذلك يقود قبيلته إلى الخصب والنماء {ربّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ}151 ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربّه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، والثالثة : أخروية وهي نعمة الدين الحقّ المعبر عنه بالإسلام وجعل الذي أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل لأنّ ما أوتيه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل إشعار بأن ذلك في جانب مُلك الله وفي جانب علمه شيء قليل.

هذه الأحداث المتتابعة تبين قدرة المقتدر عزّ وجلّ في عرض قدرته العظيمة، فضلا عن ذلك عرض خصائص كثيرة تتعلق بالأعمال الصالحة التي يجب أن يكون عليها الخليفة من بر الوالدين والصبر والعفاف والتقوى وغيرها. والمهم في ذلك أن الباري عزّ وجلّ شاء أن تكون حياة النّبي يوسف عليه والصّلاة والسّلام بهذا التتابع، فيكون قدره عليه والصّلاة والسّلام بهذه الطريقة المرتبة من صغره إلى أن أصبح عزيزا لمصر وهي من حكمة المقتدر عزّ وجلّ المقترنة بمقدرته.

تاسعا: مقتدر على المغالبة:

الكائنات كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول

---

[150] - يوسف 55 - 56

[151] - يوسف 101

ولا قوّة إلا به. فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، إذ يقول تعالى: {إِنَّ ربّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ}152 وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون: {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}153، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}154، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصوٰنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربّك، وخصوصا في هذه الأوقات، فإنّ هذه القوّة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من اقتدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أنّ قواهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكنّ أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي. ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما: أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقا وتقديرا وتضاف إليهم فعلا ومباشرة على الحقّيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإنّ الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى:

---

[152] - الأعراف 54

[153] - لقمان 28

[154] - الروم، 27

{والله خلقكم وما تعملون}155، ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءه، على قلة عددهم وعدَدِهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}156. وفي معركة بدر تلك المعركة العظيمة التي غيرت مسار الدعوة الإسلامية، وزرعت الثقة في نفوس المسلمين وألهبت روح التضحية والفداء، وعززت مجدهم وفتحت لهم أبوابا كثيرة لنشر الدين الإسلامي، وكل ذلك كان رغم العدد القليل للمسلمين وضعف إمكانياتهم القتالية، إلا أن نصر الله كان هو الأعلى ومقدرته العظيمة فوق كل شيء، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}157 فان أمر الله تبارك وتعالى نافذ لا محالة، يقول تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}158.

عاشرا: الجنّة والنّار بيده:

---

155 - الصافات 96

156 - البقرة، 249

157 - آل عمران، 123 - 126

158 - يس 82 - 83

فمن آثار مقدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النّار ولأهل الجنّة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى. ويمكن القول إنّ لفظة النّار ولفظة الجنّة ترتبط بأسلوب التبشير والإنذار القرآني، فالخطاب القرآني بشير ونذير، ولهذا وصف الله رسوله بأنّه كذلك فقال: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}159، إلا أن الخطاب القرآني حدد بالضبط مناط تبشيره ومناط إنذاره، فقال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}160.

فما يحدث لأهل النّار هو من آثار قدرته التي لا تدانيها قوّة، والتي كانت دائما محور الخطاب عندما يخاطب الباري جلّ جلاله الكفار وغيرهم من العصاة، إذ يقول تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}161 ففي القرآن الكريم نجد كثيرا من النصوص التي تتحدث عن النّار وأهوالها، فضلا عن ذلك وصف النّار فمن ذلك قوله تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ}162، وصف تتزلزل له الأقدام وتخفق له القلوب وترتجف له الشفاه وتعلو الأنفاس، أي جحيم هذه التي ينتظرها المجرمون؟ ومن قدّرها بهذه القدرة المخيفة ورسمها بهذه الصورة المرعبة؟ فلا يمكن أن يكون الجواب إلا المقتدر تبارك وتعالى، فقد وردت على لسان

[159] - سبا 28

[160] - مريم 97

[161] - البقرة، 39

[162] - الصافات 62 - 68

المشركين، في قوله تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ القوّة لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ163}.

وممّا يرد من أوصاف النّار وأهلها يبين عظمة المقتدر جلّ جلاله ومنه:

- تعرض جهنم على الكافرين يوم القيامة فتظهر بارزة لهم: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا}164.

- تسع جهنم مستحقّيها من الجن والإنس: {وَلَوْ شَاءَ ربّكَ لَجَعَلَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ربّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنّة وَالنّاس أَجْمَعِينَ}165.

- لها أبواب: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}166.

- لها خزنة لإحقّاق كلمة العذاب على الكافرين: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ ربّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حقّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}167.

---

[163] - البقرة، 165

[164] - الكهف 100

[165] - هود 118 - 119

[166] - الحجر 43 - 44

[167] - الزمر 71

- عليها ملائكة فيهم الغلظة والشدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}168.

- مبنية على أعمدة وموصدة الأبواب: {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَة}169.

- لها سرادق: {وَقُلِ الحقّ مِنْ ربّكُم فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}170.

- لها طبقات طبقة فوق طبقة: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}171.

- جوها لا يطاق: فحر نارها ينفذ إلى المسام ودخانها أسود، لا يخفف حرها بل يزيد فيه: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ}172.

- تزداد سعيرا كلما خبت: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا}173.

---

168 - التحريم 6

169 - الهمزة 8 - 9

170 - الكهف 29

171 - النساء، 145

172 - الواقعة 41 - 44

173 - الإسراء، 97

- لها أصوات منكرة مرعبة: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}174 وقوله تعالى: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}175.

- يلقون فيها من مكان ضيق مقرنين: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} 176.

- عذابهم فيها متواصل: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}177.

- لها خزنة تعنفهم وتذيقهم أصناف العذاب: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}178.

- لهم فيها ألوان العذاب الأليم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا}179.

- لا صبر ولا طاقة لهم بالعذاب: {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}180.

---

174 -1 الفرقان، 11، 12

175 - الملك 7 - 8

176 - الفرقان، 13

177 - الزخرف 74- 75

178 - الزمر 71

179 - النساء، 56

- الزبانية يسحبونهم في الحميم والنّار والأغلال في أعناقهم ويضربّون بمقامع من حديد: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النّار يُسْجَرُونَ}181.

- لهم فيها زفير وشهيق: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ ربّكَ إِنَّ ربّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}182.

- تلفح النّار وجوههم وتقلب فيها: {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}183.

- فراشهم وغطاؤهم من النّار: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}184، وقوله تعالى: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّار وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}185.

- طعامهم من شجر الزقوم، يخرج من أصل الجحيم، وهو شجر صغير الورق، مرّ الطعم، وثمره نار، يضطرهم الجوع إلى أكله، لعدم وجود غيره، فيحرق معدهم، وشرابهم من المهل، ما يمهل في النّار حتى يذوب: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}186.

---

[180] - الطور 16

[181] - غافر 71

[182] - هود 106 - 107

[183] - المؤمنون، 104

[184] - الأعراف 41

[185] - الزمر 16

[186] - الدخان 43 – 44

– شرابهم الحميم (الماء المغلي) والغساق (صديد أهل النّار) فيقطع الأمعاء من شدة حرارته: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ}187.

– حرم عليهم طعام وشراب أهل الجنّة: {وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}188.

– يتمنون الرجوع إلى الدنيا، حين يقفون على العذاب: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النّار فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ ربّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}189.

– يتمنون الموت، ليتخلصوا من العذاب، وأنّى لهم ذلك: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا ربّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}190

– يدعون الله ليصرف عنهم العذاب أو يخففه: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النّار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا ربّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}191.

– هم فيها خالدون: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}192.

---

187 – إبراهيم، 15 – 17

188 – الأعراف 50

189 – الأنعام، 27

190 – الزخرف 77

191 – غافر 49

192 – البقرة، 161 – 162

أما الجنّة فقد أعدها الله تبارك وتعالى للذين استخلفوا في الأرض والوارثين الذين آمنوا بالله وبرسوله وبرسالته الإسلام وقد وصفهم القرآن الكريم بأوصاف منها:

-المتقون: قال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بالعباد}193، وقال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجنّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}194. والجنّة عرضها عرض السماوات والأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}195.

وقال تعالى: {مَثَلُ الجنّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِّينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفي وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النّار وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}196. وقال تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ}197.

- الأبرار: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}198.

---

[193] آل عمران، 15.

[194] - الزمر 73

[195] - آل عمران، 133

[196] - محمّد 15

[197] - الرّحمن، 62-64

[198] - آل عمران، 198

- المقرّبون: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}199.

- عطاؤهم غير مقطوع: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}200.

- ممتعون: {وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}201، وقال تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}202 .

- مرزقون: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}203.

- مدللون: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا}204.

- لهم أزواج مطهرة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}205، وقال تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ206.

---

199 - الواقعة 88- 89

200 - مريم 62

201 - الطور 22

202 - الصافات 45 - 74

203 - البقرة، 25

204 - الإنسان 14

205 - النساء، 57

206 - الصافات 48 - 49

- مخدومون ومخيرون: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا}207، وقال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}208. قال تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا}209، وقال تعالى: {مَثَلُ الجنّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِّينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفي وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النّار وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}210. وقال تعالى: {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}211.

- حامدون: يحمدون الله على ما آتاهم من النعم، التي وعدوا بها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}212

- عاملون الصالحات: لما فيها من نعيم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}213.

---

[207] - الإنسان 13

[208] - الطور 24

[209] - الكهف 31

[210] - محمّد 15

[211] - الغاشية 13 - 16

[212] - الزمر 74

[213] - الكهف 107 108

- خالدون: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}214.

وعليه فمن صفات المقتدر يستمد الخليفة صفات مقدرته في دائرة النسبية، فهو المقتدر على التسامح، والمقتدر على القول الحقّ، والمقتدر على الفعل الحقّ، وهو المقتدر على إزهاق الباطل ودمغه بالحجّة الحقّ، وهو المقتدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو المقتدر على أن يفعل ما يريد تحت إرادة المقتدر الأعظم جلّ جلاله، وهو الذي يتذكر مقدرة الله عليه كلما أحس بأن له مقدرة.

214 - البقرة، 25

من

صفات النبي عيسى

1 . مؤيّد:

التأييد في دائرة الممكن بين المؤمنين لا يكون إلا بالحقّ على إحقّاقه ولا يكون إلا من قوي وقادر، والتأييد بالمطلق لا يكون إلا من عند الله تعالى، وهذا التأييد كان صفة من صفات عيسى صلّى الله عليه وسلّم في كثير من المعجزات التي وهبها الله عزّ وجلّ إليه. قال تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}[215]، التأييد بالروح المقدسة من عند الله جلّ جلاله تعظيم لعيسى وللمعجزات التي أتيت له صلّى الله عليه وسلّم، وروح القدس هو الملك المطهّر المنزه وهو جبريل عليه السّلام، الذي آزر عيسى وناصره وأعانه بالقوّة على إحقّاق الحقّ.

ولا ننسى تأييد الله عزّ وجلّ لعيسى صلّى الله عليه وسلّم بإنزاله مائدة عليه لم تكن في الأولين ولا في الآخرين، {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}[216].

---

[215] البقرة 87.

[216] المائدة 114، 115.

2 . وجيه:

الوجيه هو من يؤخذ برأيه ويُتبع في قيادته دون إكراه، والوجاهة منزلة بعد أن ينال صاحبها الاعتراف والتقدير من الآخرين أقاربٌ كانوا أو أباعد، وهي رفعة ومكانة بين النّاس تستوجب الاحترام والتقدير وتفوز بالاعتبار، ولذلك فالوجيه كلّما تكلّم في أوساط النّاس أُستُمع إلى حديثه، وعندما يعمل يتم الاقتداء بأعماله وهو من يؤخذ أسوة حسنة في كل ما يقال أو يُفعل، ووفقا لهذه المعطيات كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم وجيها في الدارين، وكان من المقربّين مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}217.

3 . صالح:

الصلاح صفة حميدة بين العباد، والصالحون منهم هم الذين يفوزون بالدار الآخرة كما هم في الدار الدنيا من الفائزين، والصالح منهم في الحياة الدنيا هو من عمل وفقا لما تستوجبه الفضائل التي أمر الله تعالى العباد بها، ولذلك فالنّاس ليسوا سواء، مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}218.

---

217 آل عمران 45.

218 آل عمران 113 . 115.

إذا الصالحون هم الذين يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون، وهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، فسلام عليهم يوم يولدون ويوم يموتون ويوم يبعثون.

الصالح هو الذي لا خوف عليه ولا هو يحزن، وهو الفائز بأعلى المراتب الشرفية في الدارين كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ}219.

4. حكيم:

الذي يَلُمَّ بالعلم وقضاياه الجامعة ويعرف كيفية استخدامه والاستفادة منه ويتصرف وفقا لمنافعه فيما يُفيد يُعد حكيما، ومن يحتاط من ارتكاب الزلات أو الوقوع فيها بحكمته يعد حكيما، ومن يحكم بين النّاس بالعدل يُعدُّ حكيما، ومن يّقدِم على ما يجب ويمتنع عما لا يجب يعد حكيما، ولذا فالحكيم تعالى هو من تستمد الحكمة منه ولا يُستمد منها.

الحكيم إذا تكلّم أنصت إليه، وإذا عمل يتم الاقتداء به فيما يُعمل، وهو الذي يتقي الشر ولا يتقي الحقّ، ولذا فالحكمة تُعلَّم من الله تعالى كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم وهي كذلك تُكتسب من البشر، قال تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ

---

[219] آل عمران 45، 46.

وَالْإِنْجِيلَ}220، إذا الحكماء متعظون ومعتبرون ولذا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

حكيم: أي أنّه مدرك بالتمام لأمره وللأمر الذي كلِّف به من رسالة ونبأ عظيم، ومدرك لِما يجب ولما لا يجب تجاه كل أمر، ولأنّه كذلك لا يمكن له أن يتخذ مواقف أو يتصرف اعتباطا؛ ولذا فهو المتدبر لأمره والمتدبر مع أمور الآخرين، وبهذه المعطيات كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم متصفا بالحكمة. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}221.

5. عليم:

عيسى صلّى الله عليه وسلّم يوصف بالعليم لأنه استمد علمه من العليم المطلق جلّ جلاله، الذي علَّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وهو علم الفضائل والمعجزات، مصداقا لقوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}222.

علم عيسى صلّى الله عليه وسلّم علم تكليف وهو المكلَّف به من عند الله ليبشِّر به العباد من بني قومه وليعلمهم علم الكتاب وعلم الحكمة وعلم التوراة وعلم الإنجيل لأجل أن يتقوا الله ويهتدوا إلى الحقّ ويتبعوه.

بيَّن الله عزّ وجلّ للخلق وجوه استحقّاق عيسى للوصف عليم ومنها:

[220] آل عمران 48.

[221] الزخرف 63.

[222] آل عمران 48.

أ . لأنّه ألمّ بأكثر من علم (الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل).

ب . لأنّه تعمَّق في كل علم من العلوم المتعددة.

ج . لأنّه المَّ بالعلم السابق على رسالته وهو علم الكتاب والحكمة والتوراة.

د . لأنّه ألم بعلم الإنجيل.

هـ . لأنّه يعلم بالعلم وبالرّسول الذي سيأتي من بعده.

و . لأنّه يعلم بما لا يعلمه غيره.

6 . رسول:

لا رسول من عند الله إلا وله رسالة تهدي للتي هي أحسن وأقوم، رسالة تُحِثُّ وتُحفِّز على الإصلاح في الأرض وتنهى عن الإفساد فيها وسفك الدماء بغير حقّ.

رسالة عيسى جاءت لبني إسرائيل لتصلح أحوالهم وتخرجهم من الظلمات إلى النور، (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)، أي إنَّه رسولٌ للخاصة وليس رسولا للعامة كما هو حال محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وكونه للخاصة فهذا لا يعني بحال من الأحوال أن ما يبشِّر به عيسى لا يصلح لإصلاح أحوال العباد من غير بني إسرائيل، ولكن لانتشار ظواهر ومفاسد خاصة ببني إسرائيل بعث الله تعالى لهم رسولا منهم لأجل أن يتقوا ويهتدوا ويؤمنوا ويسلموا وجوههم لله ربّ العالمين ولا يشركوا به شيئا، ومع ذلك كان أكثرهم لا يفقهون، وأكثرهم لا يتقون، وأكثرهم ضالون، وأكثرهم فاسقون، وأكثرهم مجرمون.

7. خلاَّق:

الخلاَّق هو المبدع الذي يمكن له أن يخلق شيئا إذا أوتي أمر خلقه، وإن لم يؤت أمر خلقه فلن يخلق شيء، ولأن الله أذن لعيسى صلّى الله عليه وسلّم بأن يخلق من الطين كهيئة الطير فخلقه طيرا بأذنه عزّ وجلّ، قال تعالى: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}[223].

من الآية الكريمة السابقة يُفهم أن عيسى صلّى الله عليه وسلّم لم يخلق طيرا، ولكنّه خلق من الطين كهيئة الطير، ولذا فالذي على هيئة الطير لا يعد طيرا بل يعد الشبيه المقاربّ له في الصورة والشكل، وأي عمل من الطين أو من غيره لو قام به أي أحد لا يعد معجزة، هكذا ما قام به عيسى لو اقتصر على الهيئة الطينية للطير ما كان خالقا لمعجزة، بل معجزة عيسى كانت بالنفخة التي بُثت بها الحياة في الهيئة الطينية حتى أصبحت طيرا بإذن الله تعالى.

8. مُصدِّق:

التصديق اعتراف يعقبه تسليم بالأمر بعد إزالة اللبس والغموض والظنون عنه، والتعرف عليه هو كما هو، ولذا فالمصدق بالحقّ يوصف بأنه صدِّيق، ولهذا التصديق اعتماد للمصدق به، ممّا يجعل المصدق متهيئ للأخذ به والدفاع عنه والدعوة له.

الذي يتصف بالتصديق هو الذي لا يخالجه شك فيما يدرك ويرى مشاهدة أو ملاحظة سواء:

---

[223] آل عمران 49.

أ ـ بحقّ اليقين.

ب ـ بعلم القين.

ج ـ بعين اليقين.

التصديق لا يكون إلا بعد الإظهار على المصدق به، ليكون المصدق مستأنسا بعين القين التي تقطع الشك وتبطل الظنون، ولذلك كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم مصدقا لما بين يديه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ}224.

9 ـ مُحِلُّ:

الحلُّ لا يكون إلا بعد تثبت ويقين بالحجّة القاطعة، ولذا فالتحليل إباحة بعد تحريم، وهو إذن للأخذ بالشيء بعد تحريمه والنهي عنه، والمحَلل يُؤخذ ولا يترتب عليه عقاب من محلله، ولذلك كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم محلا لبني إسرائيل بعض ما حُرِّمَ عليهم، قال تعالى: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}225. إذا المحَلَل لا تترتب على ارتكابه التبعات، ممّا يجعل تناوله أو الأخذ به مرضيا بين العباد دون حرمان من منافعه وفوائده.

الحلال هو ما يباح بين النّاس فيصبح شائعا ميسرا لا معسرا بينهم، محببا ومفضلا لا محرما ولا منهيا عنه، ولا يُطلب من العباد تجنبه. وعليه فالمحللات هي الطيبات مصداقا لقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ

---

224 الصف 6.

225 آل عمران 50.

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}226. وعليه، لا يُحَرَّم على العباد ما أحله الله لهم ومن يحرِّمه فهو في الآخرة من الخاسرين.

10. داعٍ:

الدعوة في الإسلام لا تكون إلا من خيِّر وإلى خير، ولذلك كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم داعٍ للحقّ بالحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}227.

الداعي على صفتين:

أ. الذي يرفع صوت الحقّ من أجل قضية أو دين أو فضيلة من الفضائل الحميدة لإظهار المدعوين إليها بيّنة ليأخذوا بها أو ليأخذوا بأحسنها، وبعد ما تتم الاستجابة إليها توصف بأنها بيعة هدى، ولذلك المؤمنون يدعون النّاس إلى الإحسان والتعاون والمودة والوحدة وتقوى الله كما جاء في الآية الكريمة السابقة.

ب. الذي يرفع صوته من أجل بدعة أو إيقاد نار فتنة وتفرقة بين العباد هذه توصف مبايعته بأنها بيعة ضلال، لذلك الكفرة الفجرة هم الذين يدعون إلى الشرك واقتراف المحرمات فيضلون العباد عن الحقّ.

---

226 المائدة 4، 5.

227 آل عمران 50.

11 . مُنَاصَر:

المناصرة لُحمة تؤازر أصحاب الحقّ على إحقّاقه، وتأييد دون تردد مع تحمَّل ما يترتب على كل قول أو فعل أو عمل من مسؤوليات جسام، ولذا فللمناصرة ثمن من يستطيع دفعه يوصف بأنه نصير ومن لم يستطع فلا يوصف بذلك.

والمناصرة لا تكون إلا بالآتي:

أ . مناصرة المطلق الذي بيده الأمر (كن) متى ما أراده أن يكون كان وفقا لما تستدعيه الضرورة للمُنَاصَر الذي غايته مناصرة الله عزّ وجلّ، {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}228، وقال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}229.

ب . مناصرة النسبي في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع تتنوع وتتعدد وفقا للآتي:

* مناصرة بالكلمة.

---

[228] الحج 40.

[229] المائدة 110.

* مناصرة بالوسيلة.

* مناصرة بالعمل والفعل.

ج . مناصرة تضرع ودعاء لله ربّ العالمين كما جاء في دعاء نوح صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ ربّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ربّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}[230].

ومع ذلك؛ فالمناصرة يمكن أن تكون على حقّ ويمكن أن تكون على باطل، فمن ناصر الأنبياء والرّسُل ناصر الحقّ، ومن ناصر أعدائهم ناصر الباطل.

وعليه: المنَاصَر هو المعان من قبل الآخرين على ما يقول ويعمل، فمن ناصره على الحقّ أسهم في إحقّاقه وشاركه نيل الجزاء والتواب، كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي ناصره الحواريون المحبون للحقّ وإحقّاقه، قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[231].

12 . مُطهَّر:

لا دنس يعلق به، ولا خبائث ولا ظنون، ولا طمع ولا هلع، ولا ظلم وكره، ولا كذب وافتراء، قلبه يملأه الإيمان واليقين، محب للخير وعامل عليه وهادٍ للحقّ وفاعل له، هكذا كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم قد اسلم وجهه لله ربّ العالمين، وصدّق ما بين يديه من التوراة

[230] نوح 27، 28.

[231] آل عمران 52.

وبشَّر برسول أتى من بعده هو محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولذلك فقد طهره الله من الذين كفروا مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}232.

التطهير تنزيه عن ارتكاب الخطايا والباطل، ولذا المطهر منزه في دائرة الممكن، ولكنه لا يعد منزها بالمطلق، فالمنزه بالمطلق الله وحده عزّ وجلّ، ولأنّ الله المنزه أراد أن يكون عيسى مطهرا فطهره، ولذا لا يستطيع أحد ألا يعترف بذلك، والمؤمنون يُسلِّمون بذلك تسليما.

13. مُبَرَّأُ:

من الشبهات والظنون التي تُفترى من قبل المفترين والظانين ظن السوء، والمبَرَّأ هو الذي لا يلحقّه شيء ممّا يقولون عليه باطلا، ولذا فمن يبرئه الله تعالى لا تلحقّه الشبهات والافتراءات من النّاس ولذلك يوصف بالمبرَّئ.

قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}233، ولذلك فبرأه الله ممّا يقولون كما برأ موسى من قبله مصداقا لقوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}234، وهكذا كل الرّسُل والأنبياء هم مبرؤون من عند الله تعالى من أقاويل وظنون الضالين والمشركين والكفرة والمنافقين.

---

232 آل عمران 55.

233 النساء 157.

234 الأحزاب 69.

والبريء من لا تلتصق به التهم، وإن حاول أحد غير ذلك تُبطل بعدم إتيان الدليل وفقدان الحجّة. أمَّا المبرّئ هو الذي صدر بشأنه حكم بالبراءة من كل التهم الملفقة له، ولذا فقد برّأ الله تعالى عيسى من الملفقات، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}235.

14. مرفوع:

الرفع نقل من مكانة إلى أخرى، وهو رفع من دنو إلى علو كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}236، ولذلك الفرق كبير جدا بين المكانة العالية والمكان المنخفض فلا داعي للمقارنة والأمور بين دنو وعلو مسلمات، ولا داعي لمقارنة مكانة من يخصه الله بالرفع إليه بمن لا يخصه، ومع ذلك يمكن أن يكون الرفع على حالتين:

[235] المائدة 116 . 119.

[236] النساء 157.

أ . رفع المقام والشرف والمنزلة بالاصطفاء كما هو حال جميع الأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين، وهذا الرفع كان شاهدا على الأرض خاصة ونحن لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا.

ب . رفع المقام والشرف والمنزلة من الأرض إلى السماء كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم.

15 . مُبْرِي:

لا مبرٍ ولا مُشفي إلا ألله جلّ جلاله، ومن أعطاه الله بالأمر (كن) ليبري أو يشفي يُبري ويُشفي، {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}237. لقد أخص الله عيسى صلّى الله عليه وسلّم بذلك في قوله تعالى: {وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ}238.

المبرئ هو من يوهب القوّة والقدرة على تحقّيق فعل الإبراء والشفاء، إلا أنّ فرقا كبيرا بين الإبراء والإشفاء:

أ . الإبراء على يد المبرئ كما هو حال عيسى الذي أبرئ الأكمه والأبرص هو إبراء قطعي لا عودة من بعده للمرض.

ب . الإشفاء تخليص من المرض ولكنه يحتمل أن يعود ثانية.

16 . مُحيي:

لا محيي إلا الله تعالى، فمن مات، مات، ولن يعود ثانية، ولكن بمشيئته تعالى لا مستحيل أمام من خلق المستحيل فكل شيء ممكن، فإذا أراد شيئا أن يكون لابدّ له أن يكون، ولهذا عندما شاء عزّ وجلّ أن يحيي عيسى الموتى أذن له بذلك فيما حُدد له فقط، مصداقا لقوله

---

237 إبراهيم 20.

238 آل عمران 49.

تعالى: {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}239، أي لو لم يأذن الله له بالإحياء ما أحيي.

17 . مُنَاصَر:

المناصرة لا تكون إلا بدليل يترك أثرا موجبا عندما تكون الغاية من وراء المناصرة حقّ، ويترك أثرا سالبا عندما تكون الغاية من وراء المناصرة إبطال حقّ، ولذا في الحقّ قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}240، وفي الباطل يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وخير الكائدين.

المناصرة بالنسبة لعيسى صلّى الله عليه وسلّم كانت على وجهين:

أ . مناصرة تأييد ودعم، قال تعالى: {وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}241.

ب . مناصرة تأييد وكف قال تعالى: {وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ}242، أي؛ ناصر الله عزّ وجلّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم بكف بني إسرائيل عنه.

18 . صادق:

الصدق علامة على الوفاء في قول الحقّ وأتباعه، ولذا فالصادق من لا يشهد شهادة زورٍ أو يفتري على بريء، وإذا طلبت منه شهادة فيما سمع أو شاهد لم ينكر شهادته ولا يبدِّلها ولا يقبل المساومة في ذلك من أحدٍ، وكذلك إذا عاهد أو وعد أوفى.

---

239 آل عمران 49.

240 الحج 40.

241 البقرة 87.

242 المائدة 110.

كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم صادق القول والوعد والفعل والعمل فجازاه الله على صدقه خير جزاء (الفوز بالجنّة)، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}243.

19. فائزٌ في الجنّة:

من يفوز بالجنّة يتصف بها، ومن يدخل النّار يتصف بها، ولذلك لا فوز إلا بالأعمال الصالحات ولا دخول للنار إلا بالأعمال السيئات، ولذلك قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}244، وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}245.

الفوز بالجنّة كُتِبَ للصدّيقين والصالحين والأنبياء والمرسلين الكرام والذين لم يبدلوا تبديلا، مصداقا لقوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}246.

20. مرضي عنه:

ويكون الرضا على حالتين:

أ. من أعلى إلى أسفل، كما هو الحال مع جميع الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم الذين برضا الله عليهم اصطفاهم أنبياء

---

[243] المائدة 119.

[244] فصلت 46.

[245] الزلزلة 7، 8.

[246] الأحزاب 23.

ورسل مكرَّمين وكتب لهم الفوز بالجنّة، قال تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}247.

ب . من أسفل إلى أعلى، كما هو حال العباد المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين وما بدلوا تبديلا. قال تعالى: {وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}248، أي أنَّ الإيمان والإسلام والطاعة والهداية دلائل رضا المخلوق على خالقه تعالى.

الرضا قبول بالأمر عن وعي وإرادة، ولذا، لا يمكن أن يتحقّق الرضا بدون إرادة حرة، وعليه فمن غير الإرادة لا يمكن أن يكون للرضا مستقرا في الأنفس أو بين النّاس.

الرضا فضيلة وقيمة في مقابل الإكراه، فمن تمسَّك به تمسَّك بحقّوقه وواجباته وتحمَّل أعباء مسؤولياته بإرادة، ومن لم يتمسَّك به فليس له بدا إلا أن يقبل بإنزال المظالم عليه وعلى محيطه الاجتماعي والإنساني الذي يمكن له أن يحميه ويحتمي به.

21 . كليم:

الكلام خاصية بشرية بين النّاس لأجل التواصل والتفاهم والترابط والتعلم والتعرف والتخاطب، والكلام في دائرة الممكن لا يكون إلا على موضوع أو أمر ولا يكون إلا بين مكلِّم ومكلَّم (مرسل ومستقبل)، ولذلك كان الكلام نعمة على الألسُن والآذان الصاغية للحقّ بين المتكلمين الذين به عرفوا الحلال والحرام، والإيمان والكفر، والأمر والنهي، والأخذ والاجتناب.

---

247 المائدة 119.

248 المائدة 119.

ومع أنّ الكلام خاصية بشرية بين النّاس إلا أن مصادر التكليم متنوعة ومتعددة منها:

أ ـ هناك من يكلمه الله، كما هو حال الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}249.

ب ـ هناك من يكلم الله، الذين يكلمهم الله يكلمونه ولهذا الرّسُل كلَّمهم الله وكلَّموه بالطاعة والهداية قال تعالى: {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}250.

ج ـ الكلام بين الأنواع الثلاثة الرئيسة، (الملائكة، الجن، آدم) كلام ألله إليهم وطاعتهم إليه، وكلام بعضهم للبعض مع السجود لآدم والعصيان من بعض النوع (إبليس).

د ـ هناك من يكلمه ملك، الرّسُل والأنبياء علاقاتهم مباشرة مع الله في كل ما يتعلق بالنبأ العظيم والرّسالة العظيمة، ولذلك يكلمهم الله مباشرة من وراء حجاب (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)، أو يكلمهم برسول ملك كما هو حال جبريل المكلف معهم عليه السّلام لنقل ما يوحى إليهم صلّى الله عليهم وسلّم.

---

249 المائدة 116.

250 المائدة 116، 117.

هـ . هناك من يُكلِّم الجن، كما هو حال سليمان صلّى الله عليه وسلّم.

و . هناك من يتكلَّم مع الأبالسة والشياطين، بحقّ ليبطل ما يسحرون به أعين النّاس وما يفسدون به في الأرض، وهناك من يخاطبهم ليشاركهم في زيادة الإفساد في الأرض والإفساد بين العباد قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}251، وقال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ}252.

ع . هناك الكلام بين النّاس ومعهم، وينقسم الكلام إلى ثلاثة مستويات:

* مستوى آدم صلّى الله عليه وسلّم الذي تكلَّم لحظة خلقه مع ربّه تعالى ومع الملائكة والجن.

* مستوى عيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي تكلَّم من تحت أمه بصوت اسمعها، ثم تكلم في مهده مع أهله وبني قومه، إنه الكلام المعجزة تنفيذا للأمر (كن)، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}253، وقال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا

---

[251] الجن 6.

[252] الحشر 16.

[253] مريم 23 . 25.

بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[254].

وعليه فإن عيسى كليم أي أنّه مُكَلم ومُكَلِم، مكلم من الله، وطليق اللسان في الصغر بالحقّ مع وضوح وبيان وإعجاز كلماته، وهي تصدر من وعي وإدراك، ففي كلماته طمأنينة لامه الخائفة التي دعت على نفسها بالخوف فجاء كلامه أية سلاما وأمنا لها، أي أن كلامه في المهد كان معجزة خاصة به أتاه الله إياها، ثم أن كلامه في المهد كان كلاما واعيا بلسانٍ راشدٍ، ثُم أنه في رشده كان لسانه لسانا مبلِّغا بالرّسالة والنبأ العظيم الذي كلَّفه الله به ليبشِّر به العباد من بني قومه للتي هي أحسن وأقوم.

* مستوى البشر الذين لا يتكلمون إلا بعد تربيّة أسرية ومعرفة وتعلم وتعليم، هؤلاء أمرهم يتعلق بمراحل نموهم والبيئة التي يعيشون فيها، ممّا يجعل للألسن واللغات تنوع وتعدد.

22 . بشير:

البشير هو من يأتي قبل غيره بالأنباء والرسالات والأخبار السارة للعباد، أي أن خبره بها يسبق بلوغ النّاس إليها ممّا يجعلهم ينتظرونها بلهفة الفرحة والسرور والأمل حتى تأتي أو يتمكنون من بلوغها.

البشير كثير البشائر، ولذلك النّاس يستبشرون بوجه البشير الكريم كلما راؤه وكلما أتاهم، والبشير محب للخير وفاعل له ولهذا تملؤه المودة

[254] مريم 30 . 35.

والمحبة بما يُبشَّر به من ربّه تعالى، كما هو حال عيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي علينا أن ننظر إليه من زاويتين:

أ ـ مُبَشَّر، من عند الله بما نزل عليه من نبأ ورسالات، ومُبَشَّرٌ بمحمّد رسولا يأتي من بعده، أي انه بُشِّرَ به قبل أن يعلمه غيره وقبل أن يُبعث محمّد صلّى الله عليه وسلّم رسولا.

ب ـ مُبَشِّر، أي أنه المبشِّر بما بُشِّرَ به من ربّه لبني قومه، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[255].

23 ـ منبئ:

لا نبأ إلا من مُنبئ، ولا مُنبئ إلا الله جلّ جلاله، ولذلك فالنبأ من عند الله تعالى تعظيم على مستويات ثلاثة:

أ ـ المستوى الأول، لابدّ أن يكون النبأ عظيم.

ب ـ المستوى الثاني، لا يكون النبأ العظيم إلا من الأعظم.

ج ـ المستوى الثالث، لا يؤتى النبأ العظيم إلا للمعظَّم.

وعليه: فإنّ علاقة مباشرة بين هذه التعظيمات الثلاثة وبين الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم ولذلك كانت لعيسى صلّى الله عليه وسلّم علاقة بالنبأ وتعظيم الله له. ولأنه لا نبأ عظيم إلا من الأعظم لذا فقد أنبأ الله تعالى عيسى وكلفه بأن يُنبئ قومه بما أنبأه به عزّ وجلّ فكان منبئا لهم بما أنبأه.

[255] الصف 6.

إذا المنبئ هو من يَعلم بالأمر قبل غيره وقبل وقوعه، ممّا يجعله يخبر به ويوصف كما سبق أن بيّن بالمبَشّر من قِبل الذين بشرهم به. قال تعالى: {وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}256.

خلق عيسى:

شغل خلق هذا النّبي الكريم الفكر المؤمن والكافر على حد سواء، المؤمن بما يريد أن يدلل على نظرية الخلق الإلهي، والكافر بما يرفض ويريد إقرار نظرية الخلق المادي ولازال النّاس يختلفون حوله ونعتقد أنه من الضروري الوقوف عند هذه القضية للبحث في أمر خلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم.

نقول:

إنّ القران الكريم ناقش هذه القضية بدقة، وحدد الملامح المبينة لصورة الخلق، وبيَّن المراحل، وأول ما يجب الوقوف عنده قول الحقّ سبحانه وتعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الحقّ مِنْ ربّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}257، والنص هنا يحيلنا إلى خلق آدم وكأنه جلّ وعلا يجيب من يسأل:

كيف خُلق عيسى؟

والجواب مثير لمكامن الفكر إذ يقول الحقّ: (كمثل آدم) ولم يقل مثل آدم والسياق يستقيم لو قال قائل مثل آدم فما هو الإعجاز في كاف التشبيه هنا؟

[256] آل عمران 49.

[257] - آل عمران 59-60.

وما هو الدور الذي تؤدّيه في إيضاح عملية الخلق؟

نقول:

إنّ خلق عيسى يشابه خلق آدم دون أن يكون ذاته، ويتبين ذلك من خلال حقّائق التناظر والتباين الآتية:

أولا: حقّائق التناظر:

1- آدم خلق من تراب وعيسى كذلك.

2- آدم وعيسى خلقا إعجازا بدون اتصال جنسي.

3- خلق آدم وعيسى بالأمر (كن).

4- روحهما من الله مباشرة.

5- سمّى الله ادم وعيسى بأسمائهما.

6- تعلم الاثنان من علم الله.

ثانيا: حقّائق التباين:

1 ـ آدم أصل وعيسى فرع.

2 ـ آدم لم يكن له أم وعيسى أمه مريم.

ـ ادم خلق بكل المراحل في السماء، وعيسى خلقه مشترك فالأمر سماوي والخلق ارضي.

ـ آدم خلق مكتملا جسدا وعقلا في برهنة الأمر (كن) بينما خضع عيسى في نموه لقوانين الأرض.

تعلم آدم أصول الأشياء، وتعلم عيسى دقائق الأشياء.

أوّلا: حقّائق التناظر.

الخلق من التراب

يرتكز الإيمان بهذه الحقّيقة على طبيعة المتعاطي لها، فإذا كان من أصحاب اتجاه الإيمان بالغيب فيكفيه أن يقرأ قول الله تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)، فيوقن بما فيه دون الحاجة إلى إثبات آخر، أما أصحاب الاتجاه المادي فلن يكون بالإمكان محاورتهم إلا بما يؤمنوا به من مادية بحتة وبأدلة مادية صرفة، وهذا أمر يمكن أن نقدمه لهم لإيماننا أن القول الإلهي هو حقّيقة يقينية صادقة تدل عليها آيات الله ومنها الآيات المادية، فلو نظر أحدهم إلى أحد إسلافه وقد كُتِبَ عليه الله الموت من قبل أترى يستطيع أن يميز اللحم من التراب فيعرف الأصل عن غيره؟

ثمّ أتراه يستطيع أن يستخرج أي شيء من أعضاء جسد الميت أو أن يعرف أين صارت؟ ثم هنا، نأتيه بما يؤمن، حيث أنّ العلم المادي يقول: أنّ المادة تتحلل إلى عناصرها الأولية، وما في القبر إلا التراب! صار لزاما عليه أن يؤمن أن الجسد البشري مخلوق من تراب بهذه الأدلة المادية. وهكذا آدم وعيسى صلّى الله عليهما وسلّم خُلقا من تراب لأنّهما بشر.

2- الخلق الإعجازي بدون اتصال جنسي.

هذه القضية يقينية بالنسبة لنا سواء أكانت لآدم أم كانت لعيسى، ونشك أنّ هناك من يقول غير ذلك عن آدم، ولكن الشك في خلاف هذا القول يأتي مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم ومن المهم مناقشة الأمر للوصول إلى مقاربّة لفهم الحقّيقة.

نقول إن الأمر لا يعدو عند المشككين إلا انصرافا كاملا للبحث عن:

النطفة!

من أين جاءت؟

كيف جاءت؟

والإجابة عن هذه التساؤلات تنحصر في القول الآتي: إن انصراف هؤلاء للبحث عن النطفة ومحاولة إيجاد علاقة نسبية لعيسى صلّى الله عليه وسلّم على أساس البحث عن مصدر النطفة هو محض جهل يتمثل في البحث عن الشيء في غير موضعه، وهم في ذلك بين محبٍ مغالٍ يقول: إنّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم هو ابن الله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}258، وبين مبغضٍ قالٍ يقول إنه ابن يوسف النجار كما قالت طائفة من اليهود259، وهذا في الحقّيقة بهتان عظيم كما وصفة الحقّ سبحانه وتعالى فقال عن فعلهم وقولهم: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}260.

أمّا نحن فنقول مؤمنين:

إنّ خلق عيسى كمثل خلق آدم ولا نطفة على الإطلاق في خلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم لأنه في خلق آدم لم تُذكر النطفة في كل الآيات التي جاء الحديث بها عن خلق آدم بل ذكر الصلصال المسنون

258 – البقرة 30.

259 – الفصل في الملل، ابن حزم، ج 2، ص 11.

260 – النساء 156.

مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}261، عليه يتبين أنَّ الصلصال سوّي ثم نفخت فيه الروح دون نطفة، وعيسى كذلك لم تدخل النطفة في خلقه وإنما هو أمر الله (كن) فكان عيسى في لحظته جنينا متكامل النمو خلقا معجزا من الله ليكون آية مصداقا لقوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}262.

هنا نتساءل:

هل تقتصر قدرة الله على خلق آدم من دون نطفة؟

بالتأكيد الجواب يحمله التساؤل لان الله القادر على كل شيء خلق آدم من غير نطفة وكذلك خلق عيسى ابن مريم من غير نطفة.

أمّا الآيات التي يأتي فيها ارتباط خلق الإنسان بالنطفة كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}263، فهذا من الثوابت الأساسية للخلق من دون إعجاز أي بقية البشر، وهي من القوانين الإلهية التي وضعها ثوابت في كون متحرك متغير كالزمن والضوء، فهي من الثوابت التي تُسيّر الكون المتحرك.

3- الخلق بالأمر كن.

---

[261] - الحجر 28-29.

[262] - مريم 20-21.

[263] - المؤمنون 12-13.

خلق آدم وعيسى صلّى الله عليهما وسلّم بالأمر الله (كن)، وكن هذه ليس كلمة من حرفين كما قد يتوهم البعض، بل هي حالة الاكتمال المطلق في لحظة المشيئة مع بقاء الثوابت في موازينها، فكما مرَّ آدم بمراحل مرَّ عيسى بمراحل، إذ لم يُخلق بكن على هيئة الاكتمال الخلقي بل مرَّ بالطفولة ثم الفتوة إلى الكهولة، لكن الأمر (كن) قضى بأن يكون آدم ليُجعل خليفة، ويكون عيسى نبيا ورسولا. أما المراحل فهي من محصلات الأمر (كن) مشارِكة مطيعة في تنفيذه.

والأمر (كن) مختص بالله مرتبط بالقضاء والإرادة على وجه التحديد كما أخبر المولى عزّ وجلّ، يقول الحقّ سبحانه: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}264، {قَالَتْ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}265، {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}266، {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}267، وهذه كلها آيات عن قضاء الله، وأما الإرادة فينص عليها قول الحقّ جلّ وعلا: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}268.

ويُلاحظ من الآيات المحكمة التي عرضنا أن خلق عيسى ارتبط بما قضى الله كما قال الحقّ في كتابه: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ

264 – البقرة 117.

265 – آل عمران 47.

266 – مريم 34-35.

267 – غافر 68.

268 – يس 82.

آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}269، وقول جلّ وعلا (قَالَتْ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، فهو أمر وكل أمر لله مقضي وهذا في غاية الإعجاز لان عيسى خلق، والخلق مقترن بالأمر، فكل خلق مهما كان يقترن بأمر الله، ذلك أن الخلق متجدد مستمر وأكثر ما يدل على الاستمرارية هو الأمر لأن فيه حاضر ومستقبل، أما الإرادة فهو أمر أيضا لكنه مقترن بالشيء والشيء مخلوق وهو مرحلة بعد العدم.

وعيسى صلّى الله عليه وسلّم كان شيئا، وكل خلق كذلك، فالشيء مرحلة من مراحل الخلق مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}270، عليه نفهم أن الخلق هو عدم، ثم شيء، ثم أمر (كن)، وكل أمر لله مقضي ولا شك. وبهذا الأمر خُلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم وبه من قبل خُلق آدم.

4- روحهما من الله مباشرة، جاءت الآيات لتدل على أن آدم وعيسى صلّى الله عليهما وسلّم نفخت الروح فيهما من الله مصداقا لقوله تعالى عن آدم: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}271، وعن عيسى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ ربّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ).

---

[269] - مريم 20-21.

[270] - مريم 9.

[271] - الحجر 29.

5- أسماء من السماء

سمّى الله ادم وعيسى بأسمائهما في السماء مصداقا لقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}272، وقوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}273، والتسميات الإلهية للخلق ارتبطت بالبشارة وهي حالة مفصحة عن نوع التغيير القادم الذي يكون موجبا في اغلب الأحوال مصداقا لقوله تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}274، وقوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}275، وقوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}276، ولا شك أن التسمية الإلهية اختصاص من الله لبعض خلقه، وهو صورة من صور التفضيل التي اقترنت بمجوعة من الأنبياء ونعتقد أن هذا من بعض القرائن الدالة على قوله تعالى: {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}277.

6- تعلم الاثنان من علم الله.

علم الله يخص به من يشاء من عباده، أما العلم الدنيوي فهو عميلة اكتساب للمعارف والمهارات عن طريق التعليم أو التجربّة أو

272 - البقرة 31.
273 - آل عمران 45.
274 - هود 71.
275 - مريم 7.
276 - الصف 6.
277 البقرة 253.

الخبرة، وآدم وعيسى اختصهما بعلم من عنده كما اختص غيرهما من العباد فقال عز من قائل: (وعلم آدم الأسماء كلها)، وعن عيسى، (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) مع اختلاف في طبيعة علم كل منهما سنعرض له في نقاط التباين.

ثانيا: حقّائق التباين.

1-آدم أصل وعيسى فرع.

تبدو هذه النقطة من أولى نقاط التباين بين الخلقين، حيث كان خلق آدم بمثابة خلق الأصل الذي تفرعت منه الأجناس وتتنوع عنه الموروثات، فهو أصل لكل، بينما عيسى صلّى الله عليه وسلّم فرع من ذلك الأصل، ولاشك أن خلق الأصل يختلف عن خلق الفرع في وجوب كون الأصل متضمنا لكل متعلقات ما يتفرع منه ولا يجب في الفرع ذلك، ولكن يمكن أن يحتوي الفرع على بعض الكل، فآدم تحصل على كل الأصول خلقا لا وراثة بينما عيسى صلّى الله عليه وسلّم اخذ من أمه مريم صلّى الله عليها وسلّم بعض الموروثات والصفات، ولو تأمل العقل فأبحر في تتابع الخلق وارتباطه وحدة واحدة لأيقن أن عيسى صلّى الله عليه وسلّم في خلقه الكلي يعود إلى الأصل آدم لأنه ما من موروث إلا وأصله آدم فهو الأصل وغيره فرع.

2-آدم لم يكن له أم وعيسى أمه مريم.

قد يتساءل البعض عن جدوى الحديث عن مثل هذا الأمر في الموازنة بين الخلقين، نقول:

إنّه من النقاط الأساسية والمهمة في البحث في هذا الموضوع لأنّه يكشف عن طبيعة خلق وتكوين كل من العلمين، فآدم بدون أم ولا أب يعني أنّه: خلق منقطع (دون أم وأب) خاص في مغايرته لكل خلق

آخر، أما عيسى فهو خلق متصل (من أم) مغاير لكل خلق سواه، وأيضا يتضح شيء آخر مفاده أن آدم لم يعرف ما الأمومة وما هو دفء الحضن وما هي طبيعة المشاعر التي تربّط الابن بأمه والأم بابنها، وهذا ما لم يحرم منه عيسى صلّى الله عليه وسلّم فهل كان لذلك أثر في السلوك؟

نعم لقد واجه آدم الطبيعة وحده فاحتاج الصلابة أكثر من حاجته إلى الحنان والحب والدفء، وتشير الآية الكريمة أن زوجه (حواء) أسهمت في التخفيف من روع آدم إذ جعلها الله سكنا له.

من ماذا هي سكن؟

من طبيعة تحدي البقاء الذي كان يواجهه آدم، وعيسى احتاج إلى الحضن الراعي والمؤنس والمحب لأنه نشأ وسط كراهية عاطفية ولم يكن يواجه أخطار الطبيعة وتحدياتها.

3 – ادم خلق بكل المراحل في السماء، وعيسى خلقه مشترك فالأمر سماوي والخلق ارضي.

سبق القول في الحديث عن آدم أنه أُهبط إلى الأرض كاملا في خلقه، واعيا في عقله، مفكرا، عالما، تائبا، عابدا، وبدأ مسيرة الاستخلاف في الأرض على هذا الحال، فهو على الأرض خليفة كامل الأهلية للاستخلاف، أمّا عيسى فقد كان امرأ مقضيا في السماء، وخلقا إعجازيا مرَّ بمراحل النمو كلها من الطفولة إلى الفتوة ثم الكهولة، وهو في كل ذلك يكتسب إضافة إلى علم الله علما دنيويا، آدم خلق مكتملا جسدا وعقلا في برهنة الأمر (كن) بينما خضع عيسى في نموه لقوانين الأرض.

4– تعلم آدم أصول الأشياء، وتعلم عيسى دقائق الأشياء.

لاشكّ أنَّ فرقا واضحا تنص عليه الآيات فيما يتعلق بعلم كل من آدم وعيسى، وهو فرق يمليه المنطق أيضا، فلأن آدم أصل ارتبطت المعرفة عنده بالأصول فالأسماء (وعلم آدم الأسماء كلها) تدل على عناوين الأشياء وظواهرها، أما الكتاب (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) فهو يشير إلى كلية العلم، والحكمة فتوحي بالتدقيق وصولا إلى التفاصيل ثم يضاف إليها كتابين سماويين فيهما من العلم والحكمة والعقيدة والفكر وكل تفاصيل ذلك، وهما في ذلك خضعا للدور المطلوب، فآدم خليفة ونبي بدون كتاب ملائمة لواقع من أرسل إليهم، وعيسى خليفة ونبي ورسول إلى قوم انحرفوا عن النهج الإلهي وكتابه الإنجيل فهو أكثر حاجة إلى التفاصيل لهذا الواقع من آدم بالنسبة إلى واقعه.

بقي أن نتساءل عما ورد في الآية فنقول:

لماذا قال الله (مثل عيسى كمثل آدم) ولم يقل عيسى كآدم؟

ما هي دلالة (مثل) التي ذكرت في خلق الاثنين على حد سواء؟

نقول:

إنّ الإعجاز في إيراد هذه اللفظة في سياق الآية له دلالات عميقة وبعيدة منها أن هذا الخطاب الإلهي عن خلق كل من آدم وعيسى هو مَثل لمتلقي محدود الإدراك مهما اجتهد فجاء المثل على قدر إدراك المتلقي وليس كما هو، فهو غير ما كان على وجه الحقّيقة وإنما هو مثله على وجه التقريب، ذلك أن الخطاب الإلهي قربّ بالظاهر من الأمر وبعمومه، أما باطنه ودقائقه فقد اختص به الخالق عزّ وجلّ، فهو على ذلك مثل وليس هو كما هو، وفي هذا صورة من صور

الإعجاز القرآني وآية من آيات البلاغة فلو لم تكن لفظة مثل لالتبس الأمر على من يقرا فظن أن الخلق لا يعدو غير ما ذكر وهو غير ذلك.

عيسى النّبي الرّسول

يقول الله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}[278]، وفي هذه الآية مسائل من الأهمية أن نقف عندها لأنها تعرف بأبرز ما جاء تعريفا بالنّبي والرّسول عيسى صلّى الله عليه وسلّم:

1- عبد الله، إشارة مهمة في بداية سياق التصريح عن الذات وفيه دلالة قاطعة على نفي ما سيُدّعى عنه وعن أمه صلّى الله عليه وسلّم.

2-التكليف، ذُكر في هذه الآية أنّ الله آتاه الكتاب بينما في آية أخرى ويعلمه الكتاب والحكمة، فما هو الفرق بين الإتيان والتعليم؟ العربّ تقول: أتاك الأمر، وهو متوقع بعيد[279]، فكلمة آتاني الكتاب متوقع عندهم أن يكون احدهم نبيا لكن البعيد في القول أن يكون طفلا في المهد هو من أوتى الكتاب، فالإتيان هنا أقربّ إلى معنى الاصطفاء للكتاب، أما يعلمه ففيه إيحاء بطبيعة هذا الاصطفاء فقد تولى المولى عزّ وجلّ هذا الطفل المصطفي بالرعاية الخاصة، وذلك لان سياق الآية يدل على عظيم ما اختص به عيسى من رعاية الله عزّ وجلّ

[278] - مريم 29-34.

[279] - تهذيب اللغة، ج 5، ص 33.

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) حيث تولى تعليمه ثم ارتقى إلى درجة الحكمة وصولا إلى الكتب السماوية وفي تفسيرها يقول الرازي قولا دقيقا مفاده: "والأقربّ عندي أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأنّ كمال الإنسان في أن يعرف الحقّ لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة، ومحيطا بالعلوم العقلية والشرعية، يعلمه التوراة، وإنّما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهي، وفيه أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلهية، ثم قال في المرتبة الرابعة والإنجيل، وإنما أخر ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحقّ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية، فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربّعة"280.

2- جعلني مباركا، والمبارَك: الذي تُقارن البركةُ أحوالَه في أعماله ومحاورته ونحو ذلك، لأن المبارك اسم مفعول من باركه، إذا جعله ذا بركة، أو من بَارك فيه، إذا جعل البركة معه. والبركة: الخير واليمن. ذلك أنّ الله أرسله برحمة لبني إسرائيل ليُحلّ لهم بعض الذي حُرم عليهم وليدعوَهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه. ومن بركته أن جعل الله نزوله في المكان سببا

[280] - الرازي، ج 4، ص 212.

لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير، ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقُسَاة والمفسدون انقلبوا صالحين وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة، ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشّارين فصاروا دُعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة.

والتعميم الذي في قوله (أين مَا كُنتُ) تعميم للأمكنة، أي لا تقتصر بركته على كونه في الهيكل بالمقدس أو في مجمع أهل بلده، بل هو حيثما حلّ تحلّ معه البركة281.

3- العمل (وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) الحقّ أنّ ما من نبي كلف واعفي من العمل بمبادئ التشريع، حيث يكون القصد من وراء ذلك أمران:

أ- دلالة (السوية) في هذه الآية يأتي إقرار عيسى بالقيام بما هو واجب على كل مسلم مؤمن بالله من عمل تعبدي، والحقّ إن ذكر عيسى للصلاة والزكاة لم يكن على وجه الحصر بل على وجه الذكر فعيسى وأتباعه مكلفون بما كلف به موسى من قبل، ومنها على سبيل المثال الصيام الذي ذكر على لسان الصديقة مريم في السورة بقوله تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}282.

ب- الأسوة: في هذه الآية يقدم عيسى صورة المؤمن الحقّ وهي دعوة للإتساء به في السلوك الإيماني لان النّبي المرسل هو أسوة إتباعه

---

[281] - التحرير والتنوير، ج 8، ص 470.

[282] مريم 26.

لذلك نعتقد أن الوصية بالصّلاة والزكاة لم تكن لعيسى وحده بل هي لعموم المؤمنين معه.

4- البر، برا بوالدتي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا تقدم هذه الآية طبيعة السلوك الذي جبل عليه عيسى صلّى الله عليه وسلّم حيث كان مخصوصا بخلق البر وهو من صفات الله التي جاءت الرسالات لترسخه في الأرض منهاجا وسلوكا، وفي لم يجعلني جبارا شقيا عدة استنتاجات:

أ- إنّ الجبروت من آفات الأخلاقية التي تنافي خلق البر المراد له أن يرسخ كمرتكز أخلاقي تقوم عليه العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

ب- يترتّب على التجبر لا محالة شقوّة في الدنيا والآخرة، لانّ المتجبّر يشقى ببغض النّاس له ويتمثل في انقطاع العلاقة بينه وبين الآخر، كما يشقى في الآخرة بما تجبر في الدنيا مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا ربّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ}283، وهو مدعاة لانقطاع العلاقة بينه وبين الله إن لم يتب.

5- وجيها، (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرّبِينَ)، إذا صارت له منزلة رفيعة عند النّاس والسلطان، وقال بعض أهل اللغة: الوجيه: هو الكريم، لأنّ أشرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال.

6- يموت (ويوم أَمُوتُ) إن هذه الآية فيها إقرار بعبودية عيسى صلّى الله عليه وسلّم، لان الموت هو مرحلة يمر بها الإنسان يتحول فيها

[283] - المؤمنون 105-106.

من مرحلة اندماج المادة والروح إلى مرحلة الانفراد الروحي وهذا يتعلق بالإنسان على وجه الخصوص، لذلك كل من يمر بهذه المرحلة تنتفي عنه الألوهية، لان الله جلّ وعلا هو الباقي الذي لا يتبدل ولا يتحول ولو كان المسيح عيسى جزء الله أو ابنه أو شريكه (حاشا لله) لكان احتفظ بصفات هذا الجزء أو الأب أو الشريك ولم يتبدل حاله أو حال بعضه.

عيسى كلمة من الله:

وصف الحقّ سبحانه وتعالى نبيه عيسى بكونه كلمة منه فقال عز من قائل: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}284.

هذه الآيات فيها دلالة على تمام خلق عيسى بالكلمة، أي أنّ عيسى خلق قولا قبل الظهور المادي للجسد بالكلمة (كن)، خلقا متكاملا مستويا مكلفا، واليك برهان ما نعتقد:

إنّ كلمة الله جلّ وعلا هي كلمة حقّ لا تتبدل ولا تتغير مصداقا لقوله تعالى: {لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}285، وهذه من القواعد الإلهية الثابتة، وليس لمخلوق إن يمنع حدوث أرادته في إظهار كلمة الله جلّ وعلا لأنها حقّ والحقّ ظاهر، وعيسى صلّى الله عليه وسلّم حيث لم يكن حتى في لحظة التبادر أو برهة الخاطر له

284 - آل عمران 45-47.

285 - يونس 64.

وجود، حيث كان في مرحلة اللاشيء، فلا هو في ما تبادر إلى ذهن أمه التي ولدته، ولا ما تخاطر إلى ذهن أعداءه بل كان موجودا بالكلمة التي كشف عنها الحوار بين الملك المكلف بالتبليغ وبين مريم والمنبئ عن حدث سيأتي فما هو هذا الحدث؟

نقل الملك لمريم بلاغا بكلمة الله (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) هذه الكلمة ألقاها الملك وعيسى لازال في الكلمة، ثم جاءت التفصيلات المفسرة لهذه الكلمة على أنه:

وجيها.

مقربّا.

مُكَلما.

صالحا.

رسولا.

والتفصيل تحتاج إليه مريم ولا يحتاج إليه عيسى صلّى الله عليه وسلّم لأنّه أفصح في المهد بلسان مبين بحقّيقته كلمة الحقّ من ربّه، أمّا مريم فكانت تفكر في دائرة الممكن غير المتوقّع لذلك احتاجت إلى هذه التفصيلات لتقدم لها طمأنينة قلبية.

كل هذه التفصيلات للكلمة في حوار (الملك – مريم) كانت قبل التكوين المادي لجسد عيسى صلّى الله عليه وسلّم، عليه نعتقد أن عيسى بهذه الكلمة خلق متكاملا مستويا مكلفا وهو مثل آدم (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، فإذا قيل فكيف نفسّر خلق عيسى طفلا احتواه مهد، بينما آدم خلق مكتملا ناضجا؟

نقول:

إنّ خلق آدم كان في السماء حيث لا وجود للزمن في حضرة المحيط المهيمن عليه لذلك كلمة خلق آدم (كن) لم تستغرق الزمن حيث لا زمن بالمطلق، فلا شك أنّ خلق آدم سيكون خلقا متكاملا مستويا مكلفا في لحظة الظهور، أمّا عيسى صلّى الله عليه وسلّم فقد خلق على الأرض، والأرض تحكمها قوانينها التي أراد الله لها أن تكون من قبل خلق عيسى ومن أبرزها حركة الشمس والقمر وما ينتج عنها من استغراق للزمن، لذلك كان لابدّ لعيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي خلق على الأرض أن يستغرق الزمن في الظهور من الطفولة إلى الكهولة، ولو تصورنا الخلق الكلي المستوي المتكامل لعيسى في الأرض لكان الأمر صعب التصديق، بل هو من مستحيلاته.

ولابدّ من التذكير بأن كل كلمات الله جلّ وعلا هي حقّ وهي على التمام لا نقص فيها، ونعتقد أنّه لابدّ من الوقوف مع صفة كلمة الله ونقول إن أحسن من نستدل به في وصف الكلمة هو صاحب الكلمة، فقد ذكر الله عزّ وجلّ كلمته في ستة مواضع ثلاثة منها وصفا بالحقّ وثلاثة بالتمام في آياته عزّ وجلّ وهي:

1- {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السّميع الْعَلِيمُ}286.

2- {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربّكَ الْحُسْنَى}287.

---

[286] - الأنعام 115.

[287] - الأعراف 137.

3- {إِلَّا مَنْ رَحِمَ ربّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنّة وَالنّاس أَجْمَعِينَ}288.

4- {كَذَلِكَ حقّتْ كَلِمَةُ ربّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}289.

5- {إِنَّ الَّذِينَ حقّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ ربّكَ لَا يُؤْمِنُونَ}290.

6- {وَكَذَلِكَ حقّتْ كَلِمَةُ ربّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النّار}291.

ومن هذه الآيات يتبن أن الكلمة تقوم على صفتين أساسيتين هما (تامة، وحقّ) وهنا نعود إلى عيسى في مرحلة الكلمة، فبالمنطق اتصف هو بهاتين الصفتين أي أنه كان تاما بالكلمة التامة وحقّا بالكلمة الحقّ، وهذا ما كان عليه، إذ أن عيسى صلّى الله عليه وسلّم دل وحال ظهوره المادي على هذا التمام بالخطاب الذي خاطب فيه أمه فقال كما يخبرنا المولى عزّ وجلّ: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}292.

[288] - هود 119.

[289] - يونس 33.

[290] - يونس 96.

[291] - غافر 6.

[292] - مريم 23-26.

وبالتدقيق في الخطاب يتبن أنه يقدم على صعيد العون والمساندة لامه عدة أمور هي:

التوحيد.

الأمان.

الإرواء.

الإطعام.

الفرح.

العبادة (الصوم).

هذه أمور لا يمكن لأحد أن يقدمها إلا من يشاء الله له أن يكون قادرا على ذلك وفي هذه اللحظة كان عيسى المكلف بتقديم هذا العون المادي والمعنوي لامه، وبالعودة إلى طبيعة هذه الأمور يتضح أنها من الأمور التي كُلف عيسى وهو المستخلف المصلح أن يقدمها للناس وبها تصلح أحوالهم وبها يهتدون فهي من أمور النبوة ومن الصفات المستمدة من الخالق عزّ وجلّ إذ أنه سبحانه نسب فعل الأمان والإطعام إليه مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}[293].

عليه يكون عيسى كلمة الله في لحظة الظهور المادي على التمام من حيث الإدراك العقلي لدوره وما كلف به وعلى الحقّ لان ما جاء به هو الحقّ ومن الحقّ جلّ جلاله.

ويلاحظ أنّ ما تلقته مريم كان تاما من كل الجوانب:

---

[293] - قريش 4.

خَلقا

خُلقا

صفة

مسمى

أمّا على صعيد الخلق فقد ولد عيسى من غير علة ولا عيب خلقي، بل ولد على صورة مثلى من الخلق امتاز بها على كل البشر وهي قدرته على النطق بالكلام وإقامة الحوار مع الآخر في طفولة المهد، وهذا مستوى خلقي لم يصل إليه إلا عيسى ومن شاء الله له ذلك وليس لنا علم به فيما علمنا.

كذلك فقد ورث عيسى من أمه نور الطهارة التي خصها الله برحمة منه فطهرها مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}[294]، وهو نور يجعل لهيئة الإنسان قبولا ورضا ممن يرى ويتلمس هذا النور، فالخلق تام على ذلك.

أمّا خُلقا فقد كان لعيسى خُلق الأنبياء لأنه ولد نبيا رسولا، كما انه تربّى على يدي مصطفاة طاهرة صديقة، فنشأ طاهرا صديقا.

وهو بعد ذلك مُكَلم، فهل هذه صفة خُلقية حسنى؟

نقول:

نعم؛ فهي لم تكن أبدا صفة خَلقية فقط لان الله تعالى وصفة بأنه يكلم النّاس في المهد دلالة على التميز الخَلقي، وكهلا دلالة على

---

[294] - آل عمران 42-43.

التميز الأخلاقي المتمثل بالقدرة على إقامة التواصل مع الآخر بالحوار المفضي إلى القبول.

ومن أبرز هذه الآيات الدالة على قدرة عيسى التواصلية مع الآخر تأتي معجزاته، فكل هذه المعجزات من شفاء الأكمه والأبرص إلى إحياء الموتى هي في الحقّيقة تهدف إلى التواصل مع الآخر وإقامة علاقة متميزة معه.

نأتي إلى الحديث عن تمام الصفة، فقد ورد في صفة عيسى صلّى الله عليه وسلّم أنّه:

وجيها.

مُقربًا.

صالحا.

رسولا.

مُصدّقا.

هذه الصفات التي ذكرها الله لمريم تفهيما لها ولغيرها بحقّيقة الكلمة هي صفات مثلى يتصف بها المستخلفون في الأرض، وبها يُحقّ الحقّ ويزهق الباطل، بقي أن نسأل هل هذه هي كل صفات عيسى عليه والصّلاة والسّلام؟ أم أن هناك صفات أخرى لم تُذكر؟

نقول: إنّ هذه الصّفات هي أماثيل الصّفات التي يمكن أن تظهر في بيان إنسان موصوف، وكان لابدّ أن تكون كذلك لانّ الله عزّ وجلّ بَشّرَ مريم بعيسى فكيف يمكن أن تكون بشارة الله عزّ وجلّ إلا بمثل

هذه الصفات التي ستكون خير داعم لمريم في مرحلة تربّية وتنشئة عيسى للتكليف المراد منه!

عيسى مسمى:

إنّ مسألة تسمية الله عزّ وجلّ لبعض خلقه مسألة فيها من التشويق الموجب للبحث والتقصي، لأنّه يثير التساؤلات عن الأسباب وراء ذلك.

يذكر القران الكريم قبل عيسى آية سمّى الله بها أحد خلقه، يقول العليم الخبير سبحانه وتعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}295. هذه الآية تدل على جوانب كثيرة يعنينا منها دلالة الاختصاص فيها، فقد خص الله يحيى بهذا الاسم فما كان احد قبله من تسمى بهذا الاسم على الإطلاق، ويحيى اسمه وليس صفته لأنّه لو كانت صفته لما مات يحيى أبدا، هنا نعود إلى الإشارة إلى أنّ الاسم غير الصفة وان الاسم يتضمن الصفة، لكنّه ليس عينها، فيحيى صلّى الله عليه وسلّم ميت لكنّه يحيى في قلوب المؤمنين مثالا للإخلاص والثبات على دين الله.

نأتي إلى تسمية عيسى، لقد لقّب الله عزّ وجلّ عيسى وسماه وكنّاه فقال عزّ وجلّ: (المسيح عيسى ابن مريم) وفي ذلك عدة دلالات منها:

التقدير، معلوم أن البدء بذكر اللقب فيه تقدير للمذكور.

الإتمام، لقد كان عيسى كلمة الله التامة ومن هذا التمام لقبه واسمه وكنيته، ولو سمته وكنته أمه مثلا لما كانت الكلمة تامة.

---

[295] مريم 7.

التخصيص، عيسى مخصوص بهذا الأمر وليس أحد سواه، يعني أنّه لو أنّ مريم عليها والصّلاة والسّلام تزوجت ثم أنجبت لها أبناءً لما كان لهم من أمر التسمية شيء إلا أن يشاء الله.

وهناك آراء أخرى في (الكلمة) لا تخرج عن دعم ومساندة ما ذهبنا إليه وتضيف إليه بعض الملامح المبينة الأخرى مفادها:

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَآ إِلَى مَرْيَمَ) في كلمته ثلاثة أقاويل:

أحدها: لأنّ الله كَلَّمَه حين قال له كن.

الثاني: لأنه بشارة الله التي بشر بها، فصار بذلك كلمة الله.

والثالث: لأنّه يهتدى به كما يُهْتَدَى بكلام الله[296].

أمّا بالنسبة للقول الأوّل؛ فهو في غاية الأهمية ويدعم ما ذهبنا إليه في مباحث هذه الموسوعة من أن الله كلم الأنبياء والرّسُل جميعهم، وذلك بكل ما يتعلق بأمور الدعوة.

أمّا تخصيص موسى في قوله تعالى: (وكلم موسى تكليما) وقد تحدثنا عنه تفصيلا في ترجمة موسى صلّى الله عليه وسلّم فنعتقد أنه كان على الامتياز وتكليم معين يفترق عن التكليم المعهود مع الأنبياء والرّسُل.

أمّا الرأي الثاني فهو رأي أقربّ في مدلوله إلى القيم الاجتماعية الفاضلة حيث جعل الكلمة عبارة عن بشارة الخير التي وعدها الله لمريم فكان لابدّ أن يحدث الإيفاء بالكلمة لأنها من الله عزّ وجلّ، وكأن

[296] النكت والعيون، ج 1، ص 341.

صاحب هذا الرأي يُسقط فكرة مدلول الكلمة بين البشر وتعني العهد على مدلولها القرآني.

أمّا الرأي الثالث فهو وبالرغم من قيمته إلا أننا نعتقد أنه بعيد عن القبول حيث حصر صاحب هذا الرأي الاهتداء بشخص عيسى وجعله مقابلا للاهتداء بكلام الله، وهذا ممّا لا يمكن القبول به بالمنطق لانّ الأنبياء والرّسُل وعلى الرغم من كونهم من المصطفين الأخيار والمكرمين خلقا وخلقا إلا أنه لم يكن بإمكانهم هدي النّاس بمجرد تكوينهم الشخصي بل كانت الهداية نابعة ممّا جاءوا به من هدى كلفهم الله به ليبشروا وينذروا من أرسلوا لهم.

والسؤال:

كيف وصلت الكلمة إلى مريم؟

نقول: إنّ النص القرآني اختار لفظة غاية في الإعجاز للتعبير عن طريقة تبليغ الكلمة فقال عز من قائل (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) هنا نقف مع ألقاها وقفة الباحث عن بعض ملامح الإعجاز فيها.

تنص المعاجم اللغوية على أن جذر هذه الكلمة له عدة دلالات منها:

1- دلالة نصها: (وتلقَّت المرأَة وهي مُتَلَقٍّ عَلِقَتْ)297، هذا الدلالة فيها تأكيد على طبيعة خلق عيسى من جهة، وفيها تنزيه للعذراء مريم، فقد خُلق عيسى بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)، هنا يظهر إعجاز اختيار سياق بكلمة

---

297 – لسان العربّ، ج 15، ج 253.

منه، ولو لم يأت ذكر الكلمة وجاءت البشرى فقط لتوهم البعض في خلق عيسى ولبحث عن سبب للحمل به من قبل مريم، ولكن إلقاء الكلمة على مريم دفع عنها وعن ابنها أية شبهة حيث أصبحت هناك وسيلة واحدة خُلق بها عيسى هي الكلمة الملقاة على مريم.

ومن الضروري أن نقف مع إعجاز أن تكون الكلمة معرفة بالإضافة ولم تكن معرفة بغيرها، نقول إن اختيار أن تكون الكلمة معرفة بالإضافة من الأسرار الدقيقة في الأسلوب القرآني من جهة، وحصرا دلاليا من جهة أخرى، فقد كانت الإضافة إلى الله عزّ وجلّ لتأكيد انعدام القدرة لأيٍ سواه في هذا الفعل، كما في هذا دلالة على حصر إلقاء الكلمة بالله عزّ وجلّ وبهذا نصل إلى دلالة تنزيه مريم عليها والصّلاة والسّلام إذ حددت الآية ما تلقته مريم بأمر واحد فقط هو الكلمة المخصوصة بكونها مولود نبي اسمه عيسى، الكلمة فقط ولم تتلق ما تتلقاه النساء ليتكون في رحمها ما يشاء الله، هذا هو قمة التنزيه لمن اصطفاها الله وطهرها وعجبا لمن يقولون غير ذلك من مفترياتهم الباهتة على السيدة الصديقة.

2- اللقاء "والأُلْقِيَّةُ ما أُلقِيَ وقد تَلاقَوْا بها"[298]، اللقاء كان من طرف مريم حيث كانت فيها ملكات التلقي لكلمة الله عزّ وجلّ، ولو لم تكن مريم على درجة من الطاعة وقوّة الإيمان والعقيدة ما يمكنها من تلقي ما ألقاه الله عزّ وجلّ عليها لما استطاعت مريم أن تستوعب الكلمة وتقوم بحقّها.

واللقاء يدور في فلك المتوقّع الممكن لان مريم في سيرتها ومذ أن كانت في رحم أمها تهيأت لهذا اللقاء، حيث جعلت أمها امرأة عمران

[298] – لسان العربّ، ج 2، ص 253.

الصلة الإيمانية في هذه البذرة المباركة منذ الحمل مصداقا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السّميع الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا ربّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}299.

فتقبل الله نذر امرأة عمران وهي مريم وكانت لا تزال في مرحلة الرحم، وسنفصل الحديث عن ذلك في ترجمة مريم عليها والصّلاة والسّلام إنشاء الله، عليه نقول إن مريم التي ذكر الله أنها من ذرية النبوة كانت مهيأة لاستقبال حدث عظيم، وقد يسأل سائل عن خوفها ودعائها على نفسها بالموت فهل هو مناقض لما نقول، الإجابة بالنفي قطعا لان مريم تصرفت من واقع بشريتها، فهي امرأة طاهرة جاءها أمر قد يحدث لها ما تكره لذلك قالت في مرحلة الخوف (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)، أما وقد سمعت الاطمئنان القلبي بحديث ابنها المولود معها فقد تحول هذا الخوف إلى قوّة حقّيقة تمثلت في حملها للمولود ومواجهة كل من حولها به دون خوف أو تردد، إنها قوّة الإيمان الذي لا يمكن له أن يحدث فجأة وإنما هو ممّا يُبنى في النفس ويُؤسس في القلب، لذلك نقول إن مريم تلقت الكلمة جسدا وروحا.

3- الوصل، يقول الألوسي: "وأوضحه بقوله سبحانه: (ألقاها إلى مَرْيَمَ) أي أوصلها إليها وحصلها فيها"300، والوصل هنا يفسره

---

299 - آل عمران 34-37.

300 - تفسير الألوسي، ج 4، ص 326.

قوله تعالى (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، فهذه الذرية هي ذرية متصلة كما أراد الله عزّ وجلّ لها أن تكون، وبما أن مريم لم يحدث لها أن تواصلت مع مخلوق من ذرية النبوة يمكن له أن يحدث التواصل كان أمر الله بإيصال الكلمة إلى مريم منه لتتواصل كلمة الله عزّ وجلّ فيما بعد من عيسى إلى محمّد صلّى الله عليهما وسلّم.

إن الغلو في خلق من خلق الله من أسس ما أفسد عقائدَ وأضل عبادا، لذا، نحن سنستخدم منطق العقل في جدال بالتي أحسن حول أمر عقدي راجين من الله أن يهدينا وأن يهدي بنا، ولسنا في مقام تجريح لشعور أو مساس بعقيدة أو تسفيه لأفكار بل في مجال فتح نافذة من العقل إلى القلب وكذلك من القلب للعقل، نافذة لنا ولغيرنا لعل يأتينا وإخواننا من خلقه شعاع نور نهتدي به جميعا إلى كلمة سواء، ومعتمدين أن الكلمة التي جاءت من الله في كتبه وحيا إلى رسله كلها صحيحة إلا إذا ثبت إنّه سيئ فهم معنى الكلمة.

ودعوانا انطلاقا من قوله تعالى إلى البشر جميعا على لسان آخر أنبيائه محمّد صلّى الله عليه وسلّم: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[301].

فالكلمة هنا عبادة الله وحده من دون شريك بادعاء آب أو زوجة أو ابن أو بنت أو حلول واتحاد، أو غير ذلك من مسميات.

ولما كان هذا النوع من الجدال حول الاعتقاد في غير الله من الأهمية بمكان كان لابدّ من التوجه لأهل الكتاب الذين هم وبلا شك على حقّ كامل في معتقدهم، وعلى نسبة منه عند غيرهم.

---

[301] آل عمران 64.

ومن أهل الكتاب:

-اليهود:

وذلك من حيث إنّهم مؤمنون بالله ربّا وبالوحي الذي أنزل على أنبياء الله بدءا من آدم عليه السّلام وحتى سيدنا موسى ومن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل مستثنين عيسى وهو من بني إسرائيل، ومحمّد وهو خاتم الأنبياء من العربّ.

- النصارى:

الذين آمنوا بأنبياء الله حتى عيسى صلّى الله عليه وسلّم ولم يؤمنوا بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وبما أنّ بحثنا يدور في شخص سيدنا عيسى عبد الله ورسوله لذا سنتناول بعض معتقدات أهل الكتاب من النصارى حول سيدنا عيسى صلّى الله عليه وسلّم من معتقدات النصارى في سيدنا عيسى عليه السّلام:

- لقد غالى النصارى في عيسى ابن مريم وقالوا إنه هو الكلمة في البدء وإنه الله وإنه ابن الله وإنه الكلمة الذي مع الله، وذلك كما جاء في إنجيل يوحنا:

"في البدء كان الكلمة، والكلمة كان مع الله، وكان الكلمة هو الله. هو كان في البدء مع الله. به تكوّن كل شيء، وبغيره لم يتكوّن شيء ممّا تكوّن. فيه كانت الحياة. والحياة هذه كانت النور للبشر. والنور يضيء في الظلام، والظلام لم يدرك النور.

ظهر إنسان أرسله الله، اسمه يوحنا. جاء يؤدّي الشهادة للنور، من أجل أن يؤمن الجميع بواسطته. لم يكن هو النور، بل كان شاهدا

للنور، فالنور الحقّ الذي ينير كل إنسان كان آتيا إلى العالم. كان في العالم وبه تكوّن العالم، ولم يعرفه العالم. وقد جاء إلى من كانوا خاصته، ولكن هؤلاء لم يقبلوه. أمّا الذين قبلوه، أمّا الذين قبلوه، أي الذين آمنوا باسمه، فقد منحهم الحقّ في أن يصيروا أولاد الله، وهم الذين ولدوا ليس من دم، ولا من رغبة جسد، ولا من رغبة شر، بل من الله.

يوحنا يشهد ليسوع

والكلمة صار بشرا وخيّم بيننا، ونحن رأيناه مجدا، مجد ابن وحيدٍ عند الأب، وهو ممتلئ بالنعمة والحقّ. شهد له يوحنا فهتف له قائلا: "هذا الذي قلت عنه: إنّ الآتي بعدي متقدّم علي، لأنّه كان قبل أن أوجد "فمن امتلائه أخذنا جميعا ونلنا نعمة على نعمة. لأن الشريعة أُعطيت على يد موسى، أمّا النعمة والحقّ فقد تواجدا بيسوع المسيح. ما من أحد رأى الله قط، ولكن الابن الوحيد، الذي قي حِضن الآب، هو الذي كشف عنه302.

فممّا جاء عن الكلمة ويستدعي مناقشة عقلية حولها:

في البدء كان الكلمة.

والكلمة كان مع الله.

وكان الكلمة هو الله.

هو كان في البدء مع الله.

ثم في عملية الخلق:

به تكوّن كل شيء.

302 إنجيل يوحنا من كتاب لحياة الإنجيل، ص 133.

وبغيره لم يتكوّن شيء ممّا تكوّن.

فيه كانت الحياة.

والحياة هذه كانت النور للبشر.

والنور يضيء في الظلام، والظلام لم يدرك النور.

ونتساءل؟

من الله في كلام يوحنا؟

الكلمة

ابن الله

الله

ومن الخالق الكلمة الذي كان في البدء؟

هل الكلمة خالق؟

أم الكلمة مخلوق؟

وإن كان الكلمة خالق هل خلق نفسه!

وإن كان مخلوق... هل المخلوق يعبد؟

هو كان في البدء مع الله!! والكلمة كان في البدء.

إذن هما اثنان!!

فكيف أصبح الاثنان واحد؟

أيهما حلّ في الآخر؟

أيهما اتحد بالثاني؟

وما كان قبل البدء؟

الله؟

أم الكلمة؟

وإذا اعترفنا ببدء للكلمة الذي هو الله، نتساءل

أليس البدء زمنا؟

فمن جعل البدء بدءا؟

أهو الكلمة الذي كان في البدء؟

أهو الله الذي خلق الكلمة؟

أهو الكلمة الذي كان مع الله؟

فإن كان الكلمة الذي كان في البدء فمن كونه ليكون في البدء فيقال عنه "كان في البدء مع الله".

ومن جعل البدء بدءا ليكون فيه الكلمة.

بالقطع بهذا المنطق ليست الكلمة الله.

وليست عيسى لأنّ الكلمة لم يخلق نفسه.

ولو كان خالقا لنفسه لما كان الله لأن الله خالق غير مخلوق أزلي غير حادث.

فإنّ تحدد بدؤه لانتفت أزليته.

وإن انتفت أزليته لثبت حدوثه.

ولو ثبت حدوثه لثبت خلقه من خالق.

ووجب عبادة الخالق وليس المخلوق.

أهو الله الذي خلق الكلمة؟

فإن ثبت ذلك لكان الكلمة غير الله، وحينها يثبت أن الكلمة ليس هو الله لأنّه حادث.

وانتفي أنّه مع الله لأنّه لا يستوي الخالق (الله) مع المخلوق (الكلمة).

وإن ثبت ذلك ثبت فساد كل ما قيل عن الكلمة بالمنطق والعقل.

وعليه يثبت:

أنّ الكلمة ليس مع الله.

أنّ الكلمة ليس هو الله.

أنّ الكلمة ليس هو الخالق.

أنّ الكلمة والله ليسا واحدا لا قبل الكلمة في البدء ولا بعدها.

الكلمة مخلوق من خلق الله.

الخالق لا يتحد ولا يحل بالمخلوق.

المخلوق لا يعبد البتة.

المعبود هو الخالق المبدع.

وعليه نقول:

إنّ ما قيل في الإنجيل عن الكلمة هو من باب المغالاة في عيسى صلّى الله عليه وسلّم الذي ثبت في الإنجيل ذاته وغيره من الأناجيل إنّه ابن الإنسان، والحقّوه بنسب بشري صريح عن طريق الأب البشري وليس عن طريق الأم وهذه طامة أخرى فقالوا كما ورد في الإنجيل "المسيح ابن داود ابن إبراهيم: إبراهيم أنجب إسحاق.... إلى يعقوب الذي أنجب يوسف الذي هو رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح"[303].

وكذلك في إنجيل بطرس ومرقس باختلاف في النسب قليلا، ولكنه نسب إنساني يبدأ من سيدنا إبراهيم إلى يوسف النجار.

وفي إنجيل لوقا يرفع النسب الإنساني ليبقى ما دار عن الكلمة.

متغاضيا عن كونه ابن مريم.

ونتساءل: هل النسب الأبوي البشري المذكور عن سيدنا (عيسى ابن مريم عبد الله) في الإنجيل متصل بنسب مع الله؟

لأنّه لو ثبت ذلك النسب إلى إبراهيم عليه والصّلاة لكان من الأولى أن يكون إبراهيم هو ابن الله الأوّل، ثم من جاءوا بعده من إسحاق إلى سيدنا عيسى صلّى الله عليه وسلّم.

وبهذا، يكون عيسى حفيدا وليس ابنا.

على هذا تثبت نتيجة (أنّ عيسى هو آخر السلالة الإلهية) ويكون قد انقطعت هذه السلالة بصلب المسيح حسب معتقدهم!

---

[303] إنجيل متّى، ص 1.

وكان من باب أولى أيضا أن يعبد مع عيسى غيره من آبائه بدء من إبراهيم إلى يوسف النجار أو العكس بنص النسب المثبت له في الإنجيل.

ولسنا الآن في مجال مناقشة ذلك ولكن في مجال (الكلمة) والغلو في عيسى نبي الله كلمته التي ألقاها إلى مريم.

يقول الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرّبونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ ربّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}[304].

فهذه الكلمة التي قالوها ليست عن علم بل عن كبر، فقد كبرت في أفواههم ولم يرجعوا عنها لذلك الله أنذرهم فقال تعالى: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}[305].

---

[304] النساء 171-175.

[305] الكهف 5.

الكلمة والروح:

نقول: يا أهل الكتاب من النصارى لا تغلوا في دينكم ولا تفرطوا في تعظيم المسيح ولا تكونوا على كاليهود الذين يبالغون في الطعن في المسيح، (وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحقّ)، ولا تصفوا الله بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان أو روحه، ونزهوه عن هذه الأحوال والأقوال التي لا تليق به.

فالحقّ هو أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وعبده وأما قوله (وَكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مّنْهُ). فهو إبداع الله في خلقه فالكلمة في قوله تعالى: {إِنَّ الله يُبَشّرُكِ بِكَلِمَةٍ مّنْهُ اسمه المسيح}306، خلق منه بأمره كن فكان فالمسيح الذي وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}307، فإنّ إبداع الله في كلماته وكلماته لا نهاية لها، فالكلمة عنده جلّ وعلا نعمة لمن أراد أن ينعم عليه ونقمة لمن أراد أن تحل عليه النقمة، وخلقا لمن أراد أن يخلقه، وعدما لمن أراده أن يكون عدما، وهذا من إبداع الله الخالق، فإبداعه في قوله، وقوله في كلمته (كن)، و(كن) كلمة واحدة فيها القدرة المطلقة والابدّاع المطلق، ومن إبداعه في الخلق أنّ خلق المسيح ابن مريم دون أب وسماه كلمة لأنه كان أمرا عجيبا وخلقا بديعا لوجوده من غير أب، قال الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ

---

306 آل عمران 45.

307 آل عمران 59.

سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا} 308.

وكلمته ألقاها إلى مريم، وليس عن طريق الملك الذي بشرها بعيسى.

وبقول الملك الذي يدَّعون إنه جبريل الذي نفخ فيها وكلام الله واضح (الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)، بغير واسطة.

ويترتب على ذلك نسف الادعاء بالثالوث (الأب والابن والروح القدس إله واحد آمين).

وهنا من المغالطة التي تثير العقل!

الابن هنا سبق الروح القدس.

ومن المنطق أن يسبق الأب الروح القدس لأنه كما: "قالوا مريم حبلى منه"، أما يسوع المسيح فقد كانت ولادته هكذا: كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف، وقبل أن يجتمعا معا، وجدت حبلى من الروح القدس"309.

وإن كان الأب هو الله في معتقدهم فهل يحتاج الأب إلى الروح القدس.

فإن ثبت ذلك كان هذا الأب محتاجا والاحتياج نقص والناقص لا يعبد.

---

308 النساء 171.

309 إنجيل متّى، ص 2.

وعليه فما يقولونه ليس له علاقة بالله الواحد الأحد الخالق المبدع الذي لا يحتاج لأحد، ويمكن رد هذا الكلام لعقائد أخرى غير عقيدة أهل الكتاب الموحى به من الله على أنبيائه ورسله، هي عقيدة تجمع بين الوثنية وتوالد الآلهة وتعددها كما عند اليونان والرومان،

وما جاء عن النور والظلام فهو واضح إنه متأثر بالمجوسية حيث يوجد إلهان غله للنور وإله للظلام.... وغير ذلك في المانوية والزرادشتية، ممّا له أثر في عقيدة النصارى الذين جاءوا من بعد المسيح.

لذا؛ فالكلمة التي ألقاها الله على مريم هي أمره (كن) فكان عيسى بالقدرة لا باتصال ولا بواسطة ملك (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ).

عليه تنتفي فكرة الثالوث.

والمغالاة في الدين دفعت البعض من أهل الكتاب إلى الافتراء على الله البديع بقولهم:

- إنّ المسيح ابن الله.
- أو هو الله متجسد في صورة المسيح.
- وأنّ الله ثالث ثلاثة.

تعالى الله على ذلك الإفك علوا كبيرا، فهو يحذرهم من هذا القول الكاذب، فالله واحد أحد ليس له والد ولا ولد ولا زوجة لأنّه الغني بذاته عن ذلك، وهو الغني الحميد وهو واجد الخلق بديع السماوات والأرض وكل من في الأرض عباد لله طوعا وكرها، والمسيح وأمه مريم من خلقه وإبداعه، فأمه مريم بالخلق اتصالا نكاحا من والدين.

وعيسى بالإبداع لا عن مثال في الخلق متشابه تمام التشابه بالأمر بالكلمة التي لا يملكها إلا الله.

لذلك، كان الخطاب: يا أهل الكتاب من النصارى لا تغلوا في دينكم ولا تسرفوا غلوا في تعظيم المسيح، وهذا الغلو في المسح باعتقاد منكم أن ذلك قد يرضي المسيح وهو عبد الله وإبداعٌ من إبداعه إبداعٌ بالكلمة التي هي مظهر من مظاهر القدرة المطلقة التي لا يملكها إلا البديع المطلق، فعيسى صلّى الله عليه وسلّم إبداع وخلق من خلق الله وهو كآدم صلّى الله عليه وسلّم إبداع قبل أن يكون ذرية له عن اتصال، لذا يؤكد الله للنصارى الذين يبالغون في تعظيم المسيح صلّى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: (لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ)، بأن تجعلوه إله، أو ابن إله، أو الكلمة الخالقة، وأن يكون الله في حد ذاته كلمة وغير ذلك ممّا قدّمنا له، فهذا وغيره لا يرضي المسيح لأنه لن يستنكف عن عبادة الله وحده.

لكن الغلو غض بصيرتهم عن معنى من معاني الابدّاع الرّباني في عيسى صلّى الله عليه وسلّم فأرشدهم الله إلى طريق الحقّ، وأخبرهم في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وعبده وأما قوله (وَكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ)، فالكلمة: كانت بشرى لتهيئة مريم لقبول الأمر وتحمله بعد ذلك عند حدوثه، قال الله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ}310، وأمّا قوله تعالى: (بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ) منه لا من غيره لا بواسطة ملك، وهي كلمة من خلقه، وما يترتب على هذه الكلمة فهو

[310] آل عمران 45-46.

مخلوق بالكلمة فهي قوله: (كُنْ) وكن حرفان مشتملان على القدرة الإلهية التي لا تحتاج إلى سبب من الأسباب المتعارف عليها.

لذا، فقد كان السبب المعتاد الظاهر في الولادة مفقودا في حقّ سيدنا عيسى عليه والصّلاة السّلام وهو عدم وجود الأب الذي هو السبب في حمل الأم، وعدم وجود السبب لا يمنع قدرة الله من الإيجاد والابدّاع لأنه الواجد المسبب الأسباب الذي لا يحتاج لمسبب لأسبابه، فهنا كانت الإحالة للقدرة الابدّاعية إلى الكلمة، ومن هذه الحالة الابدّاعية كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم مظهر من مظاهر الكلمة، لذا فقد أطلق الله عليه (كلمة) وهو أحد مظاهرها، ولا غرابة في ذلك فإن اللغة تبيح تلك الإحالة فيطلق على الإنسان الكريم (الكرم) وعلى العادل (العدل) لأنّه سبب ظهور العدل، ولنتذكر قول الخنساء ترثي أخاها صخراَ وتصفه بالندى، "الجود" و"الكرم" وأنّه صاحب "المجد":

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا

طويل النجاد رفيع العماد ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا

فنال الذي فوق لأيديهم من المجد ثم مضى مصعدا

يحمله القوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوي إلى بيته يرى أفضل المجد أن يحمدا

وإن ذكر المجد ألفيته... تأزر بالمجد ثم ارتدى[311].

[311] الأغاني، ج 4، ص 157.

فلأنّ صخرا كان مظهرا من مظاهر الجود والكرم والمجد فقد أطلقت عليه الخنساء إنّه الندى والمجد، فكذلك كان عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وسلّم سببا لظهور كلام الله وإبداعه، وبسبب إظهار الله على يديه من الخوارق التي تؤهله ليطلق عليه كلمة الله والتي هو نفسه من مظاهرها.

وإبداع الله لعيسى صلّى الله عليه وسلّم من غير نطفة الأب ممكن في حقّ الله لأنه المبدع الخالق، ومثل آدم لابدّ أن يكون حاضرا في ذهن القارئ من أهل الكتاب، ولهذا فالله البديع الخالق القادر، قادر على الممكنات بأسرها، وغير الممكنات بالنسبة للبشر التي توجد إبداعا على غير مثال وبلا سبب.

لهذا، كان سبحانه وتعالى قادرا على إيجاد عيسى إبداعا لا من نطفة الأب، وهذا ثابت لأنه في الإمكان الإلهي، مع كونه غير ثابت في الإمكان البشري.

وعليه فلا يجب قياس النسبي الإنساني بالمطلق الإلهي، وهذا النمط من الخلق فيه مظهر من مظاهر الابدّاع والإعجاز للنسبي الإنساني، وهذا يؤكد أن الله واحد أحد لا معبود بحقّ إلا هو.

فسبحانه الذي أوجد بالكلمة، وكان أمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}312.

---

312 آل عمران 59.

روح عيسى:

ووصف الله سبحانه وتعالى المسيح بالروح (وروح منه) فذلك لطهارته ولأنه لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من النفخة الإلهية مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}313، لأنّ الروح لا تمنعها حواجز فأنَّ تنفخ تتحقّق الحياة.

وقوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}314.

وظاهر الآية إنّ النفخ بقدرة الله لا بواسطة جبريل كما جاء في كتب التفاسير وكما يوافق ما عند النصارى (ويأتي تفصيل النفخ كما بيناه عند آدم صلّى الله عليه وسلّم).

فروح منه هو عيسى لا خلاف في ذلك، كما في قوله تعالى: (وروح منه).

والروح التي أرسلها الله على مريم فيها أراء واحتمالات:

هل هي روح عيسى؟

أم الملك؟

ومن الذي تمثل لها بشرا سويا؟

{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ

313 الأنبياء 91.

314 التحريم 12.

مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[315].

نحن نرى احتمالا أنّ الذي تمثل لها بشرا سويا هو روح عيسى وليس روح الملك، لأنّ الحوار من أوّل الآيات إلى نهايتها بين متحاورين اثنين لا ثالث لهما، فقد قال أنا رسول ربّك ولم يقل أنا ملك من عند الله، وعيسى رسول الله.

فقوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه).

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ.

رَسُولُ اللَّهِ.

وَكَلِمَتُهُ.

وَرُوحٌ منه.

فليس وجود لملك وإنما لعيسى ابن مريم.

الرّسول من الله.

الملقى إلى مريم كلمة.

وروح مخلوقة من الله.

[315] مريم 19-25.

فهو روح من الله، {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}316، والروح عيسى بشرها بأن الله سيهب لها غلاما بقراءة (ليهب) لا (لأهب) لأن الواهب الله.

وقد يتساءل القارئ:

لماذا الإلحاح على الرّبط بين الابدّاع الإلهي وبين الخلاف حول المسيح صلّى الله عليه وسلّم؟

والإجابة على هذا التساؤل تكمن في التمعن في الآيتين اللتين ورد فيهما الاسم "البديع" وهما:

1- {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}317.

2- {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}318.

والآيتان تناقشان قضية التوحيد وتركزان على أنّ الله الواحد مالك الملك من شرقه إلى غربّه، وحتى لا يتوهم البعض فيقول المشرق والمغربّ فقط فقد قال الله: (فأينما تولوا فتم وجه الله)؛ فملكه جميع الجهات وهو سبحانه يسع الجهات لأنه (واسع عليم).

[316] مريم 17.

[317] البقرة 115- 117.

[318] الأنعام 100 – 101.

ومن له ملك الجهات المعلومة وغير المعلومة له أيضا الحكم فيها وله وحده الحقّ في أن يتوجه إليه الخلق في هذه الجهات بتخصيصه بالعبادة، إلا أنّه قد افترى عليه بعض الضالين المضلين فنسبوا ملكه لغيره، وقالوا عليه كذبا وزورا (اتخذ الله ولدا) وهو المنزه عن ذلك وينزه الله سبحانه وتعالى نفسَه في خطابه للنبي الخاتم سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيقول ويقول معه كل من كان على طريق الحقّ: (سبحانه) هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ولهذا قد أنزل الله سورة عظيمة في الفرقان العظيم الذي يفرق بين الحقّ والباطل، فقال لنبي الحقّ نبي التوحيد: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}319، فله ملك السموات والأرض لأنه البديع المنشئ وليس له حاجة لزوجة أو ولد، لأنّ الحاجة منتفية البتة في صفات الله فهو الله الذي أنشأ السموات والأرض على غير مثال سبق فكيف يكون له ولد؟ كما يزعم الزاعمون بأنّ له زوجة وولد، وقد أنشأ وأبدع وخلق جميع الأشياء وفيها هؤلاء الذين اتخذوهم شركاء، وهو الله العالم بكل شيء يحصى عليهم ما يقولون وما يفعلون، وسيحاسبهم على قولهم وفعلهم.

فبالله كيف تجرأتم على هذا الكذب؟

هل أبصرتم الله؟

فتقولوا له زوجة من جنسكم أنتم وهو الغني عنكم وعن جنسكم؟

فهو {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}320.

319 الإخلاص 1-4.

320 الأنعام 101.

والقرآن عندما يدحض آراء الضالين ممن قالوا بأنّه له ولد – تعالى الله على ذلك علوا كبيرا– قال لهم كيف يكون له ولد وهو البديع، وضربّ مثلا بسيطا بأن له ملك السمات والأرض وليس بالتأكيد أن السماوات والأرض ملكه فقط فإن ملكه أوسع من أن يحاط بكلمات، إن السماوات السبع والأرضين السبع وما فيهما وما بينهما بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فكيف ببقية ملكه

قال جلت قدرته في محكم آياته: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[321]، فيقول الله تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ الذين قَالُوٓاْ إِنَّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ)، ومنهم من يدعي أنّ المسيح ليس هو الله ولكن حلت فيه روح الله وإن الله تعالى قد يحل في بدن إنسان معين، أو في روحه وإن جماعات من النصارى ذهبوا إلى هذا القول، بل هذا أقربّ ممّا يذهب إليه النصارى، وذلك لأنهم يقولون: أن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السّلام، فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتا أو صفة، فإن كان ذاتا فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى؛ فيكون عيسى هو الإله على هذا القول. وإن قال منهم لا، حلت فيه صفة الله من العلم الشامل والقدرة المطلقة لأنّ الأقنوم عبارة عن الصفة، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول لخلو الأوّل منها وهذا

[321] المائدة 15-17.

يستحيل في حقّ الذات الإلهية، ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى يلزم خلو ذات الله عن العلم حاشا لله وتعالى عن قولهم، لأن القاعدة البسيطة والتي تعد من البديهيات تقول: (من لم يكن عالما فهو جاهل).

وعليه: فلا يمكن تقبل الجهل في الإله المعبود، فحينئذ يكون الإله هو عيسى على قولهم لأنه قد تحلى بصفات الألوهية وهي بذلك نفيت عن الإله الأوحد فيثبت أنّ المبتدعين من النصارى وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول إلاّ أنّ اعتقادهم ليس إلاّ ذلك، ثم إنّه سبحانه وضّح فساد هذا الافتراء في الدين بقوله: (قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن في الأرض جَمِيعا)، وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط، بمعنى إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعا، فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن إرادته، ومن يملك من أفعال الله شيئا، ولديه القدرة المطلقة، ومن الذي يقدر على دفع شيء من أفعال الله تعالى ومنع شيء من مراده. وعيسى صلّى الله عليه وسلّم مشابه لمن في الأرض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال، فبهذا يجب التسليم بكونه تعالى خالقا للكل مدبرا للكل وخالقا لعيسى صلّى الله عليه وسلّم لأنّه بديع السموات والأرض، (وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا)، وهو سبحانه: (يَخْلُقُ مَا يَشَاء والله على كُلّ شيء قَدِير)، فيخلق ما يشاء كما يشاء فمرة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، والأخرى يخلق لا من الأب والأم كما في خلق آدم، ويخلق من الأم لا من الأب كما في حقّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم، ويخلق ما يشاء، فيعطي سيدنا عيسى صلّى الله عليه وسلّم تقدير صورة الطير من الطين والله تعالى يخلق فيه اللحم والدورة الدموية ويهبه الحياة،

والقدرة على التصوير معجزة لسيدنا عيسى صلّى الله عليه وسلّم، ويعطيه القدرة ليحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص معجزة له من عند اله لا امتلاكا لهذه الصفة حلولا واتحادا، ولا اعتراض على الله تعالى في شيء من أفعاله، فيهب من القدرات ما يشاء لمن يشاء.

ولهذا، ليس بغريب على المؤمنين به وموحديه أن تكون عقيدتهم إنّ الله جلت قدرته بديع لعيسى صلّى الله عليه وسلّم من غير أب.

والله لا مثيل له، وهو المنشئ المبدئ لكل شيء على غير مثال، وهو الواحد الأحد المستحقّ للعبادة وهو الواحد الذي يستحيل في حقّه الوَلَدُ لأنّ ذلك تبعيض وتجزئ، وهو منتف في حقّه التبعيض والتجزيء وهو الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا لأنّ هذا ينتفي في حقّه تعالى.

فمن جعل لله ولدا كمن جعل له شركاء من الجن والملائكة يدعونهم ويعبدونهم، والجن والملائكة خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الرّبوبية والألوهية شيء، فجعلوهم شركاء لله الخالق الآمر الناهي، وهو المنعم المتفضل بجميع أنواع النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون فكذبوا وافتروا على لله، بأنّ له بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بغير علم، وافترى عليه النقص، والله منزه عن قولهم. ولهذا، نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) فإنّه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فهو (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله ولا تتخيل أحسن منه ف (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ): كيف يكون لله الولد، وهو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا صاحبة ولا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلهم

في حاجة إليه في جميع أحوالهم، والولد لابدّ أن يكون من جنس والده؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه.

ونتساءل:

هل الولد خلق عالما آخر كما خلق الوالد؟

وهذا الخلق أين هو؟

وهل الولد له ولد؟

وله زوجة؟

معاذ الله وتعالى الله على ذلك علوا كبيرا، فالله هو الواحد المبدع لا عن مثال، مُوجِد العين لا على مِثْل، الذي ليس له شيء مِثله لذا وجب نفي المثل عن ذاته، ونفي المثال عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، والصمد الذي لا أَمَدَ يقطعه، والحقّ الذي لا وهم يصوِّره، والموجود الذي لا فهم يقدره. وإذا قضى أمرا فلا يعارض عليه مقدور، ولا ينفكُ من حكمه محظور[322]، وهو تعالى مبدع لكل ما سواه فاعل على الإطلاق، ولا شيء من الوالد يوجب ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فالله تعالى ليس بوالد[323]، لأنّ هذا نقص وحاجه والله منزه عن كل ذلك.

فالمسيح خلق من خلق الله.

كلمة من كلماته.

[322] تفسير القشيري، ج 1، ص 113.

[323] تفسير الألوسي، ج 1، ص 482.

وروح مخلوق من خلقه بكلمته من غير واسطة ألقاها كلمة إلى مريم.

وروح منه كروح آدم المخلوقة.

الروح بين آدم وعيسى:

نفخ الروح:

وهذا حقّ لأنّ الإنسان مركب من جسد ونفس وروح. وقوله تعالى: (ونفخت فيه من روحي) في حقّ آدم، وقال في حقّ عيسى {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ ربّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}324، وهذا يدفع إلى تساؤلات منها:

ما الروح المنفوخة؟

وما نفخت؟ ونفخنا؟

ولماذا استخدم اللفظ نفخ؟

وما دلالة كلمة نفخ؟

وما دلالتهما في صيغة الماضي؟

ألا يعني في صيغة الماضي الدليل على حدوث الفعل في المستقبل وهذا من قدرة الخالق جل في علاه، ودلالة على حصول ما لم يحصل بعد، وهنا أنزل الله الفعل الماضي بدل المضارع لأنه في زمن الله كل الزمان سواء لأنّه سبحانه خالق الزمن.

ثم نتساءل عن نفخت، ونفخنا؟

324

وماذا يشير اقترانها بتاء الفاعل مع آدم؟ ونا الفاعلين مع عيسى؟

أيعني امتلاء شيء قابل للامتلاء؟

أيعني استعداد لقبول النفخ؟

ألا تعني الإعداد (التسوية) لأدم من البدء لقبول النفخ؟ والكلمة المبشرة لمريم {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}325.

وعلى ماذا يدل (من روحي) وليس (روحي) مع آدم و(من روحنا) وليس روحنا مع عيسى؟

فنقول: نفخت كانت في خطاب الحضور، لأنّ الحضور مصدقون مؤمنون من جن وملائكة.

(ونفخنا فيه) فخطاب الغياب لأنّ المخاطبين ليسوا في حضرة النفخ، ونفخنا في عالم البشر لوجود كافرين يؤكد أنه كما كان النفخ في غيره كان النفخ فيه.

ونتساءل:

هل النفخ خروج ودخول؟

وما المنفوخ؟

وما طبيعته؟

هل النفخ حلول الروح واتحادها؟

هل الروح جزء في جزء؟

---

[325] آل عمران 45.

هل الروح مخلوق من الله ليكون الإنسان حيّا بها؟

أهي خلق مثل آدم وعيسى؟

أم ماذا تكون؟

بالطبع قد تكون واحدة من السوابق وقد تكون غير ذلك.

وسنتناول كل تساؤل في حينه ولكن علينا أن نرنو بدقة وتبصر في معنى (نفخ) التي جاءت نفخت ونفخنا.

وفي معنى الرّوح لغة، وفي علاقة نفخ بكلمات قريبة المعنى منها مثل بث، نفث.

مع التأكيد بأنّ علماء اللغة تناولوا معاني الكلمات بالمستوى الإنساني، قياسا ووصفا على البشر، وسياق الكلمة في الآية سياق إلهي، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن نسوي بين البشري والإلهي، لذا فعلينا أن نستشرف اللغة لنستبين ما قيل فيها.

ونؤكد أنّ النفخ الإلهي لا علاقة له بالفم مطلقا، لكنه نتعلق بأمر الكينونة، ولا يمكن تجسيد الأمر الإلهي، لذا فعلماء اللغة ربّطوا بين النفخ وبين الفم والشفتين وهذا نحن نرفضه.

ونؤكد أن النفخ من الروح ليس فيه أداة وليس له وسيلة بل فيه غاية وهي جعل آدم في مرحلة جديدة ليكون خليفة في الأرض، وجعل عيسى في رحم مريم.

النفخ لغة:

النفخ: بفتح فسكون مصدر نفخ، (إخراج الهواء من الفم بقوّة).

والنفخ في الصور: من مشاهد الآخرة، {ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد}326، وستكون ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث327.

يقول صاحب اللسان في معنى النفح" (نفخ) النَّفْخ معروف نَفَخ فيه فانْتَفَخ، نَفَخ بفمه يَنْفُخ نَفْخا إذا أَخرج منه الريح يكون ذلك في الاستراحة والمعالجة ونحوهما وفي الخَبر فإِذا هو مُغْتاظٌ يَنْفُخُ، ونَفخ النّار وغيرها ينفُخها نَفْخا ونَفِيخا"328.

وفي التنزيل: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}329.

وفي التنزيل: {فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}330.

ومن الكلمات ذات الصلة بنفخ (نفث) مع التأكيد أنها غيرها حتى على المستوى البشري. كذلك لكونها لم تستخدم في الخطاب الإلهي بالدلالة على الله سبحانه وتعالى، فهي ذات دلالات سلبية إيجابية، ومن المعلوم أنّ كل كلمة في اللغة ذات دلالة إيجابية إن استخدمت مع السياق الإلهي من مثل:

نفث في روعي بمعنى أوحى إلي.

ومن السياق السلبي.

النفاثات في العقد.

---

326 ق 20.

327 معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 484.

328 لسان العربّ، ج 3، ص 62.

329 الحاقة 13.

330 آل عمران 94.

الاستعاذة من نفث الشيطان.

أمّا الرُّوح بشكل عام فهي:

مجهولة من حيث كونها.

مجهولة من حيث خلقها.

مجهولة من حيث نفخها.

معلومة من حيث وجودها.

معلومة من حيث أنواعها.

معلومة من حيث ثبوتها في القرآن والسنة الصحيحة.

أمّا من حيث اللغة فقد قيل عنها:

"الرُّوحُ بالضّمّ "النّفْسُ، قال أَبو بكرٍ بنُ الأَنباريِّ: الرُّوح والنَّفْسُ واحدٌ غير أَنّ الرُّوح مذكَّر والنَّفْس مُؤَنَّثة عند العربّ[331].

وفي التنزيل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[332].

"وتأْوِيل الرُّوح أَنّه "ما بِه حَياةُ الأَنْفُسِ"، والأَكثرُ على عدم التعرّض لها لأَنّها معروفَةٌ ضرورَةً. وقال الفرَّاءُ: الرُّوحُ: هو الّذِي يعيش به الإِنسانُ لم يُخبِر اللهُ تعالى به أَحدا من خلْقه ولم يُعْط علْمَه العبادَ. قال: وسَمعت أَبا الهيثم يقول: الرُّوح إِنّما هو النَّفَس الّذي يَتنفَّسُه الإِنسانُ وهو جارٍ في جميع الجَسدِ فإِذا خَرجَ لم يتنفَّسْ بعْدَ خُروجه فإِذا تَمَّ خُرُوجُه بقِي بَصَرُه شاخِصا نَحْوَه حتَّى يُغَمَّضَ وهو بالفارِسيّة، وفي

[331] تاج العروس، ج 1، ص 1596.

[332] الإسراء 85،

الرَّوْض للسُّهَيْليّ: إنما أُنِّث لأَنّه في معنَى النَّفْس وهي لُغَة معروفَةٌ. وقال الزَّجاج: جاءَ في التفسير أَن الرُّوح: الوَحْيُ ويُسمَّى القُرْآنُ رُوحا. وقال ابن الأَعرابيّ: الرُّوحُ: القرآنُ والرَّوحُ: النَّفْسُ[333].

قال الفراء والرُّوح (هو الذي يعيش به الإِنسان) لم يخبر الله تعالى به أَحدا من خلقه ولم يُعْطِ عِلْمَه العباد.

قال وقوله عزّ وجلّ (ونَفَخْتُ فيه من رُوحي) (ومن روحنا) فهذا الذي نَفَخَه في آدم وفي عيسى وفينا لم يُعْطِ علمه أَحدا من عباده.

والرُّوحُ إنما هو (النَّفَسُ الذي يتنفسه الإِنسان وهو جارٍ في جميع الجسد فإِذا خرج لم يتنفس بعد خروجه فإِذا تَتامَّ خروجُه بقي بصره شاخصا نحوه حتى يُغَمَّضَ).

وقول الله عزّ وجلّ في قصة مريم عليها السّلام: (فأَرسلنا إِليها روحَنا فتمثل لها بَشَرا سَوِيّا) أَضافِ الله الروحَ المرْسَلَ إِلى مريم إِلى نَفْسه كما تقول أَرضُ الله وسماؤه وهكذا قوله تعالى للملائكة (فإِذا سوَّيته ونَفَخْتُ فيه من روحي)، ومثله (وكَلِمَتُه أَلقاها إِلى مريم ورُوحٌ منه)

والرُّوحُ في هذا كله خَلْق من خَلْق الله لم يعط علمه أَحدا وقوله تعالى: (يُلْقِي الرُّوحَ من أَمره على من يشاء من عباده).

قال الزجاج جاء في التفسير:

أَنّ الرُّوح الوَحْيُ

أَو أَمْرُ النبوّة

ويُسَمَّى القرآنُ روحا

---

[333] تاج العروس، ج 1، ص 1596.

الرُّوحُ الفَرَحُ

والرُّوح الأَمرُ

والرُّوح النَّفْسُ

وقوله عزّ وجلّ: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}334.

قال أَبو العباس: هذا كله معناه الوَحْيُ سمِّي رُوحا لأَنه حياة من موت الكفر فصار بحياته للناس كالرُّوح الذي يحيا به جسدُ الإِنسان.

قال ابن الأَثير وقد تكرر ذكر الرُّوح في الحديث كما تكرَّر في القرآن ووردت فيه على معان والغالب منها أَنّ المراد بالرُّوح الذي يقوم به الجسدُ وتكون به الحياة وقد أُطلق على القرآن والوحي والرحمة وعلى جبريل في قوله الرُّوحُ الأَمين قال: ورُوحُ القُدُس يذكَّر ويؤنث.

وفي الحديث تَحابُّوا بذكر الله ورُوحِه أَراد ما يحيا به الخلق ويهتدون فيكون حياة لكم وقيل أَراد أَمر النبوَّة وقيل هو القرآن وقوله تعالى: {يوم يَقُومُ الرُّوحُ والملائكةُ صَفّا}335.

ولا يقال لشيء من الخلق رُوحانيٌّ إِلا للأَرواح التي لا أَجساد لها مثل الملائكة والجن وما أَشبههما وأَما ذوات الأَجسام فلا يقال لهم رُوحانيون336.

ونقول:

---

334 غافر 15.

335 النبأ 38.

336 لسان العربّ، ج 2، ص 455.

هذه أراء مختلفة لأنّ الإنسان جسم به روح؛ فهو روحاني، وكل حي من الأحياء به روح فهو روحاني.

وعليه: فكل حي له جسم يرى أو لا يرى فهو روحاني.

لذا، نتساءل:

الملائكة روحانيون هذا صحيح.

ألا تنتفي عنهم الروحانية عند التمثل في صورة بشر؟

فإذا كانت الإجابة بالإثبات فما القول في قوله تعالى (فتمثل لها روحنا بشرا سويا)، أي في جسم معتدل مستو؟

فكان الأولى عدم القول بـ(بروحنا) ولكن لما أثبته الله كان الأولى عدم انتفاء الروحانية عن الملك المتمثل المتجسد في صورة إنسي له جسد سوي.

وإن كانت الإجابة بالنفي (نعم لا تنتفي)، فعليه يكون رأينا صحيح.

الجسمية لا تنفي الروحية.

وعدم الرؤية لا تنفي الروحية.

وعمد السماء (بغير عمد ترونها)

هل العمد هنا اللا مرئية روحية مثل الملائكة، أم جماد حي فيه روح من الله لا يعلمها إلا الله.

أم هي غير مرئية لها القدرة على التمثل على القول بأنّ اللا مرئي يتمثل؟

نقول: هي غير مرئية، وليس لها القدرة على التمثل لأن روحها خلق على هذه الكيفية.

وآدم روح ليس له القدرة على التمثل بغيره وكذلك عيسى بعد الميلاد وقبل الميلاد.

وليس له القدرة بألا يرى لأنّ روحه مختلف عن روح الملائكة، مع كون الروحين من أمر الله.

وعليه فالقول برأي واحد غير مجاز عندنا.

وننتقل الآن إلى ما قيل عن الروح في قوله تعالى: (من أمر ربّي):

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}337.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى:

للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها:

أنّ المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة338، والرازي يتفق مع رأي من أراء علماء اللغة في قوله ذلك ومع ما قيل تفسيرا، أمّا عن سبب نزول الآية ففيه نظر لأن الغالب في أذهان النّاس أن الروح علم مبهم حتى على النّبي صلّى الله عليه وسلّم.

وهنا نقول:

337 الكهف 85.

338 تفسير الرازي، ج 10، ص 115.

أن الإجابة (الروح من أمر ربّي) إجابة شافية مجملة في آية الكهف مفصلة في آيات أخر من مثل الحديث في القرآن عن:

الروح في ليلة القدر

والروح التي من أمر الله التي تتنزل بأمره على من يشاء

وعن روح آدم

وروح عيسى

وروح الله

والروح المنفوخة من الله

والروح المنفوخة من عيسى

والروح المنفوخة في طير إبراهيم

وروح ناقة صالح

وروح عصى موسى، وغير ذلك لذا، كانت الإجابة الشافية في كل تلك الأرواح (من أمر ربّي) كما أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم علمه الله ما لم يكن يعلم لقوله تعالى: {الرّحمن علم القرآن}[339]، علم من؟

علم النّبي صلّى الله عليه وسلّم.

كما أنّ القرآن الكريم فيه علم الأولين والآخرين فكيف لا يعلمه النّبي صلّى الله عليه وسلّم وهو المنزل عليه، وهم قد سألوا عن الكليات وهو صلّى الله عليه وسلّم أجاب عن الكليات لا عن الجزئيات المتنوعة.

---

[339] الرّحمن 1-2.

ولذا: نوافق الرازي في تناوله لسبب نزول الآية والرد على من أشاع لغطا في عقول النّاس، حيث يقول:

"روى أنّ اليهود قالوا لقريش اسألوا محمّدا عن ثلاث فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي: اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن هذه الثلاثة فقال عليه السّلام: غدا أخبركم ولم يقل إن شاء الله فانقطع عنه الوحي أربّعين يوما ثم نزل الوحي بعده: {وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَيء إِنّي فَاعِلٌ ذلك غَدا إِلاَّ أَن يَشَاء الله}[340]، ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى: {وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ ربِّى}[341]، وبيّن أنّ عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقّيقة الروح فقال: (وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلا) ومن النّاس من طعن في هذه الرواية من وجوه.

أولها: إنّ الروح ليس أعظم شأنا ولا أعلى مكانا من الله تعالى فإذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح.

وثانيها: إنّ اليهود قالوا: إنّ أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي وهذا كلام بعيد عن العقل لأن قصّة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ليست إلا حكاية من الحكايات وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلا على النبوة وأيضا فالحكاية التي يذكرها إما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته فإن كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها وإن كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية.

---

[340] الكهف 23، 24.

[341] الإسراء 85.

وأمّا عدم الجواب عن حقّيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلا على صحة النبوة.

وثالثها: إنّ مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين فلو قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إنّي لا أعرفها لأورث ذلك ما يوجب التحقّير والتنفير فإن الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقّير أي إنسان كان فكيف الرّسول الذي هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء.

ورابعها: إنّه تعالى قال في حقّه: {الرّحمن عَلَّمَ القرءان}342، {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيما}343، وقال: {وَقُل ربّ زِدْنِي عِلْما}344، وقال في صفة القرآن: {وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ في كتاب مُّبِينٍ}345.

وكان صلّى الله عليه وسلّم يقول: "أرنا الأشياء كما هي" فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول: أنا لا أعرف هذه المسألة مع أنّها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق بل المختار عندنا أنّهم سألوه عن الروح وأنه صلّى الله عليه وسلّم أجاب عنه على أحسن الوجوه وتقريره أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة.

أحدها: أن يقال ماهية الروح أهو متحيز أو حال في المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال في التحيز.

وثانيها؛ أن يقال الروح قديمة أو حادثة.

---

[342] الرّحمن 1، 2.

[343] النساء 113.

[344] طه 114.

[345] الأنعام 59.

وثالثها: أن يقال الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تفنى.

ورابعها: أن يقال ما حقّيقة سعادة الأرواح وشقاوتها.

وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة، وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح) ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سألوا أو عن غيرها إلا أنه تعالى ذكر له في الجواب عن هذا السؤال قوله: (قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ ربّي) وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التي ذكرناها إحداهما السؤال عن ماهية الروح والثانية عن قدمها وحدوثها.

أما المبحث الأول: فهم قالوا ما حقّيقة الروح وماهيته؟

أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط؟

أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب؟

أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام؟

أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض؟

فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض وذلك لأنّ هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر، وأما الروح فإنّه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله: {كُنْ فَيَكُونُ}[346]، فقالوا لم كان شيئا مغايرا لهذه الأجسام ولهذه الأعراض؟

فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة لهذا الجسد؟

---

[346] آل عمران 47.

ولا يلزم من عدم العلم بحقّيقته المخصوصة نفيه فإن أكثر حقّائق الأشياء وماهياتها مجهولة.

وثبت أن أكثر الماهيات والحقّائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها فكذلك ها هنا وهذا هو المراد من قوله: (وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلا).

وأمّا المبحث الثاني: فهو أن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل قال تعالى: {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}347، وقال: {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا}348، أي فعلنا، فقوله تعالى: (قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ ربّى) أي من فعل ربّي، وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه

هل الروح قديمة أو حادثة؟

فقال: بل هي حادثة وإنّما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله: (وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلا)، يعني: أنّ الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف فهي لا تزال تكون في التغيير من حال إلى حال وفي التبديل من نقصان إلى كمال والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث فقوله: (قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ ربّى) يدل على أنّهم سألوه أنّ الروح هل هي حادثة فأجاب بأنّها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه وهو المراد من قوله: (قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ ربّى) والله أعلم349.

ونحن نقول أنّ الروح من أمر الله.

وهنا نتساءل:

---

347 هود 97.

348 هود 66.

349 تفسير الرازي، ج 10، ص 116.

هل الروح المنفوخة في آدم وفي عيسى؟

هل هي روح آدم أو عيسى؟

أم إنّها روح الله لقوله (من روحي) (من روحنا) (روح منه)؟

وإن قلنا من الله، أهي (خلق أم بالفعل كن)؟

أم الاثنان معا؟

وآدم به أمر من أمر الله وكذلك عيسى، فما هذا الأمر؟

أهو خلق في خلق؟

أو أمر في خلق؟

أم ماذا؟

نحن نرى:

أنّ روح آدم منفوخة بأمر الله وروح عيسى منفوخة بأمر الله أيضا لأنّ آدم وعيسى هما من خلق الله وخلق الله مُحْدَثٌ، والمحدث ليس معبودا.

وبهذا ينتفي القول بالحلول والاتحاد لأنّه ينتفي حلول الأزلي المحْدِثُ في المخلوق المحْدَثُ.

وهذا عن روح آدم وعيسى فهما تختلفان عن بقية أنواع الروح المذكورة في القرآن الكريم، فروحهما تختلف تميزا لقوله تعالى: (ونفخت فيه) (ونفخنا فيها).

وتناولنا معني نفخت لغة، وقلنا إنّ المعاني اللغوية جميعها تخص المخلوق وليس الخالق وفيها من التجسيد ما يتنافى مع كمال الله وجلاله.

لذا، (نفخت فيه) (ونفخت فيها)، شيء مادي عن أمر إلهي جاء بالكلمة التي يعرفها العربّ لتقريب الصورة للمخاطب وجلاء المعنى للمتلقي.

بلا خروج نَـَفَس ولا ريح ولا قوّة ولا قوّة من قوّة، ولا حلول ولا اتحاد ولا فم ولا شفتين.

وروح المضافة إلى الله (روحي) تشريفا لآدم وروح منه لعيسى (كبيت الله، وناقة الله، وكل ما هو مضاف لله ينال تشريفا بالقدر الذي أراده الله)، وليست (من) تبعيضية ولكنها عن قدرة الله لا من التجزيئية، فهي بالأمر كن فكانت.

هذا عن روح عيسى وآدم، ولذلك؛ فإنّ أمر الروح من أمر ربّي مصداقا لقوله تعالى (قل الروح م أمر ربّي).

وبما قلناه ينتفي:

أنّ الله هو المسيح.

أنّ المسيح ابن الله.

وبذلك يبطل الثالوث لأنه بالمنطق يثبت وجود للروح القدس وينعدم وجود مريم وهذا ما يستدعي وجودا رابعا لمريم، وهذا ما ظهر عند البروتستانت الذين قالوا عن مريم هي الله وأنها هي التي تستحقّ العبادة.

نعود لقول الله في نفي التثليث:

قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا}350.

فلا تقولوا إنّ الله سبحانه واحد بالجوهر ثلاثة، فهم أثبتوا ذاتا موصوفة بصفات ثلاثة، سموها صفات فهي في الحقّيقة ذوات، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول في عيسى وفي مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل في الغير وأن تفارق ذلك الغير مرة أخرى فالله كان في رحم مريم وخرج منها ولم يخالف لاهوته، وهذا بالحلول والاتحاد، فهم يثبتون ذواتا متعددة قائمة بأنفسها حالة في بعضها متحدة بغيرها، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى: (وَلاَ تَقُولُواْ ثلاثة انتهوا) فهم يعددون الذوات لا الصفات.

ونحن نقول: الذات واحدة، والصفات تتعدد؛ فهو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السّلام العالم الحي القادر المريد، فهذا معناه ذات واحد وصفات متعددة ونفهم من كل واحد من هذه الصفات غير ما نفهمه من الصفة الأخرى، ولا معنى لتعدد الصفات إلا ذلك، فلو كان القول بتعدد الصفات كفرا لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث إنا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالما غير المفهوم من كونه تعالى قادرا أو حيا.

- ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، لأن النصارى يقولون: إن لله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، والدليل عليه قوله تعالى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

350 النساء 171.

وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}351، وذلك، لأنّ ذكر عيسى ومريم مع الله تعالى بهذه العبرة يوهم كونهما إلهين.

من البشرى إلى الكلمة إلى الإشارة:

قلنا إن عيسى كلمة من الله ألقاها على مريم عليها السّلام مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}352.

فما البشرى

ومن المبشر؟

ومن أبلغ البشرى؟

ومن المبشر؟

ومتى كانت البشرى؟

وهل تكررت البشرى؟

وما أنواع البشرى؟

وما دلالة البشرى؟

وما علاقة البشرى بالكلمة؟

وما هي الكلمة؟

وما أنواع الكلمة؟

---

[351] المائدة 116.

[352] آل عمران 45.

وما قيمة الكلمة؟

وما المطلوب تجاه الكلمة؟

نقول:

- البشرى الفرح.

- والبشرى الإخبار بشيء مفرح غير متوقع.

- والبشرى على سبيل التهكّم بالنّار للكافرين.

- والبشرى طلاقة الوجه واللقاء بوجه حسن.

- وما يعطيه المبَشّر للمبشِّر.

- البشرى تسبق حدوث الفعل.

- البشرى لابدّ أنّها ستأتي.

فما هي بشرى مريم؟

وكما جاء في كتب اللغة:

البشرى:

"بَشَرْتُه فَأَبْشَرَ واسْتَبْشَر وتَبشَّرَ وبَشِرَ فَرِحَ وفي التنزيل العزيز: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}353، وفيه أَيضا، {وَأَبْشِرُوا بِالجنّة الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}354، وقوله تعالى: {يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ}355.

353 التوبة 111.

354 فصلت 30.

355 يوسف 19.

والبِشارَةُ المطْلَقَةُ لا تكون إلاَّ بالخير وهي من الله وإنما تكون بالشر (بمفهوم البشر) إذا كانت مقيدة كقوله تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}356.

وبشرى الكفار بالنّار شر للكفار وفرح للمؤمنين لأنها تفرح المؤمنين لأنه يروا جزاء الكافرين في النّار وصدق وعد الله.

البِشارَةُ والبُشارَةُ بالكسر والضم يقال: بَشَرْتُه بمولود فَأَبْشَرَ إِبْشارا أَي سُرَّ، وأَتاني أَمْرٌ بَشِرْتُ به أَي سُرِرْتُ به، وبَشَرَني فلانٌ بوجه حَسَنٍ أَي لقيني وهو حَسَنُ البِشْرِ بالكسر أَي طَلَقُ الوجه، والبِشارَةُ ما بُشِّرْتَ به، والبُشارة أَيضا ما يعطاه المبَشِّرُ بالأَمر وفي حديث توبة كعب: "إذ سمعت نداء من ذروة سلع: أن أبشر يا كعب بن مالك! فخررت ساجدا، وعرفت أن الله قد جاءنا بالفرح، ثم جاء رجل يركض على فرس يبشرني، فكان الصوت أسرع من فرسه، فأعطيته ثوبي بشارة، ولبست ثوبين آخرين فأَعطيته ثوبي بُشارَةً"357.

البشارة بالضم ما يعطى البشير كالعُمَالَةِ للعامل وبالكسر الاسم لأَنها تُظْهِرُ طَلاقَةَ الإِنسان والبشير المبَشِّرُ الذي يُبَشِّرُ القوم بأَمر خير أَو شرٍ وهم يتباشرون بذلك الأَمر أَي يُبَشرُ بعضهم بعضا.

وقوله عزّ وجلّ: (إن الله يُبَشِّرُكِ)، قال الفرّاء: كأَن المشدّد منه على بِشاراتِ البُشَرَاء، وكأَن المخفف من وجه الإِفْراحِ والسُّرُورِ، ومعنى يَبْشُرُك ويُبَشِّرُك من البِشارة قال وأَصل هذا كله أَن بَشَرَةَ الإِنسان

356 آل عمران 21.

357 مصنف عبد الرزاق، ج 5، ص 404.

تنبسط عند السرور ومن هذا قولهم فلان يلقاني بِبِشْرٍ أَي بوجه مُنْبَسِطٍ[358].

وعلى ما تقدّم فالبشرى فرح وسرور لمريم صلّى الله عليها وسلّم لأنّه من الله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)، فالملائكة قالت لمريم وليس ملاك واحد هو جبريل ولكن جمع من الملائكة، فالملائكة قائلة:

"يا مريم" بخطاب مباشر منها وبجمع من الملائكة ويترتب على ذلك:

- أنّ مريم سمعت الملائكة بالأذن.
- قول الملائكة كلام وقول وليس وحي وإلقاء في الروع.
- مريم تفهمه وأدركت ما سيترتب عليه.
- الله هو المبشِّرُ.
- الملائكة حاملة للبشرى.
- المبشرة مريم بواسطة الملائكة.
- البشارة كلمة.
- الكلمة اسمه المسيح عيسى ابن مريم.
- صفته (وجيها في الدنيا).
- ووجيها في الآخرة.

[358] لسان العربّ، ج 4، ص 59.

-ومن المقرّبين في الدنيا.

- ومن المقرّبين في الآخرة.

فالبشرى كلمة، والكلمة مخلوق من عند الله باسم لم يسمى قبل ذلك.

ونسبه يرجع لأمه ويقف عندها.

وصفته وجيها.

المسيح:

اسمه المسيح:

وهذا الاسم يتفق عليه القرآن والإنجيل لقول الله تعالى في القرآن الكريم: (اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)، أمّا في الإنجيل سنرى الآتي:

الاتفاق حول أسم المسيح

الاختلاف حول:

اسم عيسى

نسب عيسى

في إنجيل متى نص هو: "هذا سجل نسب يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم. إبراهيم أنجب إسحاق. وإسحاق أنجب يعقوب. ويعقوب أنجب يهوذا وإخوته ويهوذا أنحب فارض ورزاح من ثامار. وفارض أنجب حصرون. وحصرون أنجب أرام. وأرام أنجب عمينا، وتان أنجب

يعقوب ويعقوب أنجب يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح"359.

الاتفاق بين القرآن والإنجيل:

- في الإنجيل نجد لفظة المسيح، وكذلك في القرآن (المسيح).

- المسيح في الإنجيل جاء بعد الاسم يسوع، المسيح في القرآن جاء قبل عيسى.

- لفظة (ابن) في القرآن (المسيح عيسى ابن مريم)، وفي الإنجيل (لم يوجد ابن مريم).

- الاسم في القرآن بشرى من الله لمريم عن طريق الملائكة، والأمر يختلف عند النصارى فالمبشر بأن يتولى تسميته (يوسف رجل مريم) كما يدعون في أناجيلهم.

- القرآن يعوّل على دور مريم، والإنجيل يعوّل على دور يوسف رجل مريم في البشارة والتسمية.

- في القرآن يقول الله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

- في الإنجيل:

- ميلاد يسوع المسيح

أمّا يسوع المسيح فقد تمت ولادته هكذا. كانت أمه مخطوبة ليوسف؛ وقبل أن يجتمعا معا، وجدت حبلى من الروح القدس. وإذ

---

[359] إنجيل متى، ص 1.

كان يوسف خطيبها بارا، ولم يرد أن يشهّر بها، قرر أن يتركها سرا. وبينما كان يفكر في الأمر، إذ ملاك من الرّب قد ظهر له في حلم يقول: "يا يوسف بن داود! لا تخف أن تأتي بمريم عروسك إلى بيتك، لن الذي هي حبلى منه إنما هو الروح القدس. فستلد ابنا، وأنت تسميه يسوع، لأنه هو الذي يخلص شعبه من خطاياهم".

حدث هذا كله ليتم ما قاله الرّب بلسان النّبي القائل: "عن العذراء تحبل، وتلد ابنا، ويدعى عمّا نويل! "أي "الله معنا".

لما نهض يوسف من نومه، فعل ما أمره به الملاك الذي من الرّب؛ فأتى بعروسه إلى بيته. ولكنه لم يدخل عليها حتى ولدت ابنا، فسماه يسوع[360].

-في نص الإنجيل الأمر ليوسف وليس لمريم وكأنها غير معنية بالأمر.

- أمّا في القرآن فإن الشارة لمريم عن طريق الملائكة يقظة وليست مناما: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

- نسب المسيح يبدأ من يوسف بن داود إلى إبراهيم نبي الله أو العكس.

-مريم حبلى من الروح القدس

- في القرآن مريم ستلد عيسى بالبشرى به ثم بأمر الله بالكلمة التي سيلقيها إليها، والكلمة أمر الله كن فيكون، {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}361.

---

[360] إنجيل متّى، ص 2.

فقدرة الله مطلقة ويرد سبحانه وتعالى على من يفتري على مريم وعلى المسيح وعلى الله بقوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}362.

- وفي القرآن البشارة لمريم.

- الروح القدس غير عيسى.

- الروح القدس ملاك من الله.

- في الإنجيل الروح القدس الذي حبلت مريم منه.

- الروح القدس هو المسيح "الحقّ أقول لكم: إن جميع الخطايا تغفر لبني البشر، حتى التجاديف التي يجدفونها. ولكن أي من يجدف على الروح القدس، فلا غفران له أبدا، إنه يقع تحت عقاب خطيئة أبدية. "ذلك لأنهم قالوا: "إنّ روحا نجسة يسكنه!"363.

ونتساءل:

مريم حبلى من الروح القدس!

فكيف يكون نسب عيسى لأبوين (يوسف بن داود ومريم بنص الإنجيل)؟

---

[361] النساء 171.

[362] البقرة 116-117.

[363] مرقس 54.

ثم نجد: "وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح364.

فهنا تبدو ثنائية النصارى في عقيدتهم عن الله (إن الله هو المسيح وهو الروح القدس).

فالروح القدس هو:

- الذي حبلت مريم منه.

- هو عيسى صلّى الله وسلّم.

وعليه: الأب والابن والروح القدس ثلاثة في واحد كما يدعون.

ونتساءل:

وهل الله يختن؟

وهل الروح القدس مادي؟

وهل الله له أبوين؟

ولماذا ظهر في زمن يسوع؟

لماذا لم يظهر في زمن أي نبي من الأنبياء؟

ولماذا ظهر في صورة بشرية؟

ولماذا لم يظهر في صورته التي يدعون إنه إله أو ابن إله؟

ولماذا هذا الاضطراب في الروح القدس ومعناه ومن هو؟

---

[364] لوقا 85-86.

لذا، سنتناول الروح القدس في القرآن: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}365.

- {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}366.

- {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}367.

- {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ ربّكَ بِالحقّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}368.

من الآيات التي نزلت في الروح القدس لا علاقة لهذا الروح بحبل مريم فهو لم يقتربّ منها، والمذكور قبل ذلك (فتمثل لها روحنا) ولم يكن (فتمثل لها الروح القدس).

فما الروح القدس؟

اختلفوا في الروح (القدس) على وجوه منها:

أحدها: أنه جبريل عليه السّلام وإنما سمي بذلك لوجوه.

[365] البقرة 87.

[366] البقرة 236.

[367] المائدة 110.

[368] النحل 102.

الأوّل: أنّ المراد من روح القدس الروح المقدسة كما يقال: حاتم الجود ورجل صدق فوصف جبريل بذلك تشريفا له وبيانا لعلو مرتبته عند الله تعالى.

الثاني: سمي جبريل عليه السّلام بذلك لأنّه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنّه هو المتولي لإنزال الوحي إلى الأنبياء والمكلفون في ذلك يحيون في دينهم.

الثالث: أنّ الغالب عليه الروحانية وكذلك سائر الملائكة غير أن روحانيته أتم وأكمل.

الرابع: سمي جبريل عليه السّلام روحا، لأنّه ما ضمته أصلاب الفحول وأرحام الأمهات.

وثانيها: المراد بروح القدس الإنجيل، كما قال في القرآن: {رُوحا مّنْ أَمْرِنَا}[369]، وسمي به لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنتظم لأجله. وثالثها: أنه الاسم الذي كان يحيي به عليه السّلام الموتى، عن ابن عباس وسعيد بن جبير، ورابعها: أنه الروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى فنسب روح عيسى عليه السّلام إلى نفسه تعظيما له وتشريفا، كما يقال: بيت الله وناقة الله، عن الرّبيع، وعلى هذا فالمراد به الروح الذي يحيا به الإنسان"[370].

واسم الروح القدس أطلق على:

جبريل

وعلى الإنجيل

[369] الشورى 52.

[370] الرازي، ج 9، ص 466.

وعلى الاسم الأعظم

وسمي كل واحد من هذه الثلاثة بالروح على سبيل التشبيه من حيث إن الروح كما أنه سبب لحياة الإنسان، فكذلك جبريل عليه السّلام سبب لحياة القلوب بالعلوم، والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها، والاسم الأعظم سبب لأن يتوسل به إلى تحصيل الأغراض إلا أن المشابهة بين مسمى الروح وبين جبريل أتم لوجوه:

أحدها: لأن جبريل عليه السّلام مخلوق من هواء نوراني، لطيف فكانت المشابهة أتم، فكان إطلاق اسم الروح على جبريل أولى.

وثانيها: أن هذه التسمية فيه أظهر منها فيما عداه.

وثالثها: أن قوله تعالى: (وأيدناه بِرُوحِ القدس)، يعني قويناه، والمراد من هذه التقوية الإعانة وإسناد الإعانة إلى جبريل عليه السّلام حقّيقة وإسنادها إلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز، فكان ذلك أولى.

ورابعها: وهو أنّ اختصاص عيسى بجبريل عليهما السّلام من أشد وجوه الاختصاص بحيث لم يكن لأحد من الأنبياء عليهم السّلام مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادتها وإنما ولد عيسى عليه السّلام من نفخة جبريل عليه السّلام وهو الذي ربّاه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد إلى السماء.

واعلم أن الله تعالى فسّر نعمته عليه بأمور: أولها: قوله (إِذَ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس) وفيه وجهان: الأول: روح القدس هو جبريل عليه السّلام، الروح جبريل والقدس هو الله تعالى، كأنه أضافه إلى نفسه تعظيما له[371].

[371] تفسير الرازي، ج 9، ص 466.

ولنا رأي في قول المفسر:

- فيما يخص البشرى وجدنا كثيرا من كتب التفاسير تقول: إن المبشر لمريم هو جبريل، ونقول:

نرجع للقرآن الكريم حيث نجد الحقّ أوضح من أن يلجأ إلى أية مصادر غيره يقول الله تعالى في مسألة البشارة: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِين).

(إذ قالت الملائكة) يدل على عدة أمور:

- القائل جمع وليس مفرد ولم يشر القرآن لا من قريب ولا من بعيد لجبريل أو غيره من الملائكة على سبيل التخصيص.

- الخطاب موجه لمريم بالتحديد في هذا الموقف عندما كفلها زكريا يقول الله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

- المبشر الله، وحامل البشارة الملائكة.

- المبشر من الملائكة اثنان في قصة عيسى:

الأوّل: زكريا.

الثاني: مريم.

ويبدو أن بشارة زكريا قبل بشارة مريم لأن يحي أكبر من عيسى عليهما السّلام، وهذا متفق عليه بين الإنجيل والقرآن.

وما يخص القرآن، قال الله تعالى في بشرى زكريا: {فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}372.

اللافت للنظر إن علاقة زكريا ومريم في المعبد، وكفالة زكريا لها، والرزق الذي كان يأتيها بغير حساب لم نجد له ذكر في الإنجيل.

بينما في القرآن هذه العلاقة واضحة، والتي سيؤسس عليها دعاء زكريا طلبا للرزق من نوع الولد حيث قد علم أن الله على كل شيء قدير فلما دعا الله حصلت بشارة الملائكة حيث يقول الله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ ربّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَار}373.

- هنالك في هذا المكان والزّمان بالتحديد أسرع زكريا ودعا الله: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

---

372 آل عمران 37.

373 آل عمران 38-41.

- هب لي ذرية لأنّه قد امتنعت أسباب كسب الذرية لقول الله تعالى في موقف سابق عن زكريا: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}374.

- فكان رزق زكريا الولد الذي امتنعت أسبابه الكسبية العقلية تمهيدا لرزق مريم بانقطاع أسبابه الكسبية العقلية.

- انتفاء وجود أية علاقة لروح القدس في رزق زكريا بالولد.

وهذا يدلل على أن الروح القدس له علاقة مباشرة مع عيسى وليس مع مريم حيث يقول الله تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}375، {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}376، {تِلْكَ الرّسُل

---

[374] مريم 1-11.

[375] البقرة 87.

[376] البقرة 253.

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}377.

ففي الآيات السابقة يتبن الآتي:

-الله أيد عيسى (وليس مريم) بروح القدس.

- روح القدس ليس له علاقة بمريم لا من قريب ولا من بعيد.

-روح القدس من تفضيل الله لعيسى واختصاصه به ليؤيده في معجزاته.

- روح القدس غير الملائكة التي بشرت زكريا ومريم عندما طلب رزق الولد مع علمه بانتفاء أسبابه لما رأى الرزق يأتي مريم بانتفاء أسبابه.

-روح القدس ليس هو الله.

- وليس هو عيسى.

- ويحتمل أن يكون أي ملك من الملائكة بما فيهم جبريل.

- لم يأت أي ذكر للروح القدس مع مريم.

وعليه:

- تنتفي المقولة النصرانية القائلة بالثالوث (الآب والابن والروح القدس)

لأنّه كما قلنا هناك خلط في الإنجيل حول الروح القدس فمرة قالوا هو الذي كانت مريم حبلى منه.

---

377 المائدة 110.

ومرة هو عيسى.

ومرة هو الله.

إذن فالبشارة كانت من الملائكة لزكريا ولمريم، وترتب على البشارة:

- كلام الله المباشر لزكريا دون واسطة ملك بطريقة الله أعلم بها (تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ).

والآية تشير بوضوح إن الله كلم عددا من الرّسُل وليس موسى وحده كما هو معروف لقول الله تعالى: (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ)، فعدد منهم غير معلوم ولا يعلمه إلا الله وهذا العدد لا يشير بشكل قطعي إلى واحد فقط مكلّم من الله.

كلام الله زكريا بعد البشارة، وكذلك مريم: (كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلّمَ النّاس ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا).

- (ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا).

فكان من زكريا نداء بأدب وحسن سؤال بصوت خافت بتضرع مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ ربّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ}378.

– فالنداء مسموع وهو بصوت خفي من باب التضرع فهو ليس أمنيه نفسية، (قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا).

قدم انتفاء الأسباب التي هي غير مقيدة لحصول ما يريده لأنّه يطلب من الله، وليس هناك شقاء لمن يطلب من الله.

– زكريا ليست لديه القدرة على الإنجاب، وامرأته معروفة لدى زكريا ولدى الجميع إنها عاقر.

– قال الله ردا على دعاء زكريا، ونعتقد أن هذا القول بعد بشارة الملائكة الأولى له إذ قال الله (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ ربّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)، وعليه نرجح:

– أن البشارة من الملائكة أولا (للتمهيد والتثبيت).

---

378 الأعراف 205.

-كلام الله مع زكريا ثانيا.

- تحقّيق البشارة ثالثا (لتهيئة النّاس لتلقي عيسى قياسا على معجزة الله لزكريا الذي انتفت عنده أسباب الذرية).

- الكلام مع الله وليس مع الملائكة.

وليس مع الروح القدس.

- الله قال ردا على زكريا (قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ).

(قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا).

الله قال (هو علي هين) والكلام ليس له علاقة بالملائكة ولا بالرّوح القدس.

- الله القادر يفعل ما يشاء وليس الملائكة ولا الروح القدس.

-بشارة زكريا وتحقّيقها تمهيد لتحقّيق بشارة الملائكة لمريم.

البشارة والكلام مع مريم العذراء:

- البشارة حملتها الملائكة لمريم حيث يقول الله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرّبِينَ).

ونلاحظ هنا:

- أنّ زكريا طلب الولد.

- زكريا دعا الله.

- وضّح أسباب طلبه للولد.

- مريم لم تطلب الولد.

- مريم لم تدع الله.

- مريم تقبل ما يختاره الله لها.

- مريم مصطفاة طاهرة من قبل ذلك.

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذ يختصمون إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

فكلام الملائكة مع مريم ليس مرة واحدة:

1. (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ).

2- (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ).

3- (قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

كما أنّ الاصطفاء مرتان:

- للخدمة في المحراب.

- لاصطفائها بكلام الله.

- ببشارة الملائكة.

- لأن تكون أم (لعيسى ابن مريم) بقدرة دون زوج.

- أن تلقت نوعا من العبادة مخصوص بها (القنوت لله–السجود – الركوع مع الراكعين).

تأكيد البشارة:

لما تلقت مريم البشارة من الملائكة توجهت لله لأنها قانتة له ساجدة له راكعة له مع الراكعين بقولها كما في القرآن الكريم:

{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}[379].

وهنا نتساءل:

من المخاطب مع مريم؟

من القائل؟

هل مريم رفضت البشارة؟

هل قبلتها؟

عما تساءلت؟

من الذي أجابها؟

[379] ريم 20، 21.

وما علاقة الإجابة عليها ببشارة زكريا؟

نقول:

إنّنا مع الاحتمال الذي يرى أن الخطاب كان بين الله ومريم بعد البشارة لأسباب منها:

- أنّ الملائكة التي بشرتها جمع وليت مفرد.

- الرد عليها بصيغة المفرد.

- المخاطب لمريم مفرد.

- الملائكة تحمل البشارة ولا تقدر على تنفيذها.

- (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آَيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا).

الأمر هين على من؟

على القادر المطلق (الله).

القادر على الجعل الله وليس جبريل أو الروح القدس.

الذي يقضي الأمر القادر عليه (الله).

أمّا ما ورد في بعض كتب التفسير فلنا عليه بعض الملاحظات.

(قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آَيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا).

قلنا: المبشر الملائكة وليس الروح القدس الذي مهمته تأييد عيسى، وبعض التفاسير ترى أن المبشر هو جبريل مع أنّ النص القرآني لا يشير إلى ذلك.

قال الرازي: "وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنّها إنّما تعجبت بما بشرها جبريل عليه السّلام لأنّها عرفت بالعادة أنّ الولادة لا تكون إلا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لابدّ من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك.

المسألة الثانية: لقائل أنّ يقول قولها: (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) يدخل تحته قولها: (وَلَمْ أَكُ بَغِيّا) فلماذا أعادتها وممّا يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قالت: (ربّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كذلك الله يَخْلُقُ مَا يَشَاء).

المسألة الرابعة: أنّ جبريل عليه السّلام أجابها بقوله: (قَالَ كذلك قَالَ ربّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)، وهو كقوله في آل عمران: (كذلك الله يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والمواد.

المسألة الخامسة: الكناية في: (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)، وفي قوله: (وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلْنَّاسِ) تحتمل وجهين:

الأوّل: أن تكون راجعة إلى الخلق أي أن خلقه علي هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ ولد من غير ذكر ورحمة منا بإظهار هذه الآيات

حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقربّ. الثاني: أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة أعلمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الأمر الغريب، فأما قوله تعالى: وَرَحْمَةً مِّنَّا فيحتمل أن يكون معطوفا على وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلنَّاسِ أي فعلنا ذلك: وَرَحْمَةً مِّنَّا فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفا على الآية أي: ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك"380.

والملاحظ في تفسير الرازي:

- الخلط بين الملائكة وبين جبريل.

- وبين جبريل وبين روح القدس.

- وبين فعل الله وبين دور الملائكة.

- وبين جعل الله ودور روح القدس.

وبعد فإن كل هذا يطرح تساؤلات منها:

- لماذا يريدون إلها غير الله؟

- هل قال بذلك واحد من الأنبياء الذين سبقوا عيسى؟

- هل الله يحتاج إلى واسطة؟

- هل الله يحتاج إلى ولد؟

- فما الدافع لاعتماد فكرة الوساطة؟

380 تفسير الرازي، ج 10، ص 287.

- وما الدافع للفرار من الله؟

- أليس الأصوب الفرار إلى الله؟ لا من الله؟

إنّ فكرة وجود إله واحد هي ما تستوي الفطرة التي فطر الله النّاس عليها لأنّه بالمنطق لا يستقيم وجود إلهين من حيث:

- استحالة الفكرة جوهرا وعرضا.

- فالجوهر لا يتعد، والذات الواحدة لا تنقسم فما بالنا بالذات الإلهية.

- المتعدد هو العرض المادي المتمثل المتجسّم والله ليس بجسم ولا عرض

- من اعتقدوا في ربّوبية غير الله ومثلوا ذلك في أشكال من مثل:

طير- حيوان- إنسان- كوكب لأنّهم أنزلوا الله (تعالى الله علوا كبيرا) عما يليق به، ولا هم ارتقوا بأوهامهم إلى ما فوق خلقت عليه.

لذا؛ فقد تعددت ألوان الشرك بالله من عبادة للنجوم، وللحيوانات (العجل، والبقرة) والأشخاص، ولكن الطامة الكبرى ادعاء بأن لله ولد.

فمتى بدأ هذا الإدّعاء، ولمن نسب؟ وإلى أي اتجاه اتجه؟

لا شك أنّ وجود فكرة ابن الإله متأصلة في عقائد كثيرة منها عقائد الفراعنة، حيث كان الحاكم ابن الإله (رع- آتون-آمون) وغير ذلك.

مع التأكيد على أن هذا الادعاء لم يكن بشكل فردي بمعنى عدم اقتصاره على فرد بعينه، بل بإسقاطه على كل حاكم من الحكام.

وقد يتعدى الأمر ذلك إلى ادعاء الألوهية بالكامل ومن مثل ذلك ما أشار إليه القرآن في آياته عن هذين النموذجين.

قال الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}381.

اليهود قالت عزير ابن الله تقليدا للأقوام الذين تعايشوا معهم في مصر وفي فلسطين بعد ذلك فهم قد استفادوا من مصر شكلا من أشكال الوثنية تمثلت في عبادة العجل وذلك بأنهم طلبوا من نبي الله موسى أن يجعل لهم آلهة، وأنهم قد عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربّه كما قال الله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}382.

فرفض موسى ما طلبه اليهود ولكنهم أصروا على كفرهم ففعلوا ما أرادوا لما ذهب موسى للقاء ربّه، يقول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}383.

---

381 التوبة 30-31.

382 الأعراف 138-140.

383 الأعراف 143-147.

- فلا شك أن اليهود والنصارى بفعلهم هذا وقولهم فهم لا يؤمنون بالله، وذلك بأنهم أثبتوا لله ابنا، وعبدوا من دونه.

- ومن جوز ذلك في حقّ الله فهو في الحقّيقة قد أنكر الله.

- أنهم في ذلك بمنزلة المشركين في الشرك.

- إن تعددت طرق القول بالشرك فلا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لأنه لا معنى للشرك إلا أن يتخذ الإنسان مع الله معبودا.

- بتحقّق هذه العقيدة لفظا وعملا فقد حصل الشرك.

ومن المؤكد أن من كفروا وعبدوا الأصنام أخفُّ من كفر النصارى، لأنّ ممن عبد الأصنام لم يقولوا إنّ هذا الصنم خالق العالم وإله العالم.

مصداقا لقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[384].

- {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[385].

فشرك الكافرين من الوثنيين يختلف شرك النصارى من حيث إنهم:

[384] العنكبوت 61-63.

[385] لقمان 25.

- يثبتون أن الله هو خالق العالم ومدبر الكون.

- إنّ هذه الأوثان مخلوقة.

- إنّ هذه الأوثان واسطة بينهم وبين الله.

مصداقا لقول الله تعالى حكاية عنهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَي}386.

- الوثنيون لا يثبتون حلولا ولا اتحادا من الله في هذه الأوثان.

- لا يدّعون إن هذه الأوثان أولادا لله.

أما النصارى فإنهم يدعون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح صريح يفوق كفر الوثنيين، فثبت أنه لا فرق بين النصارى الذين يعتقدون في الحلول والاتحاد وبين المشركين الذين قالوا بهذا، لهذا لا فرق بينهم وبين المشركين.

وثبت أن النصارى أنهم يقولون: المسيح ابن الله وذلك من كتبهم التي يعتقدون فيها إلى الآن.

ونحن نقطع أن المسيح صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه مبرؤون من دعوة النّاس إلى الأبوة والبنوة؟

وما تقدّم قليل من كثير عن المسيح عيسى ابن مريم عبد الله كما قال الله تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}387.

386 الزمر 3.

387 مريم 34-35.

عيسى بشرا رسولا:

بيّنا فيما سبق خلق عيسى بشرا من بشر، فقد خاضت به أمّه كما تخوض كل أم، وولدته كما ولد البشر كلهم باستثناء آدم.

وبقي أن نعرف عن سلوك عيسى الإنسان الرّسول لتوضح ملامح بشريته أكثر وصولا إلى مناقشة ادعاء بنوته أو ألوهيته فيما بعد.

بادئ ذي بدء نعتقد من المهم القول أنّنا ومع عيسى بالخصوص نواجه انحسارا معرفيا عند البعض يخص كينونته على وجه التحديد، حيث ذهب هؤلاء إلى وصف عيسى بما ليس فيه، فوصفوه بابن الله، ثم قالوا هو وأمّه إلهين بالمشاركة، وهذه الادعاءات كلها إنما هي محض جهل وضعف في آن واحد، يتمثل الجهل بانعدام المعرفة الحقّة بالكينونة الإلهية وهذا مهم جدا لان المدعين يعرفون عيسى لكنهم لا يعرفون الله حقّ معرفته، يقول الحقّ سبحانه مبينا ومعرفا العباد ببعض صفاته: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[388]، ثم بعد ذلك تأتي تعليلات مبينه لعلة الانعدام منها:

. انعدام الإرادة: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[389]، لو هنا حرف امتناع لامتناع أي أنّ الله لم يتخذ ولد ولم يرد اتخاذ الولد، والسياق على ذلك يبين انعدام الإرادة وذلك يرجع إلى حكمة لا نعرفها وأخرى يدلنا الله عليها بما دلنا عليه، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين أي أن حاجته

[388] الفرقان 1-2.

[389] الزمر 4.

إلى الولد منعدمة بكل الصور ومع كل الاحتمالات، كما أنّ مطلق القدرة للذات يرفض افتراض الولد لان مطلقية القدرة تعني: أنّ تحديد هذا الولد محال لاستحالة وجود مطلق آخر يرث المطلق الأوّل والأوحد لا في القدرة ولا في القوّة ولا في أي شيء آخر.

4. انعدام التكافؤ، لابدّ لحصول البنوة تبنيا لا ولادة، لانّ ذلك محال في حقّ الخالق الذي خلق كل شيء ثم هدى، لابدّ من حصول التكافؤ بين طرفي العلاقة وذلك محال في أصل الوضع، فالله الباقي جلّ وعلا تتضاءل أمام عظمته المخلوقات فأنّى لمخلوق أن يتعاظم عظمته، أو أن يرزق رزقه؟ أو أن يعدل عدله؟ أو أن يبطش بطشه؟

قال تعالى: {وَمَا يَنبَغِي للرّحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَدا إِن كُلُّ مَن في السموات والأرض إِلاَّ آتى الرّحمن عَبْدا مريم}[390]، أي هو محال، أمّا الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأما التبني فلأن الولد لابدّ وأن يكون شبيها بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولأنّ اتخاذ الولد إنّما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، والمراد أنّه ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة والنّاس إلا وهو يأتي الرّحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربّوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد[391].

3 . الامتناع للأحدية، الله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، صفات الكينونة لله عزّ وجلّ، واتخاذ الولد هو بالضد منها لان اتخاذ الولد يعني فيما يعني الاشتراك، والتعدد لان اتخاذ ولد يوجب أن يكون ولد آخر ثم آخر ثم آخر ولا مانع إذا تحقّقت الحالة الواحدة من تكراراها، وهذا يعني أن يكون ولد أول أكبر ثم من هو أصغر اقل

[390] مريم 92-93.

[391] تفسير الرازي، ج 10، ص 345.

وهكذا من تباين المستويات الذي يوجب ولا شك تعالى بعض على بعض؟

وعلى ما تقدم يتبين أن هؤلاء المدعين أنّما هم جهلة بالكينونة، ثم هم بعد ذلك ينطلقون في هذا الادعاء من ضعف، حيث يحاول الضعيف أن يتقوى بالآخر وذلك بادعاء عناصر قوّة جديدة إليه مع عدم حاجة الآخر إلى ذلك ن فالذين ادّعوا البنوة لعيسى يعتقدون متوهمين أنهم أضافوا إليه صلّى الله عليه وسلّم قوّة أخرى تجعل أفئدة النّاس تهوي إليه، وهذا محض ضعف لأنه كان الأولى بهم أن يبينوا للناس قوّة عيسى إيمانا وثباتا وهو يواجه كل ما واجه من كفر وإصرار عليه، وهم بهذا الادعاء يريدون أن يصرفوا النّاس عن نور الله الحقّ، إلى نور عبد مرسل مخلوق توهموا وساء ما كانوا يدعون، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[392]، فعيسى ولد بشرا واختير رسولا لمهمة مرحلة هي الوصل بين ما سبق وما سيأتي على الرّسول الخاتم محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

والحقّ أنّ عيسى ولد وهو يملك منطق الحوار وليس الكلام فحسب، فالكلام لغة واللغة تعتمد في الحوار على معرفة حدود المصطلحات والمفاهيم المستخدمة، أما منطق الحوار فانه يعمد إلى التعليل مرتكزا على ملكات التفكير وكيفية الإدراك الواعي بالمضمون. وهذا وصف دقيق لما نطق به عيسى صلّى الله عليه وسلّم من ولادته إلى أن رفعه الله إليه وهو يكشف عن بشريته ورسالته في آن واحد إذ يقول كما أخبر العليم الخبير سبحانه: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ

[392] الصف 8.

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}393.

وهذه الآيات فيها محاور هي:

1- إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، تبين الآية أن الله سبحانه اختار عيسى نبيا ورسلا، ولانّ الله لم يختر نبيا من الملائكة أو من الجن ليكون ليرسل للناس، وإنّما اختار لهم من جنسهم بشرا رسولا، ولو كان هناك من إرادة إرسال رسول للملائكة لكان من جنسهم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا}394.

2- قوله: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)، هذه الآية موضحة بشكل كبير لبشرية عيسى صلّى الله عليه وسلّم، وذلك بمنطق عرضه لشخصيته، فهذه الشخصية مطلوب منها والصّلاة والزكاة، أي مطلوب منها العبادة، فهل يعبد الإله نفسه؟ أي لو كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم إلها أيتوجب عليه والصّلاة لغيره وهو إله؟ ثم أ يتوجب عليه زكاة ويفترض أن يكون إلها رازقا؟ والحقّ أنّ ما من نبي كُلّف واعفي من العمل بمبادئ التشريع، حيث يكون القصد من وراء ذلك أمران:

أ- دلالة السوية في هذه الآية يأتي إقرار عيسى بالقيام بما هو واجب على كل مسلم مؤمن بالله من عمل تعبدي، والحقّ إن ذكر عيسى للصلاة والزكاة لم يكن على وجه الحصر بل على وجه الذكر

393 مريم 30-32.

394 الإسراء 94-95.

فعيسى وأتباعه مكلفون بما كلف به موسى من قبل، ومنها على سبيل المثال الصيام الذي ذكر على لسان الصديقة مريم في السورة بقوله تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}[395].

ب- الأسوة في هذه الآية يقدم عيسى صورة المؤمن الحقّ وهي دعوة للإتساء به في السلوك الإيماني لان النّبي المرسل هو أسوة إتباعه لذلك نعتقد أن الوصية بالصّلاة والزكاة لم تكن لعيسى وحده بل هي لعموم المؤمنين معه.

3 . فقوله: (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)، هنا يتجلى السلوك البشري السوي، سلوك المستخلفين في الأرض المتصفين بالمثل العليا التي يستمدونها من صفات خالقهم، فهو بر من اسم الله البر الذي يفيض بكل معاني الجمال التي يمكن أن ترد على الخاطر أو تخرج حروفا على لسان أكثر أهل الأرض لينا ورأفة ورحمة فكل هذا وغيره مشمول في اسمه البر الذي يدل على أن كل رحمة وعطف ولين ومحبة قد جمعت في (البر)، وهو الذي يلتجئ إليه عند كل حاجة أو شدة، وهو الذي يمد بالعون والمنفعة، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير. هذه هي بعض مديات دلالة اسم الله البر والتي اتصف بها عيسى صلّى الله عليه وسلّم وان كان التخصيص هنا ظهر للام فلأمرين:

الأوّل: لإثبات أن لأبّ له ولو كان له أب لصرح ببره له كما صرح ببره لوالدته.

---

[395] مريم 26.

الثاني: التخصيص هنا لا يعني الحصر بل هو ينبئ بنوع السلوك المبين للشخصية، فمن يبر بوالدته سيكون قادرا أو فاعلا للبر مع غيرها، لان السلوك السوي والقويم هو سلوك متنامي غير منقطع عند المتخلقين به لأنه يواجه بالرعاية والاهتمام والاحترام من المستقبلين لهذا السلوك فهو ينمو باحتضانهم له.

وهكذا بين عيسى بمنطقه طبيعته البشرية، وعندما أراد أن يبين رسالته استخدم منطق الحوار القائم على التعليل مصداقا لقوله تعالى:

1. {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[396].

2. (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ).

3. {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}[397].

لقد تحقّق لعيسى غاياته بمنطق الحوار الذي اختاره حيث تحقّق الآتي:

---

[396] الزخرف 63-64.

[397] آل عمران 49-50.

الاعتبار: يتحقّق الاعتبار عندما يختار المحاور الرئيسي أن يضع نفسه في حالة من المساواة مع الآخر[398]، وقد تجلى هذا الأمر في منطق عيسى صلّى الله عليه وسلّم عندما بين لهم أن جاء مصدقا لما معهم، ويلاحظ أن لفظة مصدق لها دلالة عميقة على اعتبار عيسى لعقيدة بني إسرائيل، فهو مصدق بشريعتهم لما فيها من صدق فاللفظة دالة ومعبرة عن اعتبار خاص من عيسى لعقيدة من يحاور.

التقدير، عيسى يعلم من علم الله طبيعية تكوين بني إسرائيل، ومع ذلك فإن حوار عيسى ترتب عليه تقدير لهذه الجماعة، إذ نستشعر نوع التقدير والأهمية التي أعطاها عيسى لطرف الحوار الآخر وذلك يتجلى في احترام فكرها عندما قال لهم مصداقا لقوله تعالى: (وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ)، هذه الآية معجزة كلها ولكن استخدام كلمة بعض فيه إعجاز خاص ينبئ بتقدير عيسى لبني إسرائيل فلو قال الذي تختلفون فيه من غير بعض لأوشك السياق أن يبدو أنهم مختلفون في كل شيء وفي هذا إلغاء كامل لفكر بني إسرائيل ولعقيدتهم. لكن بعض أعطت الاعتدال في التداخل مع الآخر ممّا يعطيه حيز من التقدير يؤسس لاستمرا الحوار بهذا المنطق.

الاعتراف: الاعتراف منطق التسليم بالحقّيقة وهو حاجة لكل إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي[399]، وهو أمر طلبه عيسى ليس لذاته بل لكونه رسولا فقال لهم داعيا وحاضا: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، ثم عندما استشعر عيسى انعدام الاعتراف ورفضهم له طلبه صريحا فقال: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

[398] عقيل حسين عقيل، منطق الحوار بين الأنا والآخر، ص 19.

[399] المصدر السابق، ص 20.

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}400، وقد تحصل لعيسى ولرسالته الاعتراف من الحواريين وبحصوله أصبح التفاعل بين الطرفيين ميسرا ممّا نتج عن ذلك تعمق في الفهم المشترك لطبيعة كل طرف، وليس أدل على ذلك من آية المائدة التي طلبها الحواريون وأجابهم عليها عيسى وفيها تفصيلات دقيقة سنعرض لها بإذن الله.

الثقة: لقد تحقّقت الثقة بين أطراف الحوار، ويتمثل ذلك بصدق الإتباع النسبي والاقتناع بالحجج والدلائل التي جاء بها منطق الحوار الذي اختاره عيسى صلّى الله عليه وسلّم للتبليغ، مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حقّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}401، والآية الكريمة تبين حصول الثقة الحقّيقية عند الصادقين وانتفائها عند الفاسقين.

رسالة عيسى:

يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرّسُل وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}402.

أنّ رسالة عيسى وبالرغم من كونها تمثل استمرارا للرسالات السابقة والقريبة ممّا سبق لان السياق القرآني استخدم لفظة قفينا

400 آل عمران 52.

401 الحديد 27.

402 البقرة 87.

للدلالة على قربّ الفترة الزمنية وكذلك تشير الآية إلى الفئة المستهدفة بالرّسالة، إلا أنّ عيسى احتاج البينات واحتاج إلى تأييد الله له بروح القدس، والنص كذلك قائم على ثنائية القبول والرفض ومبررات كل منها، فمقصد القبول تدعمه البينات، والبينة هي: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة403.

والتأييد الإلهي ليس لعلة في المقصد أو المبلغ أو المضمون، وإنما العلة في المبَلغ، لإصرار الرفض الذي بدا عليهم دون أن يحتمل هذا الإصرار مقومات تدعمه لكن تتضح فيه علة هي حكم الهوى، والإشارة الإلهية إلى أسباب الرفض تدعونا إلى الوقوف على حقّيقة حكم الهوى.

حكم الهوى هو بمثابة حكم عاطفي هوائي لا يستند إلى الحقّ أو المنطق وتشير الآيات الكريمة إلى نماذج من أحكام الهوى، يقول عز من قائل:

1- (أ فكلما جاءك رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون).

2- (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا).

3- (قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين).

4- (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله).

5- (ولو اتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن).

---

[403] مفردات ألفاظ القران الكريم، ج 1، ص 134.

6- (وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم).

وأنواع الهوى متعددة وموارده متشعبة وان كانت في مجموعها ترجع إلى هوى النفس وحب الذات، فهذا الهوى منبت كثير من الأخطاء وحشد من الانحرافات ولا يقع إنسان في شباكه حتى يزين له كل ما من شأنه الانحراف عن الحقّ والاسترسال في سبيل الضلال حتى يغدو الحقّ باطلا والباطل حقّا والعياذ بالله.

ومن نعم الله على عبده ورعايته سبحانه أن يكشف له عن مدى ارتباط مذاهبه وأفكاره ومعتقداته بهوى نفسه، قبل أن تهوي به في مزالق الضلال، حتى يضيء المولى سبحانه مشاعل الإيمان في قلبه فتكشف زيف تلك المذاهب أو الأفكار أو المعتقدات ذلك لانّ حسنها في نفسه لم يكن له وجود حقّيقي بل هو وجود ذهني أو خيالي أو صوري صوره الهوى وزينه في النفس ولو كان قبيحا في واقعه أو لا وجود له إلا في ذهن المبتلى به.

ولاكتشاف تأثير الهوى في فكرة ما طرق كثيرة: بعضها خارجي وبعضها ذاتي.

أ – فالطرق الخارجية لاكتشاف أن الهوى وراء الفكرة موضع الاختلاف أن تكون مناقضة لصريح الوحي من كتاب وسنة ولا ينتظر ممن يزعم في نفسه الحرص على الحقّ أن يلهث وراء فكرة تناقض كتاب الله وسنة نبيه صلّى الله عليه وسلّم.

وممّا يكشف كون الفكرة وليدة الهوى: تصادمها مع مقتضيات العقول السليمة التي يقبل النّاس الاحتكام إليها ففكرة تدعو إلى عبادة غير الله أو تحكيم غير شريعته في حياة النّاس وفكرة تدعو إلى إباحة

الزنا أو تزيين الكذب أو تحض على التبذير لا يمكن أن يكون لها مصدر غير الهوى ولا يدعو لها إلا من بيد الشيطان زمامه.

ب – أمّا الطرق الذاتية لاكتشاف ما إذا كان الهوى محضن الفكرة فتكون بنوع من التأمل والتدبر في مصدر تلك الفكرة ومساءلة النفس بصدق حول سبب تبنيها لتلك الفكرة دون غيرها، وما تأثير الظروف المحيطة بصاحب الفكرة ومدى ثباته عليها إن تبدلت؟ وهل هناك من ضغوط وجهت المسار دونما شعور؟ ثم الغوص في أعماق الفكرة نفسها، فان كانت قلقة غير ثابتة، تتذبذب بين القوّة والضعف تبعا لمشاعر معينة، فاعلم أنها وليدة الهوى ونزغ من الشيطان فاستعذ بالله السّميع العليم، واحمده على أن بصرك بالحقّيقة قبل أن يسلسل قيادك لهوى النفس404.

إنّ التضاد الحاصل بين البينة وما توجب من التسليم لأنّها الحجّة القاطعة وبين الهوى يفسر طبيعة الرفض الذي واجهه عيسى في دعوته. ومع ذلك خلت دعوة عيسى من الإكراه.

مضمون الدّعوة:

يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {تِلْكَ الرُّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}405.

---

404 أدب الاختلاف في الإسلام، طه، ج ابر فياض العلواني، ج 1، ص 1.

405 البقرة 253.

هذه الآية تشير إلى الرّسالة الواحدة رسالة لا إله إلا الله التي قال بها آدم عندما وطأت قدماه الأرض وبقية الأنبياء والرّسُل إلى أن ختم الله بها رسالات السماء بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم ثم هي بعد ذلك باقية بالمطلق لا إله إلا الله في الأرض وفي السماء فهي تمثل الثابت الباقي من المدلولات، أما المتغير فهو الإنسان الذي أعطي قرار إرادة الاختيار فآمن من أمن وكفر من كفر وهم في صراع بين الإيمان والكفر إلى أن يشاء الله.

كذلك ممّا يشار إليه في هذه الآيات وهو واضح جلي أن الله عزّ وجلّ خص عيسى بالذكر المخصوص فقال آتينا عيس ابن مريم بينما أشار إلى بقية الرّسُل إشارة تلميحية دون ذكر الاسم المباشر ولهذا ذلك يحتاج إلى بحث للوقوف على المنحى الإعجازي في الآية:

يتساءل المفسرون: لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ وهل يدلّ ذلك على أنّهما أفضل من غيرهما؟

والجواب: سبب التخصيص أن معجزاتهما أبرُّ وأقوى من معجزات غيرهما وأيضا فأمتهما موجودون حاضرون في هذا الزمان وأمم سائر الأنبياء ليسوا موجودين فتخصيصهما بالذكر تنبيه على الطعن في أمتهما، كأنه قيل: هذان الرّسولان مع علو درجتهما وكثرة معجزاتهما لم يحصل الانقياد من أمتهما، بل نازعوا وخالفوا[406].

ونقول:

أنّ ملمحا آخر في الآية يفسر هذا التخصيص لعيسى صلّى الله عليه وسلّم يمكن لنا القول به ويفسره السياق وهو أن عيسى صلّى الله عليه وسلّم من المفضلين وأن ذكر التأييد له من روح القدس فيه إشارة

[406] - تفسير الرازي، ج 3، ص 435.

إلى المساندة الإلهية لنبي لم يكن له أخ ولا أب وعم ولا أبناء عمومة وكل هؤلاء هم من يقدمون الدعم والمساندة التي يحتاج إليها الإنسان وقت ضيقه وكلامنا مدعوم بما حدث مع موسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} 407، وكذلك مع سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم عندما دعاه ربّه إلى الاستعانة بالعشيرة وبذوي القربّى فقال عز من قائل: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}408، لذلك؛ فإنّ التأييد الإلهي بروح القدس يمثل وبأعظم صورة نصرة عظيمة هي حقّيقة التفضيل الذي أشرنا إليه من جهة وهو من جهة أخرى مواساة عظيمة لني الله عيسى صلّى الله عليه وسلّم حيث لم يترك وحيدا في مواجهة كفر وإصرار وعناد من كفر من بني إسرائيل.

إنجيل عيسى:

قبل البدء بالحديث ربّما يسأل أحد هل يجوز القول عن الإنجيل إنّه كتاب عيسى، الإجابة هي نعم يجوز لانّ المولى الحقّ عزّ وجلّ نسب مثل ذلك لأنبيائه فقال صحف إبراهيم وموسى.

والأمر الذي يوجب البحث ويثير التساؤلات هو الإنجيل نفسه من حيث أنّ من أرسل به إلى النّاس وهو عيسى صلّى الله عليه وسلّم كان من أصحاب المعجزات المادية العينية مثل الطب والإحياء والخلق بإذن الله وكذلك علم الأسرار.

فهل كان الإنجيل من معجزاته؟

---

407 - القصص 25.

408 - الشعراء 214.

ولماذا أرسل بالكتاب وهو معه معجزات وخوارق عظيمة تجعل كل من يشاهد يقتربّ من الإيمان ثم اليقين بالحقّ من الله عزّ وجلّ؟

كما يثير زمن الإنجيل رغبة البحث فقد جاء بعد التوراة وبعد الزبور، فلماذا؟

وهل كان كتابا لمرحلة محددة وقوم مخصوصين؟

ثم ماذا حمل هذا الإنجيل من مضامين؟

لا شك أنّ عيسى المخلوق نبيا ورسولا لبني إسرائيل جاء بمعجزات تقصر العقول عن استيعاب حقّيقتها إلا بالإيمان بالله الخالق عزّ وجلّ، فهو قبل ذلك أي عيسى نفسه كان معجزة لبني الإنسان خلقا وإفصاحا، خلقا في الخلق المعجز لكل قدرة على الإتيان بمثل هذا الخلق وفد سبق تفصيل القول في خلقه صلّى الله عليه وسلّم، وإفصاحا من حيث الكلام في المهد والإفصاح بالدور الذي كلف به.

ومع ذلك أرسل الله عيسى بالمعجزات وهي مجموعة من المستعصيات الطبية وصولا إلى قمة ما استعصى كمعالجة الأبرص وشفاء الأكمة ثم بعد ذلك إحياء الموتى بإذن الله، وختمها بعلم الأسرار.

والتساؤل المهم هنا لماذا الإنجيل مع المعجزات؟

نقول: يجب في البدء التميز بين دور المعجزات وبين دور الكتاب، فالمعجز في اللغة عَجَزَ يَعْجِزُ عن الأَمر إذا قَصَرَ عنه409، فاللغة تصف كل ما لا يصل إلى مداه إنسان بكونه معجزا، عليه فهو مرتبة متميزة من الأداء لا يستطيع أحد الوصول إليها وهذا غير حاصل في

[409] – لسان العربّ، ج 5، ص 369.

أداء البشر إلا بقوّة عظيمة ومطلقة لا يمنحها إلا الله عزّ وجلّ، أمّا المعجزة فيقول عنها علماء الاصطلاح أنها أمر خارق للعادة، داع إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله[410].

أمّا نحن فنقول: إنّ أيّ أداء بشري مميز لا يمكنه مهما ارتقت درجاته إن يصل إلى درجة الإعجاز، لان الإعجاز في الحقّيقة هو أمر الهي يمثل مرحلة انتهاء تقف أمامها كل المحاولات في زمن مخصوص، لان المعجزات لها زمن مخصوص قد تبقى بعده وقد تنتهي، فمعجزات عيسى صلّى الله عليه وسلّم والمتمثلة بالعلاجات قد يحصل لها ممّاثلة في هذا الزمن (الماثلة ليست مطابقة تامة وسبق تفصيل القول في ذلك) لكن ذلك لا يعني أنها لم تكن معجزات بل كانت كذلك في زمنها المخصوص.

على هذا فانّ الأمر المعجز هو الذي يتيح للمقابل محاولة مجاراته للوصول إليه لكنه يعجز عن الوصول إلى ما انتهى إليه المعجز، وعليه نقول أن من الممكن لمن يريد مجاراة عيسى البحث عن علاج للبرص، أو شفاء الكمه وربّما يصل إلى مراحل مثل أن يوقف انتشار المرض لكن لم يكن باستطاعته شفاء المرض بالمطلق كما فعل عيسى، وعليه نعتقد أنّ المعجز هو من وسائل الإقناع الجدلي أكثر من كونه من وسائل الإقناع البصري، أي إذا كان المعجز هو ظاهر مُبصر لبعض البسطاء الذين لا يُخشى من عنتهم وإصرارهم، لان هؤلاء من البساطة بحيث تكفيهم معجزة واحدة لقبول الدعوة الجديدة، لكن هذا المعجز لم يكن أبدا لهؤلاء بالدرجة الأولى، بل هو لغيرهم من الذين لا تلفت عقولهم ولا تغير قناعاتهم تلك المشاهدة البصرية، لان هؤلاء قادرون

---

[410] التعريفات، الشريف الجرجاني، ج 1، ص 72.

على دحض هذه المشاهدة بادعاء يغير قناعة البسطاء كادعاء السحر أو الجن أو غير ذلك، إذا المعجز بالدرجة الأساس هو لهؤلاء من أصحاب الفكر الباحث والمتفحص، وككل دال كان هؤلاء على نوعين:

1- مؤمن بما عرف من حقّيقة المعجز معرفة عالم بالتفاصيل التي أعجزته من قبل عن الوصول إلى ما وصل إليه المعجز كسحرة موسى الين أقروا أن معجز موسى هو من البينات وان عملهم هو سحر مفترى مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}411.

2-آخر كافر مع ما عرف من الحقّ فهو من الذين يصرون على مخالفة الهدى.

أمّا المؤمنون فقد ارتقوا درجات بهذا الإيمان إلى أن وصل مجموعة منهم إلى مرتبة الحواريين، وأما الذين كفروا فقد خابوا في كل مساعيهم وآخرها سعيهم لقتل عيسى.

عليه فالمعجزات هي سابقة على الكتاب المنزّل، لان الكتاب هو لمن يؤمن به أما من يصر على الكفر به فالكتاب ليس له وأن قرأه وعرف ما فيه.

هنا نقول إن سبق المعجزات للكتاب أو الجمع بين الاثنين ليس ممّا يُستغربّ منه لان المعجز مرحلة لها خصائص ودور محدد ومحدود، الدور المحدد يتمثل في جذب الفئة المستهدفة بالتبليغ إلى ساحة المجادلة الفكرية وهذا ما حدث مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم فقد كانت المعجزات التي أتى بها متسلسلة في القوّة والترتيب وعلى النحو الآتي:

411 - طه 70.

1-إبراء الأبرص.

2-إبراء الأكمة.

3-إحياء الموتى.

4-الإنباء -علم الإسرار- (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ).

ويلاحظ التسلسل انه يعتمد على قوّة الترتيب فإبراء الأكمة هو أقوى في إعجازه من إبراء الأبرص، أما إحياء الموتى فهو أقوى ثم بعد ذلك يأتي الاطلاع على الأسرار المكنونة والخفايا المدفونة قمة في إعجاز المتحدي.

وهذا التسلسل يمثل أمرين:

الأوّل: هو أنّ هذه الأشياء هي قمة معجزات عيسى أي انه كان يقوم بغير ذلك من أمور المعالجات الطبية ولكنها قمتها. هنا أمر في غاية الأهمية مفاده أن معجزة عيسى في الشفاء قد تكون:

1- أن يكون الإعجاز خارق للعادة أي بدون ممّارسة طبية.

2- أن يكون الإعجاز بممّارسة طبية أي مجموعة علاجات.

والأولى كما نعتقد أن يكون الشفاء بممّارسة طبية لأننا نعرف من البحث في طبيعة الإعجاز ضرورة أن تحصل المقاربّة والتجانس بين طرفي التحدي وإلا سيكون الأمر هنا إفحام وهو نتيجة بدون فروض، ويدل على قيام عيسى بعمل المعجزات وليس بإظهارها ما جاء في حديثه عن الخلق، فهو يصنع بيده من الطين هيئة كأنها الطير لأنّه عاجز أن يأتي بهيئة الطير ذاتها (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)، ثم ينفخ فيه بإذن الله المعطى له وهو غير مستغربّ لانّ الله أوكل ملكا كلفه بنفخ الروح، وقد أعطى هذا ولفترة محددة لسيدنا عيسى عليه والصّلاة والسّلام.

الثاني: إنها بمثابة الاستدراج الجدلي، ومعلوم أن الاستدراج هو من عناصر الجدل بل هو من أهم أساليبه حيث يقوم الطرف الأوّل بتقديم ما يقبل به خصمه فيأتي به إلى ساحته ثم بعد ذلك يقوم بدحض ما عنده.

ونعتقد أن معالجات عيسى كانت معجزة لكل من يتعاطى في العمل بالطب مع قربّ تناول المتحدي لأدوات التحدي (العلاجات)، وهذا أمر يدل عليه العقل في باب التحدي الإعجازي فالمعجزات لابدّ أن تكون ممّا يقاربّ فهم وتعاطي من تُعرض عليهم وإلا لا يمكن أن تكون معجزة لانّ المقابل لم يقم حتى بالمحاولة في هذا المجال فكيف تكون معجزة له!

كما يدل على ذلك ما جاء في القران الكريم من دعوات تحدي الإعجاز لمعجزة محمّد صلّى الله عليه وسلّم حيث يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}412.

لكن هذه المعجزات لم تكن مطلقة بل هي محدودة من حيث النوع ومن حيث الزمن؟

فهي محدودة من حيث النوع لانّ الإعجاز لم يكن مطلقا بل كان مختصا بما احتارت عقول النّاس آنذاك بحل مستعصاه، وهي الطب وعلم الأسرار.

412 يونس 38.

ومن حيث الزمن هي محدودة فقد انتهت هذه المعجزات بإرادة الله في رفع عيسى صلّى الله عليه وسلّم وبذلك انتهت هذه المعجزات بذلك الزمن إلا ما شاء الله.

ونعتقد أنّها سبقت من حيث الزمن كتاب الإنجيل، أو لنقل إنها منفصلة عنه من حيث عدم ارتباط هذا المعجزات بفحوى الإنجيل، لانّ هذه المعجزات لم تكن من قضايا العقيدة وإنّما كانت من لوازم الإقناع فهي شأن جدلي.

هنا نتساءل هل كان الإنجيل معجزا؟

كان الإنجيل كتابا يحمل مضامين محددة هي بالدرجة الأساس تصديق لما سبق من الكتب، والتصديق بما سبق لا يختص به الإنجيل بل هو أمر يصدق على جميع الصحف والكتب فالتوراة مصدقة لصحف إبراهيم والإنجيل مصدقا للتوراة والقرآن هو مصدق بكل ما جاء من كتب السماء مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}413، ذلك لان المنزل واحد هو الله الواحد، والعام من المضامين واحد يتمثل في القواعد التي هي بمثابة ثوابت لا تتغير ولا تتبدل لأنها من الواحد الباقي الذي قوله واحد وفعله واحد، ويشمل القول المضمون والرسم، والرسم يختلف من لسان إلى لسان لأنه راجع إلى المتلقي وهو متغير فلابدّ أن يكون الرسم متغيرا، أما المضمون فإن

413 المائدة 48.

أقوال الواحد جلّ وعلا وهي المنهاج والشرع الذي يصلح لكل زمان وكل مكان، لما فيه من رؤية العارف بأحوال البشر، المحصي لقدراتهم، المطلع على أسرارهم، القادر على سماعهم، والقوي على حاجاتهم فنهجه واحد. وهكذا فإن كل الصحف والألواح والكتب التي أرسل الواحد سبحانه الرّسُل والأنبياء منذرين ومبشرين بها حملت في طياتها مضمونا واحدا، بدءا من صحف إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}414، إلى قرآن محمّد الذي بعث به نبيا رسولا للعالمين: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآَنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}415، فصحف إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم فيها من قرآن محمّد رسول الكافة صلّى الله عليه وسلّم، وقرآن محمّد فيه من صحف إبراهيم لأنّهما يمثلان القول الثابت من الواحد سبحانه وتعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}416، ولكن ما يختلف فيه أن القرآن هو خاتم الكتب لان محمّد صلّى الله عليه وسلّم خاتم الرّسُل ممّا يفضي ولابدّ إلى أن يكون القرآن مفصلا وجامعا لكل المضامين التي يريدها الواحد جلّ وعلا ومهيمنا عليها، {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}417، وأن يكون محمّد صلّى الله عليه وسلّم للعالمين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}418، فمضمون القول واحد لان المرسل واحد وباقي وقيوم ودائم هو الله فكان لزاما أن يكون المضمون واحد

---

414 الأعلى 19.

415 النمل 6.

416 إبراهيم 27.

417 يونس 37.

418 الأنبياء 107.

ولو كان من غير الله لوجد من يقرأ هذا القول اختلافا كبيرا، {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}419، أما المتلقي فمتغير وبناءً على تغيره هذا أصدر أحكاما متغيرة، تتمثل بالإيمان من فريق والكفر من فريق آخر، فأما الكفر فمصدره الادعاء بالاختلاف، فكل رسول يرسل إلى قوم يواجهه الكفار بالرفض لأنه يغاير ما يعرفون من عقائد، ممّا يدفعهم إلى التكذيب والكفر، {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ}420، فعندما بعث الله عيسى بعد موسى كذبه اليهود ممن كانوا يؤمنون بالله الواحد القهار، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}421، بل اختلف المؤمنون من اليهود والنصارى أكثر من ذلك إلى حد نفي كل منهم شريعة الآخر عندما وصفها بما لا يليق بها وكما يخبرنا العليم الخبير جل في علاه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}422، واضحة هي دلالة الإطلاق في الآية أي عموم اليهود وعموم النصارى وهم من ينطبق عليهم الاختلاف في الواحد وهو ما يؤكده قوله تعالى (وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب)،"فالواو للحال، والكتاب للجنس. أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلوم والتلاوة للكتب، وحقّ من حمل التوراة أو الإنجيل أو

---

419 النساء 82.

420 المائدة 70.

421 البقرة 87.

422 البقرة 113.

غيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقي لأنّ كلّ واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد لصحته، فإن التوراة مصدقة بعيسى عليه السّلام، والإنجيل مصدق بموسى عليه السّلام"423.

وكذلك الأمر بالنسبة لسيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فقد واجه الرفض من المؤمنين من اليهود والنصارى على حد سواء، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}424.

واختلاف المؤمنين في الواحد ما هو إلا بسبب المتغير الذهني الحاصل لديهم مع عجز عن إدراك حقّيقة وحدة المضمون لقائل واحد سبحانه وتعالى عما يشركون هو ربّ العالمين.

ومع ذلك نعتقد أن الإنجيل كان من معجزات عيسى صلّى الله عليه وسلّم لأسباب من أهمها:

1- لانّ آيات الإنجيل وهي من الله عزّ وجلّ معجزة فهو معجز.

423 تفسير الرازي، ج 2، ص 291.

424 آل عمران 64-70.

2- جاء الإنجيل بمضامين يعجز عنها كل من حول عيسى.

3- تصديقه بالتوراة جعله معجزا.

فما هو الإنجيل؟

وماذا احتوى؟

لا شك أنّ نصوص الإنجيل موجودة بين أيدينا، بل هي الآن عدة أناجيل ولكن يقيننا بتحريف ما جاء فيها يحجزنا عن العودة إلى تلك النصوص.

ولا نريد أن نعرض دقائق ما ورد في الإنجيل الصحيح لأنّه ليس بين أيدينا، ولكن نريد أن نعرض وصفه الذي جاء في القران الكريم ثم ننطلق إلى مساحة التحليل المنطقي

ومن الأهمية بمكان أن نعرض لطريقة إنزال الإنجيل على عيسى صلّى الله عليه وسلّم

هل نزل الإنجيل دفعة واحدة؟ أم كان على ما اقتضت الإرادة في تبليغ الرّسالة؟

اختلف المفسرون بين قائل بنزول الإنجيل دفعة واحدة كابن كثير وبين من يذهب خلاف ذلك كابن عاشور، ونقول إن المنطق يملي أن يكون الإنجيل وكل كتب السماء أنزلت آياتها تباعا ولم تنزل دفعة واحدة لأنه لو نزلت دفعة واحدة لكانت عانت من ضعف في مواكبة أحداث الواقع الذي أرسلت في زمنه، كما أن سياق الآيات يدل على التسلسل والتتابع في قوله تعالى: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل)، وذلك لان التعليم المتسلسل في الآية يتطلب استغراق زمني، وأحسن العلم ما بدأ من الأجزاء للوصول إلى الكليات.

مضامين الإنجيل:

لا شك أنّ مضامين الإنجيل أكبر من عرضها بتفصيل دقيق على سبيل السرد أو التصنيف، لكن يمكن لمن يريد البحث في اتجاهات المضمون أن يتلمس فيه ككل الكتب السماوية أمرين هما:

الكليات وتمثل الثوابت.

الجزئيات وتمثل المتغيرات.

ومعلوم أن الكليات الثوابت هي كلّ ما يعود إلى أمر الله وإرادته في شؤون الدين أو الدنيا، وهذه موجود في الإنجيل كما هي موجودة في التوراة وكما نقراها في القران الآن لأنها من الباقي الذي لا يتبدل، أما الجزئيات فهي متغيرات لأنها متعلقة بالمخلوقات لاسيما الإنسان الذي تتبدل أحواله باختلاف الأزمان والأماكن، إضافة إلى ما جعل الله في خلقه من اختلاف مع الآخر في المزاج والطبع والخلق واللون والذوق والعلم والرزق، كل هذا يؤدّي بنا إلى اليقين بتغير الجزئيات المتعلقة بالبشر وأحوالهم في الكتب السماوية، ومثالنا هو بني إسرائيل الذين كرهوا ما كان ينزل عليهم من طعام السماء إلى آخر ممّا تنبت الأرض، هنا نسأل هل هذه حالة ثابتة؟ بالتأكيد الإجابة في السؤال لأنه لو كانت ثابتة لما نص عليها القران كحالة مستغربّة من حالات المزاج البشري، عليه فانّ كل ما في الكتب السماوية من متعلقات البشر هي متغيرات يمكن أن نجد مغايرة في صورها هنا وهناك، ولنناقش الآن المضامين الكلية (الثوابت) التي وردت في الإنجيل وكما وصفها القران، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[425].

ويقل جلّ وعلا: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[426].

من هذه الآيات الكريمة تظهر أهم المضامين الثوابت في الإنجيل وهي:

مصدق

هدى

نور

موعظة

حكم بالعدل والحقّ

مبشر

مبيّن

ولنعرض لهذه المضامين تفصيليا وعلى النحو الآتي:

مصدّق:

[425] المائدة 46-47.

[426] الصف 6.

التصديق هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر427، في ضوء هذا المفهوم يمكن تفريع التصديق بأسبابه إلى:

- المخبِّر.

- الخبر.

- المصدق.

المخبر في لما صدّق به عيسى صلّى الله عليه وسلّم هو الله جلّ وعلا، ونحن من منطلق إيماننا لا نشك مطلقا بصدق المخبر، ولكن لنناقش لماذا المخبر صادقا؟

نقول من وجد في الله غير ذلك (حاشا لله)؟

لماذا يحتاج الغني عن العالمين إلى غير ذلك!

كيف يكون القوي غير صادق؟ ممن يخاف؟

إنّ السلوك الذي يرقى به المخلوق إلى درجات العلى لابدّ أن يتسم بالصدق الذي هو في الواقع تقوى لله الذي يقبل الصدق ولا يقبل غيره، {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}428، فالصدق قيمة أخلاقية تؤدّي إلى صلابة في العقيدة وقوّة في النفس وكذلك تمنح الصادق اعتبارا من الآخر، فإذا كان هذا على مستوى المخلوق فكيف هو مع الخالق جلّ وعلا؟ لقد بين المولى عزّ وجلّ أن الصدق قيمة إيمانية إلى جانب كونها قيمة أخلاقية فقال عزّ وجلّ عن وعده الصادق: {وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا

---

427 - التعريفات، ج 1، ص 19.

428 - الزمر 33.

يُوعَدُونَ}429، وهو نتيجة يقر بها المؤمن وهو يتمتع بالصدق الإلهي مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}430.

أمّا الخبر الذي صدق به عيسى صلّى الله عليه وسلّم فهو خبر السماء هنا وجب الوقوف مع مسألة تصديق الخبر عند عيسى بالتحديد، إن الخبر عند عيسى أودع في قرارة يقينه وهو في المهد وتصديقه هنا كان تصديق الحواس والجوارح، فقد صدّق اللسان ونطق بالصدق كما أنه ورث الصدق من أمه الصديقة، فقد كان التصديق يقينا عند عيسى من طرفين بما أودع فيه ثم بما ورث عن أمه، ولكن هذا لا يناقض إيمان عيسى المصطفي نبيا بالغيب والتصديق بالخبر الذي بُلّغ أن ينقله إلى النّاس فيبشرهم وينذرهم في مرحلة الوعي، فعيسى لم يكن تصديقه بالخبر خَلقيا بل كان يقينا إيمانيا بعد تأمل في آيات الله تأتى له من تربّية إيمانية تكفل بها كل أمه مريم وقربّيه زكريا وابن خالته يحيى، الأمر الذي يؤدّي بنا إلى القول أن عيسى تربّى وسط بيئة إيمانية هيأته لمواجهة بني إسرائيل الذين انحرف كبرائهم عن جادة فذهبوا بالعامة مذاهب لا يرضها الله جلّ وعلا، عدا ذلك كله فالخبر قابل للتصديق عند كل ذي لب يأمل باحثا عن الصدق وجدا في طلبه فكيف مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم. هنا نتساءل:

هل كان التصديق من أخلاق عيسى؟ أم من إيمانه؟

نقول إن التصديق من خلق الأنبياء والمصطفين الأخيار اختيارا لا إجبارا، والاختيار يكون في الغالب عن وعي، وقد وصف الله سبحانه عددا كبيرا من الأنبياء والرّسُل بكونهم مصدقون وصادقون فقال عز من

---

[429] - الأقحاف 16.

[430] - الزمر 74.

قائل عن إبراهيم عليه والصّلاة والسّلام: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}431، وعن إسماعيل: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}432، وعن إدريس: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}433، ومن روائع الإعجاز أن يأتي وصف العباد بالصدق مؤكدا عن غير واحد من المخلصين في سورة مريم تقديرا لصدق مريم وبيانا لصفاء صدقها وهذا ما سنتطرق له في الحديث عن الصديقة مريم صلّى الله عليهما وسلّم.

وعن يحي: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}434، وعن محمّد صلّى الله عليه وسلّم بأنه الصدق وما جاء به الصدق فقال جل ي علاه: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ}435، وكثير آخرين وكأنه سبحانه وتعالى يقدم لبقية عباده الأنموذج الأمثل أو المثال الأعلى ليكون منهج اقتداء وأسوة تهدي إلى الطريق المستقيم.

هدى:

الهدى في الاصطلاح بيان طريق الرشد ليسلك دون طريق الغي436، على ضوء هذا المفهوم يمكن أن نعرف طبيعة الهدى في الإنجيل وهو أنه هدى الله لأنه لا أحد قادر بالمطلق على أن يهدي إلى

---

431 مريم 41.

432 مريم 54.

433 مرين 56.

434 آل عمران 39.

435 الزمر 32.

436 الفروق اللغوية، ج 1، ص 109.

طريق الرشاد المحض الخالص من شوائب الغي إلا الله مصداقا لقوله تعالى: {هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}437، فكل من لا يستند إلى هدى الله فهداه هوى يصيب مرة ويخطئ مرات.

وهدى الله خاص وعام، فالخاص هو اختص به المولى عزّ وجلّ عبادا له لدور محدد يقومون كالأنبياء والرّسُل والصالحين مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}438، وهدى الله الخاص هو من سبيل الهدى العام لأنه يهدف إلى تعليم النّاس الاقتداء بهؤلاء المهتدين. وعيسى صلّى الله عليه وسلّم من هؤلاء المهتدين الذين يهدون النّاس إلى العمل الصالح ليس من اجتهادهم بل ممّا علمهم الله عزّ وجلّ.

---

437 البقرة 120.

438 الأنعام 83-90.

أمّا الهدى العام فهو من رحمة الله عزّ وجلّ بعباده، حيث تمم لهم خلقهم بالهدى عطاءً مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[439].

"أنّ الإنجيل هدى بمعنى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضد، وعلى النبوّة وعلى المعاد، فهذا هو المراد بكونه هدىً"[440].

3-نور:

إذا أخذنا معناه الحقّيقي فهو كل ما يعين على الإبصار من ضوء، كضوء النّار أو ضوء الشمس أو القمر، وهو بالتالي ما يزيل عنك عتمة، وهو في الغالب يحتاج إليه في النظر إلى إمام من كل اتجاه فأنت أينما توجهت إلى أمام إلى الخلف عن يمنك أو شمالك فأنت تتلمس النور أمامك، فإذا عرفنا هذه الحقّيقة وجب أن نفهم النور الذي في الإنجيل، انه نور البشارة التي جاء بها عيسى صلّى الله عليه وسلّم فقد جاء بنور يضيء مستقبل العباد وهو أن مبشر بالرّسول الكافة والخاتم محمّد صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[441].

والنور المقصود ذكره في الإنجيل يتمثل في حقّيقة الهداية الإلهية من حيث أنها تريد بالإنسان أن يمضي إلى إمام في القيام بدور الخليفة وتهيأ

---

[439] طه 50.

[440] تفسير الرازي، ج 6، ص 71.

[441] الصف 6.

له الظروف التي تجعله يسير على هدى في هذه المهمة لذلك فان كل الرسالات التي أرسلت هي نور مستمر من الله إلى عباده لا ينقطع وان انقطعت الرسالات بالرّسالة الخاتمة لان هذه الرّسالة هي بمثابة النور المستديم لما وضع الله فيها من صفة ديمومة المواكبة لتغير الحدث والزمن معا فقال عنها الحقّ سبحانه وتعالى: {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}442.

السماوية ضم كل ما يعني الإنسان لاسيما ما يوضح الطريق إلى الله من توحيد وإخلاص وعبادة، ثم السلوك وطبيعة العلاقات الواجب كونها بين بني البشر.

موعظة:

الموعظة هي تذكيرُك الرجل بالخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ443. وهي التي تلين القلوب القاسية، وتدمع العيون الجامدة، وتصلح الأعمال الفاسدة444.

والموعظة اسم مصدر الوعظ وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة أو بتحريض على جلب نفع مغفول عنه445، وقد جاء قوله تعالى: {فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف}446.

---

442 التغابن 8.

443 معجم العين، الخليل بن احمد، ج 1، ص 133.

444 التعريفات، ج 1، ص 79.

445 تفسير التحرير والتنوير، ج 5، ص 452.

446 البقرة 275.

والموعظة في الإنجيل هي ذات المواعظ التي جاءت في الكتب التي سبقته والكتب التي تليه لان صفة التصديق التي وصف الله بها عيسى في ذكر نبوته وكتابه تشير إلى ذلك، كما أن الحديث عن اتجاهات الوعظ يدلنا بكل تأكيد على وحدة المضمون مع مغايرة في العرض.

إن الحديث عن الوعظ يفضي إلى وجوب تحديد كنهه، قيمة هو أم سلوك؟

نقول: إنّ الوعظ قيمة مطلقة من الله عزّ وجلّ وهي من البشر في دائرة النسبية، لأنه يهدف إلى تقديم نصح بإرشاد وتحذير بهدف وقوع النفع، هنا نقول إن مفهوم المصطلح يؤدّي إلى الاعتقاد بكونه قيمة مطلقة، ومطلقة تعنى أنه يمكن لأي إنسان أو حدث أو مؤشر أن يكون واعظا في حالة معينة، فالإطلاق ليس إطلاق قدرة، لانّ ذلك ممّا يختص به المولى عزّ وجلّ، وإنما هو إطلاق بمعنى مضاد للتحديد، أي؛ أنّ الوعظ لا يكون في أمر مخصوص وإنما يصح الوعظ لكل شيء لأمور الدين والدنيا على حد سواء مصداقا لقوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقوّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}447.

لذلك، يمكن لنا أن نقول: أن موعظة الإنجيل فيها من أمور الدين والدنيا. ويدخل في الموعظة كل ما ذكره الله تعالى من الأمور التي توجب التوجه إلى الطاعات وتجنب المعاصي.

ولنتبيّن سمات موعظة الدين وموعظة الدنيا لنصل إلى حقّيقة موعظة الإنجيل:

موعظة الدين:

447 الأعراف 145.

إنّ موعظة الدين قائمة على ثنائية (العمل والانتهاء)، أي أنّ الدين يعظ باتجاه العمل بما يجب والانتهاء عما لا يجب، ولا يمكن تحديد وتعديد ما يجب وما لا يجب لان متغيرات الحياة الدنيا أكبر من القدرة على إحصائها ولكن قاعدة أساسية يمكن لها أن تحدد ذلك في ضوء ثنائية الإصلاح والإفساد، فكل ما يصلح هو للعمل أحرى، وكل ما يفسد هو للانتهاء أحرى.

والعمل عند المتقين هو ثمرة الوعظ الذي اتبعوا هداه، وأول موارد الوعظ عند المتقين كتابهم المنزل عليهم فهو واعظهم الذي لا يضل ولا يغوى، ووعظه نعمة من الله لهم، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}448.

إنّ هذا الوعظ يؤدّي إلى السلوك القويم الذي ينتج عنه مجموعة من القيم الفاضلة والتي جاءت الرسالات السماوية لترسيخها في الأرض، وبهذه القيم يكون الإصلاح الذي هو غاية الاستخلاف والهدف الأول الذي من أجله خُلق الإنسان.

فإذا سلكوا هذا السلوك القويم تحقّق الوعظ السلوكي الذي هو بمثابة ثاني موارد الوعظ عند المتقين، فيعقوب جمع أبناءه متسائلا عند نوع سلوكهم من بعده مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}449، وكذلك كان دعاء عيسى صلّى الله عليه وسلّم أن تكون المائدة موعظة للحاضر والمستقبل، {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً

448 البقرة 231.

449 البقرة 133.

مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا وَآَيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}450. فهي موعظة لأولهم ولأخرهم.

الانتهاء هو الكف عن مالا يجب451، أي؛ هو التوقف عن الفعل السالب دون فعل موجب لان الانتهاء هو بحد ذاته موجب.

والانتهاء هو أمر يأتي بعد سلوك فعلي يقوم به من يقوم إلى أن تأتي الموعظة المبينة لحقّيقة هذا الفعل، وعليه يجب التوقف والكف عن هذا الفعل.

وتدلل الآيات الكريمة على ذلك كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}452.

والانتهاء من علامات الإيمان لأنّه فعل يحجز النفس بنوازعها المتباينة عما لا يجب بالموعظة مصداقا لقوله تعالى: {يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}453.

حسن المعاملة موعظة:

إنّ بناء علاقات اجتماعية قائمة على التواصل هي من أهم ما يوعظ به بني الإنسان، لأنه بذلك تتحقّق غاية الاستخلاف وهي إعمار الأرض، ولا يمكن أن نتخيل طبيعة الحياة على الأرض بوجود

---

450 المائدة 114.

451 لسان العربّ، ج 15، ص 343.

452 البقرة 275.

453 النور 17.

التناحر والتقاتل فهما صورتان من صور الفساد الذي ليس من مهام الإنسان على الإطلاق، من هنا يمكن لنا أن نقول أن الإنجيل احتوى على مواعظ في مجال العلاقات الاجتماعية يمكن أن نتلمس بعضها في القران الكريم لان الغاية هي ذات الغاية وان اختلفت الوسيلة، يقول الحقّ جلّ وعلا: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}454، الموعظة في هذه الآية تهدف إلى إقامة التواصل إذا تحقّقت شروطها.

فالموعظة تهدف إلى ترسيخ القيم الفاضلة ومحاربّة القيم الفاسدة لإقامة علاقة التواصل.

والموعظة تقوم بدور المذّكر الذي يعيد الإنسان في كل مرة إلى طريق الحقّ، يقول المولى عزّ وجلّ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُربَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}455.

على ذلك فالإنجيل موعظة تتمثل في مجموع ما يدعو إلى إتباعه ومجوع ما يدعو إلى الانتهاء عنه.

5- الحكم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ:

يقول الله جلّ وعلا: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}456.

للحديث عن هذا الموضوع نضع عدد من التساؤلات هي:

---

454 النساء 58.

455 النحل 90.

456 المائدة 47.

بماذا يحكم أهل الإنجيل؟

وماذا انزل الله من أحكام لهم؟

وكيف يحكموا بالإنجيل والقران موجود؟

نقول فيما يتعلق بالتساؤل الأول إن النص واضح في تحديد مواد الأحكام التي يستمد منها أهل الإنجيل حكمهم وهو بالتحديد ما انزل الله، وما انزل الله هو مجموع رسالاته من آدم إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم هنا تتبين القاعدة الإلهية التي مفادها إن الدين واحد مصداقا لقوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}457.

عليه فإنّ أهل الإنجيل لهم أن يحكموا بالإنجيل ولهم أن يحكموا بالتوراة ما لم يُنص على تحريم لسابق أو حلٌ للاحقّ، وهذا حاصل مع بني إسرائيل حيث جاء عيسى برحمة من الله لهم تحل لهم ما حُرم عليهم سابقا مصداقا لقوله تعالى: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ ربّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ}458.

فما انزل الله (هو هو) لانّ الله واحد باق (هو الله) وكلماته لا تتبدل، يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}459.

---

457 الروم 30.

458 آل عمران 50.

459 الأنعام 34.

وما انزل الله هو الحقّ، {الحقّ مِنْ ربّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}460، وكلماته حقّ وبها يحقّ الحقّ، {وَيُحقّ اللَّهُ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}461، فأيّ حكم به سيكون ولا شك حكما بالحقّ وهذا هو المقصود بالحكم بما انزل الله.

هنا يأتي التساؤل الثاني: ماذا انزل الله من أحكام لهم؟

نقول: إنّ الآية المفسرة لطبيعة الأحكام المنزلة إليهم في مجال الحض على الحكم بها هي أحكام معاملات دنيوية ترتكز على:

حكم العدل: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}462.

العفو: {فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}463.

فهل هذه هي كل الأحكام التي أمروا أن يحكموا بها؟

لا يمكن أن تكون هذه الأحكام هي كل المقصود على وجه التحديد، ولكنها بمثابة الإشارة التي تدل ولاشك على دلالة أخرى هي أن ما ورد في الآية يمثل قاعدة ثابتة في المعاملات نصها الحكم بالعدل فيما اختلف فيه النّاس مع إمكان إسقاط الحقّ بالعفو من المتضرر، فإذا ذكر في الآية مجموعة أمثلة كالنفس كالعين إلا أنها تدل على بقية ما لم يذكر فالمقصود قاعدة الحكم وليس الحكم نفسه مصداقا لقوله تعالى:

460 البقرة 147.

461 يونس 82.

462 المائدة 45.

463 المائدة 45.

{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}464.

وقد يسأل سائل فيقول إن هذه الأحكام هي أحكام دنيوية عن القتل والاعتداء وغير ذلك من حقّوق النّاس المتعلقة بدنياهم، فكيف يتعاملوا مع قضايا الدين؟

الإجابة موجودة في الآية ذاتها حيث ذكرت الآية هذه القضايا الأمثلة وتركت للناس حرية التصرف بين الحد والصلح في ضوء القاعدة، أما أمور الدين فليس لهم أن يتصرفوا في شأن من شؤونها لأنها ثوابت لا اجتهاد في أحكامها، وقد وضحت رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قاضيه هذه المسألة بالنص الآتي: "البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً"465.

إن الحكم بما انزل الله طاعة تؤدّي إلى رحمة الله ورزقه مصداقا لقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}466، لكنهم للأسف أو لنقل جلهم لم يقم ما انزل الله في كتبه التوراة والإنجيل ولذلك لم يتحقّق لهم أن يأكلوا من رزق الله الممنوح لهم لو أقاموا كتاب الله.

---

464 المائدة 49.

465 الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ج 1، ص 4.

466 المائدة 66

هنا نصل التساؤل الثالث "كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأوّل: أنّ المراد ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

والثاني: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ممّا لم يصر منسوخا بالقرآن.

والثالث: المراد من قوله (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيل بِمَا أَنزَلَ الله فِيهِ) زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره مثل ما فعله اليهود من إخفاء أحكام التوراة.

فالمعنى بقوله (وَلْيَحْكُمْ) أي وليقر أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزله الله فيه من غير تحريف ولا تبديل"[467].

6- مبشر:

والتبشير هو الإبلاغ بحادث يسُرّ، وأطلق هنا على الإخبار بأمر عظيم النفع لهم لأنه يلزمه السرور الحقّ فإن مجيء الرّسول إلى النّاس نعمة عظيمة.

ووجه إيثار هذا اللفظ الإشارة إلى ما وقع في الإنجيل من وصف رسالة الرّسول الموعود به بأنها بشارة الملكوت[468].

---

[467] تفسير الرازي، ج 6، ص 72.

[468] تفسير ابن عاشور، ج 15، ص 57.

والحديث عن بشارة الإنجيل يدفعنا إلى البحث عن نوع هذه البشارة؟

ولماذا وهم بين ظهراني نبيهم؟ ألم يكن نبيهم وكتابه بشارة لهم؟

يجب في البدء أن نتعرف على حقّيقة البشارة التي نعتقد أنها لم تكن شخصانية بقدر ما هي تمثل التحول التاريخي والعقدي في مسيرة التبليغ الإلهي لبني الإنسان برسالة النّبي الخاتم الكافة الذي وصفه المولى عزّ وجلّ لهم في كتبهم وفي الإنجيل على وجه الخصوص لقربّ القترة الزمنية بينه وبين البشارة فقال عز من قائل: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النّبي الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[469]. وفي ضوء هذه الآية تتبين ملامح البشارة بالآتي:

- الأمر بالمعروف.
- النهي عن المنكر.
- حل الطيبات.
- تحريم الخبائث.
- وضع الإصر والأغلال.

فكيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشارة؟ بمعنى ألم يكن دينهم (النصرانية) يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؟

---

[469] الأعراف 157.

الإجابة عن هذا التساؤل تحتاج إلى وقفة معمقة مع واقع الحال المتحقّق فيما إذا لو قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قياما حقّا بين النّاس فما ستكون النتيجة؟ ستكون بالتأكيد خير على خير وسيعم الأمن والعدل وتتحقّق السعادة المنشودة بطاعة الله، وهذا ممّا يفرح المؤمن ويسعده فتتولد رغبة حقّيقية لديه من اجل استمرار ذلك والحفاظ عليه، فالنصارى في زمن عيسى صلّى الله عليه وسلّم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولاشك في ذلك، والتبشير كان باستمرار هذا الأمر الميسر للمؤمنين في كل زمان ومكان، يضاف إلى ذلك إن البشارة لم تكن بالفعل على وجه الخصوص (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإنّما بمجوعة القواعد المؤسسة لإدامة الفعل، فما جاء في القران الكريم من قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن يلاحقّ حالات معينة بل كان إقرار لقواعد الأمر والنهي من خلال سلوك المعاملات الموجب الذي جاء به النّبي البشارة.

أمّا التحليل والتحريم؛ فهو تبشير بحل ما تهوى النفوس من طيبات وبتحريم ما تكره، ويُلاحظ أن الطيبات والخبائث جاء معرفة غير منكرة، ولو كانت منكرة لما جاز التبشير بها لأنها ستكون عند ذاك غير محددة ولا مخصوصة، فالتعريف أعطى تحديدا موجبا لكل الطيبات وبالمقابل تحديدا موجبا لكل الخبائث، والسياق يدل على أن المبشر سيفصل وبشكل حاسم كل خلاف ممكن له أن يوهم تحديد الخبيث من الطيب، وهذا ما حصل في رسالة النّبي الخاتم محمّد صلّى الله عليه وسلّم حيث كان الحل قاعدة وكان التحريم استثناءً وهذه هي الشارة الحقّة في الحلال والحرام.

أما قوله تعالى: (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) فالإصْرُ: الثِّقلُ الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحرَاك لثقله، أي:

إنَّ شريعتهم كانت شديدةً، والأغلالُ جمع غُلٍّ، وهو هنا مثلٌ لِمَا كَلِّفُوهُ كقطع أثر البول، وقتل النَّفس في التَّوبةِ، وقطع الأعضاء الخاطئة470. وهذا ما اتفق المفسرون عليه.

ونحن نضيف إلى ما تقدم فنقول إن هناك أمورا أخرى هي بمثابة الأثقال والأغلال على أتباع الديانات السماوية وتتمثل بمجموعة المستحدثات التي أضافها كبراء النّاس في الدين على غير هدى وبدون نص وهذه في الحقّيقة هي أثقل وأكثر غلالا للناس لأنها تسلبهم حقّوقهم باسم الدين وتمنع عنهم الخير وتستعبدهم وأحيانا، يقول الحقّ جلّ وعلا: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}471، وتلقي بهم إلى الهاوية مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا ربّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}472.

ـ مبيِّن:

التبيان توضيح ما أبهم على النّاس، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}473.

اعلم أنّه تعالى ذكر أنّه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات (قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة)، وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله (وَلابَيّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ)، يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على

470 تفسير اللباب لابن عادل، ج 8، ص 31.

471 التوبة 31.

472 الأحزاب 67.

473 الزخرف 30.

أشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحقّ في تلك المسائل الخلافية، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين وبعض الذي تختلفون فيه، معناه فروع الدين، فإن قيل لمَ لمْ يبين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلنا لأن النّاس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها، فلا يجب على الرّسول بيانها474.

والتبيين هو تجلية المعاني الخفيّة لِغموض أو سوء تأويل، بمعنى أن ما بيّنه عيسى في الإنجيل هو ممّا اختلفت فيه أفهام اليهود من الأحكام المتعلقة بفهم التوراة أو بتعيين الأحكام للحوادث الطارئة475.

صورة المؤمن في الكتب السماوية:

أشار الله جلّ وعلا إلى صورة المؤمن التي وردت في التوراة وفي الإنجيل، بأسلوب المماثلة، وهي بالتأكيد ليست كل صور التماثل بين القران والإنجيل ولكن اختيارا معجزا من الله جلّ وعلا لهذه الصورة يجعلنا نستدل به على كل المتماثلات بين الكتابين الكريمين، يقول الحقّ جلّ وعلا:

{محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}476.

474 تفسير الرازي، ج 13، ص 487.
475 تفسير ابن عاشور، ج 13، ص 239.
476 الفتح 29.

جاء الوصف بالمثل لغاية بليغة هي بيان عظمة شأن المؤمنين أي وصفُهم العجيبُ الشأنِ الجارِي في الغرابةِ مَجْرى الأمثالِ. وقولُه تعالَى (فِي التوراة) حالٌ من مثلُهم والعاملُ مَعْنى الإشارةِ.

وقولُه تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل) عطفٌ على مثلُهم الأولِ كأنَّه قيلَ: ذلكَ مثلُهم في التوراةِ والإنجيلِ، وتكريرُ مثلُهم لتأكيدِ غرابتهِ وزيادةِ تقريرِها. وقولُه تعالى (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) الخ تمثيلٌ مستأنفٌ أي هُم كزرعٍ أخرجَ فراخَهُ، فَآزَرَهُ فقوّاهُ مِن المؤازرةِ بمعنى المعاونةِ أو من الإيزارِ وهي الإعانةُ فاستغلظ فصارَ غليظا بعد ما كانَ دقيقا، يُعْجِبُ الزراع بقوتِه وكثافتِه وغلظِه وحسنِ منظرِه وهو مثلٌ ضربَهُ الله عزّ وجلّ لأصحابهِ صلّى الله عليه وسلّم قلُّوا في بدءِ الإسلامِ ثم كثروا واستحكمُوا فترقَّى أمرُهم يوما فيوما بحيثُ أعجبَ النّاس، وَقيلَ: مكتوبٌ في الإنجيلِ سيخرُجُ قومٌ ينبُتون نباتَ الزرعِ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ. وقولُه تعالى: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار) فإنَّ الكفارَ إذا سمعُوا بما أُعدَّ للمؤمنينَ في الآخرةِ مع ما لهُم في الدُّنيا من العزّة غاظَهُم ذلكَ أشدَّ غيظٍ ومنُهم للبيانِ477.

هنا نقول إنّ وصف المؤمنين موجود في التوراة وفي الإنجيل بهذه الصور التي جاءت في القرآن الكريم أو بمثل هذه الصورة، ونخلص إلى نتيجة هي إن الإنجيل كبقية الكتب السماوية ضم كل ما يعني الإنسان لاسيما ما يوضح الطريق إلى الله من توحيد وإخلاص وعبادة، ثم السلوك وطبيعة العلاقات الواجب كونها بين بني البشر.

---

477 تفسير أبو السعود، ج 6، ص 179.

معجزات عيسى:

المعجز في اللغة عَجَزَ يَعْجِزُ عن الأَمر إِذا قَصَرَ عنه[478]، فاللغة تصف كل ما لا يصل إلى مداه إنسان بكونه معجزا، عليه فهو مرتبة متميزة من الأداء لا يستطيع أحد الوصول إليها وهذا غير حاصل في أداء البشر إلا بقوّة عظيمة ومطلقة لا يمنحها إلا الله عزّ وجلّ، علية نقول أنّ المعجزة هي أداء بشري مميز بأمر الهي لأنها من الله، فموسى صلّى الله عليه وسلّم وعلى سبيل المثال خاف من عصاه التي ألفها زمنا عندما أصبحت معجزة، {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}[479]، لأنّها بأمره لم تكن سوى عصى خشبية أما بأمر الله فكانت كما شاء المولى عزّ وجلّ ثعبانا أو أداة لاستخراج الماء أو قوّة تفلق البحر.

وهكذا كانت معجزات عيسى بأمر الله المخصوص لعيسى صلّى الله عليه وسلّم، أي أن هذه المعجزات خاصة به لا يمكن لأي بشر القيام بها مهما كان مبلغ طاعة لله إلا أن يشاء الله له ذلك، بمعنى أن عيسى صلّى الله عليه وسلّم وهب هذه المعجزات فلم يقتصر أداؤها على مرة واحدة وإنما كانت تظهر كلما كانت الحاجة إليها.

والذي نريد أنّ نوضحه أولا هو طبيعة هذه المعجزات بالقياس إلى ما سبقها من معجزات ظاهرة في رسالة موسى صلّى الله عليه وسلّم

[478] لسان العربّ، ج 5، ص 369.

[479] النمل 10.

حيث كانت معجزات موسى موحية وبشكل جلي بالقوّة لأنه أرسل إلى من امتلك القوّة على الأرض فأساء استخدامها (فرعون).

أمّا عيسى فمعجزاته كانت تشير إلى العقل وتدعو إلى التفكر، والتساؤل هنا لماذا؟

لقد أرسل عيسى إلى قوم كانوا على الهداية زمنا من الدهر وهم بنو إسرائيل، وقد خصهم الله من قبل بنبي رسول هو موسى صلّى الله عليه وسلّم بين لهم حلالهم من حرامهم ونجّاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب إلى أن ختم رسالته بما أراد الله لهما من الفلاح والتوفيق على يديه حتى توفاه الله، ثم تبع موسى عدد من الأنبياء لبني إسرائيل مثل داود وسليمان صلّى الله عليهما وسلّم وبكتاب آخر مصدق بالتوراة هو الزبور إلى أن ظهرت نبوة زكريا ويحيى فيهم نلاحظ أنّ كل ذلك كان بمثابة التواصل الدال على أمور منها:

تواصل الرسالات في بني إسرائيل

سرعة تبدل يقين بني إسرائيل

ويدل على هذين الأمرين دلالة قاطعة قول الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ}480.

يتبين على هذا أنّ هنا رسلا بعد موسى نعرف بعضهم مثل داود ولا نعرف بعضهم الآخر لان الله شاء ألا يقص على نبيه قصصهم

[480] البقرة 87-88.

مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}481.

كما يتبين موقف بني إسرائيل ومفاده (الحكم بالهوى) هذا الأمر اليقيني الذي وصف الله عزّ وجلّ به موقف بني إسرائيل يؤدّي إلى نتيجة حتمية هي أنهم رفضوا كل الرسالات التي جاءت إليهم لان الرسالات لا تصدر عن الهوى وإنما تصدر عن الله عزّ وجلّ، يقول العليم الخبير سبحانه وتعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}482، فهؤلاء ابتعدوا بهذا المنطق عن العقل لذلك أراد الله عزّ وجلّ أن يعيدهم إلى التدبر والتفكر فكان عيسى المعجزة الأولى، طفل يولد من غير أب بل من أم فقط، أم أقروا لها بالعفة فقالوا مزكّين ومنزّهين كما يخبرنا عنهم الحقّ جلّ وعلا: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}483، ثم بعد ذلك هو في المهد صبيا يتكلم وهذا أول معجزات عيسى وهو النطق بالحقّ خارج نطاق المألوف فهو معجزة لا توحي بالقوّة الجسدية بل تثير ركود الفكر للبحث في حقّيقة القول.

ثم كانت المعجزات التي أتى بها متسلسلة في القوّة والترتيب، يقول الباري جلّ وعلا: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ

---

481 غافر 78.

482 الشورى 15.

483 مريم 28.

ربِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[484].

ويقول الحقّ تعالى: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}[485].

قبل التفصيل في هذه المعجزات نقف مع نصوص الآيات التي جاءت مخبرة عنها، فقد ذكرت في آيتين من غير تكرار محض، بل هو تفصيل وتدقيق بحث تدل كل آية على أختها ففي الآية الأولى جاءت المعجزات كلها مع تصنيفها إلى أربّع مجوعات هي:

الخلق (واخلق لكم).

العلاج (وأبرئ الأكمه والأبرص).

الإحياء (وأحيي الموتى).

الإنباء (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ).

ويلاحظ أنّ المجوعات الثلاث الأولى ختم فعل عيسى بالإذن الإلهي، أما الإنباء فلم يختم بالإذن الصريح من الله وهنا مسألة الإنباء توجب أن تكون على احتمالين هما:

الإذن مقدّر

---

[484] آل عمران 49.

[485] المائدة 110.

فعل علم

والآية الثانية تفسر إلى حد كبير هذه الآية وترجح أحد الاحتمالين، ففي الآية الأولى كان الخطاب من عيسى إلى بني إسرائيل، أما الثانية فكان خطاب الله عزّ وجلّ موجها لعيسى صلّى الله عليه وسلّم في باب تعداد نعم الله عزّ وجلّ عليه وكان كل فعل متبوعا بإذن الله (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي) ولم يذكر فعل الإنباء في الآية الثانية التي خاطبه الله بها، عليه نرجح أن يكون الإنباء من علم عيسى الذي علمه لان الإذن منصوص عليه صريحا في الآيتين مقرونا بكل فعل من معجزات عيسى باستثناء الإنباء فهو لم يقترن بالإذن في الآية الأولى بخطاب عيسى ولم يذكر في الثانية بخطاب الله عزّ وجلّ له ممّا يدل على اختلاف عن بقية أفعال عيسى المعجزة، وهذا لا يتعارض مع قاعدة أن كل فعل هو بإذن الله لكن المسألة هنا تحتاج إلى ربّط وتوضيح وتدليل على علم عيسى الذي علمه الله إياه، (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيل).

فأين هو هذا العلم؟

وما هو على وجه التحديد؟

وما هي ظواهره؟

ولو اخترنا أن نقف مع هذه التساؤلات وقفة متأمل باحث عن تفسيرها فلابدّ له أن يفترض أول ما يفترض أن تكون النبوة ابرز وجوه هذا العلم ومظاهره، وهنا نقول إن النبوة لم تكن علما ولن تكون لان العلم متحصل عليه والنبوة هي اصطفاء الهي والفرق شاسع بين الاثنين

ولو كانت علما لامكن أن يسعى إلى طلبها أحد فيتحصل عليها بالعلم، عليه وجب أن يكون هذا العلم غير النبوة.

فما هو؟

نعتقد إن الحكمة التي تعلمها عيسى من الله عزّ وجلّ أوصلته إلى درجات عالية من البيان فوصل إلى المعارف بحكمته، فعرف الأسرار، وتفرس ظواهرها حتى أصبح لديه المكنون ظاهرا والمخفي معلنا في دائرة الممكن، وهذا ليس بغريب على عيسى صلّى الله عليه وسلّم وهو نبي ورسول فقد ظهر هذا الأمر عند من هم أقل من درجة في العلم والإيمان، بل ظهر عند الجاهليين كما يخبرنا الشاعر الجاهلي أوس بن حجر الكندي وهو يقول واصفا أحد ممدوحيه:

الألمعيّ الّذي يظنّ لك... الظّنّ كأن قد رأى وقد سمعا[486]

هذا عن الإنباء أمّا بقية معجزاته فهي على النحو الآتي:

الخلق (واخلق لكم)

العلاج (وأبرئ الأكمه والأبرص)

الإحياء (وأحيي الموتى)

ويلاحظ التسلسل انه يعتمد على قوّة الترتيب فبدأ بالأقوى وختم به وهما الخلق والإحياء، ثم تبعه بعلاج العمى وهو أقوى في إعجازه من إبراء الأبرص، ثم إحياء الموتى وهو في قمة في إعجاز المتحدي.

نقف الآن مع الخلق (أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين) فسره الرازي بقوله: أي أقدِّر وأصوِّر وقد بينا في تفسير قوله: {يا أيها النّاس اعبدوا ربّكُمُ

[486] التعازي والمراثي، المبرد، ج 1، ص 7.

الذي خَلَقَكُمْ}487، إنّ الخلق هو التقدير ويدل عليه القرآن في عدة آيات أحدها: قوله تعالى: (فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين) أي المقدرين، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقا بمعنى التكوين والابدّاع فوجب تفسير كونه خالقا بالتقدير والتسوية.

وثانيها: أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في العنكبوت (وَتَخْلُقُونَ إِفْكا)، والكاذب إنما سمي خالقا لأنه يقدر الكذب في خاطره ويصوره.

وثالثها: هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله (أَنِّ أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين)، أي أصور وأقدر وقال تعالى في المائدة (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير) وكل ذلك يدل على أنّ الخلق هو التصوير والتقدير.

ورابعها: قوله تعالى: (هُوَ الذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأرض جَمِيعا)، وقوله خلق إشارة إلى الماضي، فلو حملنا قوله (خلق) على الإيجاد والابدّاع، لكان المعنى: أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي، وذلك باطل بالاتفاق، فإذن وجب حمل الخلق على التقدير حتى يصح الكلام وهو أنه تعالى قدر في الماضي كل ما وجد الآن في الأرض، إذا عرفت هذا فنقول: (أَنِي أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين) معناه: أصور وأقدر وقوله (كَهَيْئَةِ الطير) فالهيئة الصورة المهيئة من قولهم هيأت الشيء إذا قدرته وقوله {فَأَنفُخُ فِيهِ} أي في ذلك الطين المشكل وقوله (فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله) أي أن الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك

[487] البقرة 21.

الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السّلام فيه على سبيل إظهار المعجزات488.

نأتي لإبراء الأكمه، اجمع علماء اللغة والتفسير أنّ الكمه هو علة في الإبصار، وانقسموا ما بين كونها علة وراثية يولد عليها الإنسان، وما بين علة مستحدثة بعد الولادة، والمهم من كل ذلك هو أنهم اجمعوا على أنها علة يصعب علاجها، وان علاجها آنذاك كان معجزة في عصره وكذلك قالوا عن البرص ونحن مع ما ذهبوا، ولكننا يعنينا شأن آخر في هاتين المعجزتين هو

لماذا خصهما الله بالإعجاز والذكر؟

هل كانتا مخصوصتين أم أمثولتين؟

نقول: إن اختيار هاتين العلتين للإعجاز أو الذكر كان حكمة من حكم الله، فالمريض بالكمه أو بالبرص يحدث عنده انقطاع عن التواصل مع الآخر كلي كما في البرص ونسبي كما في الكمه، فالبرص وان كان في حقّيقته العلمية غير معد ولكن النّاس كثيرا ما تطيروا من المصاب به فاعتزلوه بل وقاطعوه أحيانا كثيرة خوفا من الإصابة بمرض يُفقد الإنسان ملامح هيئة الوجه ويمنحها ملامح قبيحة للغاية هنا يحدث الانقطاع التام مع المريض، أما الأكمه فهو أيضا يعاني من هذا الانقطاع ولو بشكل نسبي وذلك من خلال حرمانه من رؤية حقّيقة الأشياء وتفاصيلها، ومن خلال نظرة الآخر له على أنّه عاجز وضعيف، عليه فإنّ الاختيار لم يكن لعجز الأطباء آنذاك عن معالجة هاتين العلتين فحسب بل لغاية أكبر يعلمها العليم والراسخون في العلم، فبعلاجها

---

488 تفسير الرازي، ج 4، ص 215.

يحدث التواصل وتتحقّق سعادة كبيرة أكبر وأكثر نفعا من غيرها من الأمراض المستعصية.

فهل كانتا مخصوصتين أم أمثولتين؟

نعتقد أنّهما ذكرتا أمثوله وليس تخصيصا لانّ المنطق يملي أن يكون القادر على شفاء مثل هاتين العلتين قادر لا محالة على شفاء ما هو دونهما أو ما كان على حدهما من الاستعصاء على العلاج، لذلك فانه من المنطقي أن يكون عيسى صلّى الله عليه وسلّم قد عالج كثير من العلل ومنها الكمه والبرص.

وقد ورد في اغلب كتب التفسير أن العلاج من قبل عيسى كان بالدعاء، ونحن نقول إنّ العلاج بالدعاء يمكن أن يكون أحد خيارات العلاج، فالعلاج يكون:

العلاج بالدعاء

العلاج بالدواء

نأتي إلى الخيار الأوّل وهو أمام احتمالين:

الدعاء المتوقّع بصيغة اللهم اشفي فلانا

الدعاء المخصوص الممنوح لأحد من العباد

فإذا كان الشفاء عند عيسى صلّى الله عليه وسلّم بالدعاء المتوقّع فلا معجزة في ذلك لأن دعاء الأنبياء والرّسُل والصالحين مجاب، وكل منهم يمكن أن يدعو لأحد فيُشفي وهذا حسب اعتقادنا يُضعف من المعجزة ويجعلها أمرا عاديا، وهي لم تكن كذلك بدليل عناية المولى عزّ

وجلّ ببيانها معجزة مخصوصة لعيسى صلّى الله عليه وسلّم وليس لنبي آخر.

لذلك، وجب أن يكون الدّعاء الشافي لهذه العلل دعاءً مخصوصا لعيسى صلّى الله عليه وسلّم علمه الله إياه أتاه الله إتيانا لعيسى وخصه به، فعرفه أن هذا الدعاء مجاب لشفاء هذه العلة وهذا كذا وهذا كذا، بل واختص به عيسى صلّى الله عليه وسلّم ليكون معجزته المخصوصة له، هنا تكون المعجزة المتمثلة في معرفة الطريق إلى حل مستعصي هذه العلل وهو ما يوصلنا إلى الخيار الآخر الذي يفيد أن يكون علاج هذه العلل وغيرها بالعلاج إذا أخذنا به فيكون بما علّم الله عزّ وجلّ عيسى من طرق العلاج علما محضا خاصا به أعجز به من حوله من علماء ذلك العصر.

نأتي إلى خاتمة ما أبدى عيسى لقومه من معجزات وهو إحياء الموتى ويلاحظ في هذه المعجزة أنها اقترنت بلازم شرطي هو إذن الله، وذلك لدفع التوهم لحصول هذا الفعل لاشتراك الفاعل في الألوهية مع الله عزّ وجلّ، فهذا الإذن في الحقّيقة هو تجريد من القدرة على الفعل بدونه سواء أكان لعيسى أم لغيره. وفيه إخلاص لله من عيسى وتسليم له بالأمر كله، وهذه المعجزات آيات من الله، إلى جانب الآية الكبرى وهي أن الله وحده هو القادر على فعل المعجزات وقد يختص بإذنه عبدا من عباده تظهر على يده هذه المعجزات وهو غير مستغربّ ولا مستعجب، فالله يختار من خلقه ما يشاء ليكون آية أو أن تظهر عليه الآيات.

المائدة غاية إطعام أم آية إفحام؟

قال الله عزّ وجلّ مخبرا عن الحواريين: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ ربّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}489.

قبل البدء بالحديث عن المائدة لابدّ أن نعرف ما المقصود بالمائدة؟

مستحدثة أم قديمة؟

لماذا طلبت؟

ما موقف عيسى عليه والصّلاة والسّلام؟

المائدة هي الطعام المعطى عطاءً490، وعيه فإن طلب الحواريين للمائدة كان طلبا للعطاء الإلهي لأنهم طلبوا مائدة من السماء إشارة بليغة إلى أن الطعام بأمر الله سبحانه وتعالى وليس من الله، لان الله يطعم ويرزق بأمره (كن).

فهل كانت المائدة مستحدثة؟ لا فهذا العطاء الإلهي كان من نعم الله على بني إسرائيل لكنهم بطروا نعمة الله وطلبوا استبدالها بما هو أدنى، فقد كان طعام بني إسرائيل ينزل إليهم من السماء مصداقا لقوله

489 المائدة 111-115.

490 لسان العربّ، ج 3، ص 411.

تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}491، إلا أن بني إسرائيل سألوا موسى أن يطلب من ربّه التغيير متذرعين بعدم الصبر على نوع واحد من الطعام، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}492، هنا يتبين أن المائدة ليست مستحدثة وإنما هي ممّا كان الحواريون يعرفون أن حدث مع غيرهم ثم انقطع بسبب بطر العباد.

هنا يأتي التساؤل لماذا طلب الحواريون المائدة؟ أشك في القدرة الإلهية أم في صدق نبيهم عيسى صلّى الله عليه وسلّم؟

لقد طلب الحواريون المائدة ليتحقّق عندهم أمران هما:

الأوّل: اطمئنان القلب، يحدث عند المؤمن أن يرتاب قلبه فيحتاج إلى الاطمئنان ليس شكا بقدرة الله أو ضعفا بالإيمان وإنما هو لتقوية الإيمان بالرّبط على القلب بربّاط الاطمئنان والأمر ليس ممّا يعاب عليه المرء، فقد طلب إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم هذا الاطمئنان مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

[491] الأعراف 160.

[492] البقرة 61.

تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[493].

الثاني: تصديق عيسى، والتصديق هنا ليس لشكهم في عيسى صلّى الله عليه وسلّم لكن لتكون من دلائل التصديق التي سيدعون النّاس من خلالها إلى طريق الحقّ لأنهم قالوا كما أخبر الحقّ (وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) أي نخبر بها بعد مشاهدة عينية كل من يسأل عن آية أو معجزة، وإخبارهم سيلقى آذانا صاغية لأنه إخبار حضور جماعي ولو كان إخبارا فرديا لكان غلب عليه الشك عند من يسمع، أما الإخبار الجماعي فيغلب عليه اليقين.

بقي أن نعرف موقف عيسى صلّى الله عليه وسلّم من طلب الحواريين!

يتجلى في النصّ القرآني استغراب عيسى صلّى الله عليه وسلّم من هذا الطلب (قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وهذا الاستغراب مصدرة يقين عيسى الذي يدفعنا إلى التساؤل:

هل استغربّ الطلب؟

أم استغربّ الطالب؟

نعتقد أن مقولة عيسى للحواريين تكشف عن يقين مطلق بقدرة الله سبحانه وتعالى وهو سلوك أراد له عيسى أن يتجسد في عقيدة الحواريين الذي هو أسوتهم الحسنة لأنهم قالوا له (هل يستطيع ربّك)،

[493] البقرة 260.

فلابدّ لعيسى أن يستغربّ السؤال لان يقينه المطلق هو أن الله على كل شيء قدير فهو يستطيع ولا شك.

إما وجه الاستغراب الآخر فيعود إلى طبيعة الطلب نفسه مقارنة بما رأى الحواريون من آيات ومعجزات، فلقد رأوا من الآيات العظيمة من إبراء الأكمه والأبرص وصولا إلى إحياء الموتى بإذن الله، ثم هم بعد ذلك يطلبون طعاما؟

فما هو موقف عيسى بعد هذا الاستغراب؟

إنّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم مؤمن بطبيعة كونه نبيا ورسولا، وما يجب عليه من محاجة النّاس بالتي هي أحسن ودون إكراه، كما انه عارف بطبيعة البشر وأنواع غرائزهم، ولذلك عندما قالوا له نريد أن نأكل منها شعر بالحاجة الغريزية عندهم إلى الطعام، ثم بعد أن قالوا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا شعر بالحاجة الفكرية، ولذلك تحول صلّى الله عليه وسلّم من استغرابه إلى القبول بما طلبوا ثم التوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والله شهيد على كل ما دار بينهم من حوار وهو الذي لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فطلبت المائدة للآتي:

1-الطعام: الطعام هو مشبع حاجة غريزية هي الجوع، وقد كان مطلبا للحواريين (نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا) وليس ذلك بعجيب عليهم، أليسوا بشرا تحركهم الغرائز التي خلقها الله فيهم كبقية خلقه؟ أليس رسولهم بشرا يأكل الطعام كما يأكلون؟ عليه فان طلب الطعام لإشباع الحاجة يتماشى مع سلوك البشر.

2- الاطمئنان: (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا) الاطمئنان القلبي حاجة تحتاج إلى مشبع، والحقّ أن المشبع هنا وان بدا ماديا إلا انه حقّق الغاية الروحية لان الوجل القلبي روحي ولا يمكن أن تشبعه المادة لكن يمكن

للمادة أن تكون حجّة روحية ودعامة تتقوى بها القلوب على اختلال التوازن فتستقر وتطمئن.

3-العيد: لقد عانى عيسى صلّى الله عليه وسلّم ومعه من أصحابه ما عانوا من رفض بني إسرائيل الاعتراف بهم وبدعوتهم، لذلك كانت المائدة مبعث فرح وسرور ليس للحظة الآنية لان ذلك سيبدو مهونا من قيمة الحدث بل هي للان وللمستقبل، لهم ولكل من يخلص لله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله تعالى: (تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا)

4- العبرة (وَآيَةً مِنْكَ)، لم يشأ عيسى صلّى الله عليه وسلّم أن تكون المائدة مجرد إطعام آني إشباعا لحاجة الجوع، بل كان من غاياتها أيضا أن تكون آية ليس للحضور وإنما لمن غاب في كل زمان ومكان وليس كما يعتقد البعض بخصوصية الحدث، لان من معطيات ما يكون آية أن يكون عبرة في كل زمان ومكان، عليه نقول إن الإطعام الآية هو عبرة دائمة لمن يعتبر فيستعظم الرزاق الذي رزق الطعام ويسبح له ويشكر، ألا ترى اعتبار زكريا وهو يرى إطعام الله سبحانه وتعالى لمريم آية منه مصداقا لقول الحقّ سبحانه وتعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}[494].

5- الرّزق، إن من غايات طلب المائدة سؤال الرزق من الله سبحانه وتعالى، وهذا هو بمثابة توجيه من عيسى لطبيعة الطلب إلى

[494] آل عمران 37-39.

حيث يقترن من أسماء الله الحسنى، فلأن المائدة هي رزق فقد طلبها عيسى من الرزاق سبحانه (وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)، لخصوصية الصفة في الاسم الرزاق، كما طلب زكريا وارثا من الوارث جلّ وعلا، {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}495، هكذا نعتقد أن توجيه الدعاء إلى اسم الله المخصوص بالصفة هو من موجبات الإجابة كما تبين وتعلم الآيات الكريمة.

وهذه المطالب كلها ممّا يطلب من الله عزّ وجلّ وحده، لأنه الرزاق المطلق الذي يرزق بغير حساب وهكذا كانت إجابته عزّ وجلّ مع شدة في التنبيه على مع من مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم بوبال وعاقبة الكفر بعد الآيات المفحمة، وهذا النص الإلهي (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) لا يقتصر على من أكل من المائدة بل أصبح قاعدة إلهية مفادها:

(الكفر بعد الآيات إصرار على المعصية وكل إصرار عقابه العذاب المخصوص له دون غيره).

ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

خصوصية الجعل في عيسى:

قال الحقّ سبحانه وتعالى عن عبده عيسى: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}496، ترافق في عديد من الآيات ذكر الجعل مع عيسى بشكل يميزه على سبيل التفضيل الذي أشار إليه المولى عزّ وجلّ في قوله: {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى

495 الأنبياء 89.

496 الزخرف 59.

بَعْضٍ}497، ونقول على سبيل التفضيل: أنّ الجعل في الذات لم يرد إلا مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم ولكي تتجلى أهمية البحث في هذا الموضوع لابدّ لنا من تساؤلات تفضي إلى كشف الحُجب عن الحقّائق وتسير بنا إلى الهدى على النحو الآتي:

ما الجعل؟

ما أنواعه؟

ما مصدره؟

ما الجعل في عيسى؟

لماذا عيسى؟

ما أثر الجعل في الدعوة؟

للجعل في معاجم اللغة والاصطلاح تفسيرات متعددة، ففي اللغة نجد أن الجعل له أكثر من دلالة هي:

1- جَعَلَ الشيءَ يَجْعَله جَعْلا وَضَعه.

2- وجَعَلَه يَجْعَلُه جَعْلا صَنَعه.

3- وجَعَله بمعنى: صَيَّرَه.

3- وجعله بَيَّنَّه.

4- جعلت زيدا أَعلم النّاس أَي قد وصفته498.

---

[497] البقرة 253.

[498] لسان العربّ، ج 11، ص 110.

يُلاحظ أن مجمل تفسيرات اللغويين تذهب إلى أن دلالة الجعل تخرج عن كون الجعل أثرا في الذات إلى ما هو خارج الذات، ولعلهم في ذلك يقصدون نوعا واحدا من الجعل أي الجعل النسبي المتعلق بمجعولات الإنسان.

أما كتب الاصطلاح فتضع بدورها مجموعة تفسيرات للمصطلح على النحو الآتي:

الجعل تغيير صورته بإيجاد الأثر فيه وبغير ذلك.

والجعل أيضا يكون بمعنى الإحداث وهو قوله تعالى (وجعل الظلمات والنور).

وجاء أيضا بمعنى الخبر في قوله تعالى: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرّحمن إناثا)، أي أخبروا بذلك.

وبمعنى الحكم في قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج)، أي: حكمتم بذلك499.

قال أبو حيان: إنّ الجعل تحويل الشيء من حالة إلى أخرى500.

الجعل بمعنى الإنشاء والإيجاد وهو مخصوص به تعالى501.

أن يجعله بمعنى التعليم كقوله: جعلته كاتبا وشاعرا إذا علمته ذلك502.

[499] – الفروق اللغوية، ج 1، ص 376-377.

[500] – تفسير الألوسي، ج 2، ص 40.

[501] – تفسير الألوسي، ج 5، ص 234.

[502] – تفسير الرازي، ج 2، ص 233.

ويُلاحظ أنّ علماء الاصطلاح يذهبون إلى توسيع دلالة المصطلح ليشمل الجعل المطلق المتعلق بالإرادة الإلهية، والجعل النسبي الذي يمارسه الإنسان بما آتاه الله عزّ وجلّ من قوّة في خلقه وإرادته.

أما نحن فنقول: إنّ الجعل أثر في الشيء وفي الذات وما حولها وهذا مختص بالله عزّ وجلّ، وأما أثر فيما سوى الذات فهو للإنسان.

نعرض الآن لمتعلق بالمفهوم مفسرا له وموضحا لحدوده يتمثل في أنواع الجعل وهي:

الجعل النسبي وهو الجعل الذي يختص بالإنسان حيث تكون القدرة على إحداث الأثر نسبية من جهة وهو أثر متغير من جهة أخرى مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقوّة أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ ربّي فَإِذَا جاءَ وَعْدُ ربِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ ربّي حقّا}503، فجعل ذي القرنين هو أثر نسبي لأنه لم يستطع إحداث الأثر المطلق في التغيير، وهو جعل متغير بأمر الله عزّ وجلّ.

الجعل المطلق وهو فعل مرتبط بالإرادة الإلهية وينقسم بدوره إلى:

---

[503] الكهف 93-98.

عام، الجعل العام يتعلق بالقوانين التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون وما فيه فجعل قانون التعاقب الزمني، وجعل ما يترتب عليه من قوانين أخر

وجعل الله هو أثر في مخلوقاته، فقد خلق الأرض والسماء والشمس والقمر وهذه من مخلوقات الله عزّ وجلّ ثم جعل فيها ما جعل من الآيات المادية المتمثلة بالمنافع التي أردا الله عزّ وجلّ أن يستفيد منها الإنسان في أعمار الأرض، ومن الآيات المعنوية التي تمد الإنسان بما يقوي عقيدته مصداقا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}504، {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}505، كذلك فإن من الجعل العام ما جُعل في ذات الإنسان من رحمات الله عزّ وجلّ به، فجعل الأزواج والذرية، يقول سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}506. وجعل لنا أدوات التواصل مع الآخر، {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}507. وجعل كثير آخر أكبر من أن نحصيه ولكن مثلنا للدلالة على الجعل العام المطلق.

---

[504] الفرقان 61-62.

[505] النحل 81.

[506] الأعراف 189.

[507] النحل 78.

هذا هو الجعل العام أي أن كل المخلوقات ومنهم عيسى نالهم من هذا الجعل شيء، وهم في ذلك متساوون بإرادة الله عزّ وجلّ فلا مخصوص فيهم.

ب-خاص مطلق، وهو من الله عزّ وجلّ لأنه مطلق لا يقدر عليه إلا هو جلّ وعلا ولكنه جعل مخصوص لحالات معينة أو ذوات مخصوصة، أما فيما يتعلق بالحالات المعينة فنذكر على سبيل المثال لا الحصر جعل الإحاطة المنجية للنبي صلّى الله عليه وسلّم في حادثة تآمر المشركين لقتله مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}508.

أمّا الجعل في الذوات المخصوصة فهو ممثل في عيسى وأمه والمخلصين من أتباعه على وجه التحديد كما يذكر لنا القرآن الكريم.

وقبل الحديث عن تفصيلات ذلك نشعر بأهمية الوقوف عند مسألة الجعل في الذات لنوضح بقدر المستطاع ما المقصود بالجعل في الذات؟

الذات هي: "ذات الشيء: نفسه وعينه، وهو لا يخلو عن العرض، والفرق بين الذات والشخص: أن الذات أعم من الشخص، لأن الذات تطلق على الجسم وغيره، والشخص لا يطلق إلا على الجسم"509.

على ذلك يتبين أن ذات الشيء تشمل معنى كلي للدلالة عليه وهي للإنسان مزيج الجسد والروح، فالجعل في الذات هو الأثر في أيهما أي في الروح أو في الجسد أو في الاثنين معا.

---

[508] يس 9.

[509] التعريفات، ج 1، ص 35.

فما هو هذا الأثر؟

وما الغاية منه؟

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات يمكن أن تتحقّق في الحديث عن الجعل في ذات عيسى لأنه الأبرز من الخلق التي تجلى فيها الجعل ودار جدال حوله في موضوع الجعل حيث اختص الله عيسى بجعل خاص.

فما الجعل في عيسى؟

تعددت أوجه اقتران الجعل المطلق بعيسى في الآيات الكريمة ونعتقد أنّ ذلك تأكيد من الله عزّ وجلّ على خصوصية ما في ذلك نحاول قدر استطاعتنا إلقاء الضوء على بعض مكنوناتها على النحو الآتي:

1- يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}510

عيسى عبد الله البشر الرّسول جُعل نبيا والأنبياء كما هو مذكور في النص الكريم مصطفون أي يصطفيهم الله عزّ وجلّ ليكونوا أنبياء، هنا تتبادر التساؤلات الآتية:

ألم يكن عيسى مصطفا؟

أيكون الجعل غير الاصطفاء؟

نقول أولا مع إيماننا بأن النبوة اصطفاء إلا أن الاصطفاء لم يذكر مع عيسى وإنما ذُكر مع أمه الصديقة مريم عليها والصّلاة والسّلام بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ

[510] مريم 30.

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}511، ثم إنّ آل عمران من المصطفين وعيسى حفيدهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}512، لكن ذلك كله لا يؤدّي إلى قطعية القول باصطفاء عيسى ولعل ذلك راجع إلى مسألة يريد لنا المولى عزّ وجلّ البحث فيها مفادها أن للاصطفاء شروط تكاد تنطبق على كل الأنبياء والرّسُل من حيث زمن الاصطفاء، حيث لم يذكر اصطفاء نبي إلا بعد البلوغ والرشد كما مع يوسف صلّى الله عليه وسلّم، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}513، وكذلك مع سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}514، وأخيرا مع نبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولكن عيسى صلّى الله عليه وسلّم ولد وكان معه التكليف، {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}515، فالتكليف ظهر في طفولة المهد لذلك نعتقد أن الجعل أنسب من الاصطفاء في سياق بيان التكليف بالنبوة بالنسبة لعيسى صلّى الله عليه وسلّم لان من معاني الجعل هو العلم أن يجعله بمعنى التعليم كقوله: جعلته كاتبا وشاعرا إذا علمته ذلك516.

فالنبوة هنا علم من الله عزّ وجلّ لعيسى أخبر به لمن طلب الإخبار ممن حوله في المهد.

---

[511] آل عمران 42.

[512] آل عمران 33.

[513] يوسف 22.

[514] القصص 14.

[515] مريم 29-30.

[516] تفسير الرازي، ج 4، ص 227.

من هنا نقول: أنّ الجعل غير الاصطفاء، واعتقد أن الجعل أوسع من الاصطفاء، فالاصطفاء ربّما يكون جزءا من الجعل أو لنقل مرتبة سابقة للجعل، ونعتقد أن اصطفاء عيسى كان في اصطفاء آل عمران ولكن من هذا الاصطفاء العام (آل عمران) جعل نبيا بقدرة الله عزّ وجلّ، لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد في الأزل فهو قادر على الإيجاد فيما لا يزال517.

2 – جعله مباركا، {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ}518.

البركة: الخير واليمن، والمبارَك: الذي تُقارن البركةُ أحوالَه في أعماله ومحاورته ونحو ذلك، لأن المبارك اسم مفعول من باركه، إذا جعله ذا بركة، أو من بَارك فيه، إذا جعل البركة معه.

ذلك أن الله أرسله برحمة لبني إسرائيل ليُحلّ لهم بعض الذي حُرم عليهم وليدعوَهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه. ومن بركته أن جعل الله حُلوله في المكان سببا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير، ولذلك كان إذا لقيه أحد وهو على الجهالة فدهاه انفتح قلبه للإيمان والحكمة، ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشّارين فصاروا دُعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة519.

ولقائل أن يقول كيف جعله مباركا والنّاس كانوا قبله على ملة صحيحة فلما جاء ظل بعضهم يهودا وصار بعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحقّ إلا القليل، والجواب ذكروا وجوها: أحدها:

517 – تفسير الرازي، ج 3، ص 112.

518 – مريم 31.

519 – تفسير ابن عاشور، ج 5، ص 567.

أن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلني ثابتا على دين الله مستقرا عليه.

وثانيها: أنّه إنّما كان مباركا لأنه كان يعلم النّاس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحقّ فإنّ ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله.

وثالثها: البركة الزيادة والعلو فكأنه قال: جعلني في جميع الأحوال غالبا مفلحا منجحا لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعليا بالحجّة فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء.

ورابعها: مبارك على النّاس بحيث يحصل بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وقوله أَيْنَ مَا كُنتُ فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف.

3- جعله برا {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي}[520]، البر صفة حسنى يستمدها العبد الصالح من صفة بر المستمدة من اسم الله البر وهو الذي يلتجئ إليه عند كل حاجة أو شدة، وهو الذي يمد بالعون والمنفعة، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

والبر هو المتسع بملكه وهيمنته وبواسع رحمته، وهو الذي يملك الملك بالمطلق فلا ينقص من بره شيء، وهو الرّحمن الرّحيم.

البر الرّحيم: هو الذي يرحم كلما تم الالتجاء إليه، ولذا كلما التجأ إليه أحد حفظه من كل سوء وعطش وجوع وفاقة. فالبر هو الذي يستوعب الكل دون أن يستثني أحد من بره، ولذا فهو البر الكامل بالحسنات ولا نقيصة فيه.

---

[520] مريم 32.

البر مصدر وليس مشتقا، أي انه مصدر للاشتقاق، ولذا تستمد الحسنات منه.

والحقّيقة التي لا جدال فيها أن كل مظهر من مظاهر البر سره يكمن في سريان نور الاسم البر في هؤلاء الرحماء وغيرهم من مخلوقات لا يحصيها إلا الله البر الرّحيم.

و (الْبِرُّ) بكسر الباء، هو مجموع الخلق الحسن والخير والإحسان في صوره وأفعاله، وهذا هو المظهر العملي للبر أو ما يمكن أن نسميه بالنمط السلوكي المشتمل على القول والفعل والحافز الذي يحفز الفرد للفعل بدافع من الشعور الداخلي المفعم بكل أحاسيس الوفاء والرغبة في تقديم فعل ممّاثل لما قدّم له من خير في مراحل عمره المختلفة، لذلك فإن البار وهو المتخلق بهذا الاسم يحوي الشكر والعرفان وأداء ما عليه من واجبات تجاه الآخرين، سواء أحسنوا إليه أم أساءوا، فيتوجه بالرحمة والبر لكل مخلوق على وجه البسيطة، وهذا المتخلق الأمثل بالبر المطلق هو مدار البحث في موسوعة الأسماء والصفات من حيث المدلول والعلاقة بالخليفة المتخلق بالاسم البر.

والبَرُّ من صفات الله تعالى وتقدس "العَطُوفُ الرّحيم اللطيف الكريم"، البَرُّ وهو العَطُوف على عباده بِبِرِّهِ ولطفه، والبَرُّ والبارُّ بمعنًى واحد وإِنما جاءِ في أَسماء الله تعالى البَرُّ دون البارّ[521]. وهذا لأنّ البر مصدر من حيث اللغة والبار مشتق اسم فاعل ولا يصح أن يكون البر المطلق الذي يسع الكون ومن فيه وما فيه مشتق من غيره بل الذي يصح أن يكون البار الذي يتمثل الاسم البر أن يكون مشتقا من البر الأعظم المطلق فيتمثل أمره ويجتنب نهيه والذي يتمثل بالبر هو الخليفة

---

[521] لسان العربّ، ج 4، ص 51.

الذي يسع غيره بجوده وإحسانه وعطفه ولطفه وكرمه. البر يمن بعطائه على عباده في الدنيا والآخرة ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان522. فهو البر بعباده، العطوف عليهم.

وعيسى استمد هذه المعاني من اسم الله تعليما بالجعل برا بقدرة الله عزّ وجلّ، ولعل تساؤلا يفرض نفسه هنا:

ألم يقتصر بر عيسى على أمّه؟

نقول إن الحديث بسياقه في المهد هو حديث مبين وموضح عن عيسى في الميلاد لا عن عيسى الذي سيكون، فهو يتحدث عن القريب وهي مريم التي تواجه أشد حالة تواجهها امرأة صالحة فلقد جاءت شيئا فريّا حسب ادعائهم، لذلك نطق عيسى بالبر بها مواساة من الله عزّ وجلّ لصديقة مصطفية وكان النطق هنا يناسب سياق الحدث، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النطق ببر الأم فقط تنزيها عن الوالد أي أن عيسى بهذا التكليم الآية المعجزة نفي وجود الأب بالمطلق فنزه أمه ونزه نفسه من ادعاءات ستحصل فيما بعد.

أمّا عيسى فقد كان برا بوالدته وبالنّاس جميع وما من دليل مؤكد لذلك البر من آياته ومعجزاته فقد كانت كلها برا بالنّاس فكانت شفاءً لأمراضهم وبراءً لعللهم وهذا من البر والرحمة بهم.

الجعل جبارا، {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}523.

قد يتبادر إلى الذهن أن لا جعل في هذه الآية، ولكن جعلا مخصوصا يبدو واضحا فيها، فالآية لم تنص على أن لم يجعله جبارا لان

---

522 عبد المقصود محمّد سالم، في ملكوت الله مع أسماء الله، ص 104.

523 مريم 32.

عندها سيكون هناك نفي للجعل جبارا وإيحاء بجعل آخر، لكن الآية حددت أنه لم يجعله جبارا شقيا، أي أن الله جعل عيسى جبارا تقيا، والجبار التقي هو الذي يستمد صفاته من صفات الجبار عزّ وجلّ جابر الكسر وواصل القطع سبحانه وتعالى وفقا للقواعد الآتية:

قاعدة جبر الروح مع الكائن:

الروح مخلوق مستقل حاله من حيث الخلق كحال أي مخلوق، إلا أنّ الروح لا يشاهد بالرغم من الإحساس بأثرها ولا يُسمى الكائن حيا إلا إذا دخلته الروح، والروح لا تدخل الأجساد ولا تخرج منها أو تفارقها إلا جبرا، والجبر لا يتم إلا بقوّة من الجبار الأعظم جلّ جلاله، فالروح والجسد شيئان غير متشابهين ولا متماثلين بقوّة الجبار الحكيم يصبحان شيئا واحدا لا يمكن الفصل بينهما، هذه لله عزّ وجلّ بالمطلق لكن عيسى أختصه الله بإذن منه مخصوص ليكون جبّارا ودلل عزّ وجلّ على ذلك في عدة آيات هي:

1- {أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}[524].

2- {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}[525].

قاعدة جبر النفس:

مع أنّ الأنفس تتنوع وتتعدد بالشح والاطمئنان واللوم والأمر بالسوء والأمر بالمعروف، إلا أن منها ما يتآلف بعضه مع البعض، ومنها ما يرفض بعضه بعضا، وبالإجبار تتم الموائمة طوعا وكرها، قال

---

[524] آل عمران 49.

[525] آل عمران 49.

تعالى: {وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها}526، وفي كلتا الحالتين (الطوع والكره) هناك إجبار:

الإجبار الإرادي بالقبول والاستحسان والتآلف وهو القبول الطوعي الذي تترتب عليه صلة وعلاقة برغبة، وهذا الأمر يجعل العلاقة بين الأنفس تمتد وتُربّط بقبول مع فائق التقدير والاحترام المتبادل وهذا متحقّق مع عيسى من خلال أمرين هما:

القدرة على إقامة الحوار مع الآخر: (تُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا).

أي يكلم النّاس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء527.

إن الآية وإن كانت تتحدث عن الكلام لكنها لا تعني الكلام العادي المجرد عن المضامين والقيم المهمة والمغيرة للواقع إلى واقع جديد من العقيدة الجديدة لذلك فإن تكليم عيسى هو تكليم منطق عقدي سليم يخاطب الأفكار ويطمئن القلوب ويطهر النفوس وهذا هو التواصل الحقّيقي مع الآخر.

قدرة الشفاء التي وهبها الله له مصداقا لقوله تعالى: (وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي).

---

[526] آل عمران 83.

[527] تفسير الكشاف، ج 3، ص 444.

قاعدة جبر العقيدة:

مع أنّ الدين مصدر للعقيدة، إلا أنّ الدين من عند الله تعالى، أمَّا العقيدة فهي رابطة قيمية وأخلاقية توثق بين النّاس وبين ما يعتقدون فيه أو يؤمنون به. ولذا لولا الإجبار ما كانت العلاقة بين الدين وبين البشر، فالبشر مادة لهم من العواطف والمشاعر والأحاسيس. أمَّا الدين فكَلِمْ وحجّة ومواعظ تُنظِم حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية، وارتباط البشر إيمانا بالكلم الحقّ لا يتم إلا بقوّة الجبَّار الحكيم، وإلا كيف يمكن لها أن تتم لولا مشيئة من يريد لها أن تتم بيسر ومحبة وشوق. وهذا الأمر لا يجعل الإكراه فعلا قاسيا، بل أنه الفعل المتمشي مع طبيعة الخلق. وفي مقابل ذلك عندما يظهر فعل الرفض للدين أو المعتقد يظل في فعل أمره غير متمشي مع الطبيعة الخلقية.

عيسى كان جبّارا للعقيدة عندما أعلن عن كونه مصدق بمن سبق ومبشر بمن سيأتي (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) وهو بهذا جبار بما وصل بين أنبياء الدين الواحد.

قاعدة جبر الخواطر:

النّاس بطبعهم يحبون ويكرهون، يغضبون وينبسطون، وبهذا تكون عليهم ولهم مآخذ، ممّا يجعل الأخوة وذوي الحقّوق يحتجُّون على بعضهم في كل تقصير أو ارتكاب خطأ، ويجعل الكبير يأخذ بيد الصغير، ويجعل الصغير في حالة أدب يعتذر لمن هو أكبر منه سنا، ويجعل المؤمن يستغفر من كل ذنب ويتسامح، فبهذه المواعظ والعبارات

الإصلاحية تُجبر الخواطر، وبها تكون اللُحمة، وتعود المياه كما يقولون لمجاريها، {قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين}528، وقوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون}529. الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات هو الجبار جلّ جلاله الذي يأمر بالتسامح في كتابه العزيز بين النّاس المستخلفين في الأرض.

ومن يريد أن يكون خليفة عليه بالتسامح الذي به تُجبر الخواطر بين النّاس وخاصة ذوي العلاقة، ولهذا فالاعتراف بالخطيئة فضيلة بين النّاس في كثير من الأحيان يترتب عليها أفعال التسامح لا أفعال الإدانة التي تصدر في دوائر المحاكم التي تُجرِّم كل من يعترف بذنب أو عملٍ يقترفه، ومع ذلك بالتسامح يتم الإعفاء وبالاستغفار تزداد التوبة.

وعيسى جبر خواطر أتباعه بالنزول عند رغبتهم في مائدة يأكلون منها وتطمئن قلوبهم إلى صدق عيسى فطلبها من الله عزّ وجلّ ولم يكن يريد لنفسه شيء من ذلك، وإنما أراد أن يجبر خواطرهم بتلبية رغبة كان تجول في وجدانهم مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ ربّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}530.

[528] يوسف 97.

[529] الشورى 25.

[530] المائدة 112-114.

إنَّ عيسى يعلم بما علمه الجبار أن جبر الخواطر يعيد الاتصال بالآخر والتواصل معه ويفتح آفاق التعايش والسّلام من أجل علاقات مشتركة ومستقبل أفضل.

قاعدة جبر الحاجة مع مشبعاتها:

لو سألك أحد عن العلاقة الغريزية بين العطش والماء، والعلاقة بين الجوع والأكل، والعلاقة بين الجنس والسكينة، والعلاقة بين الخوف والاطمئنان، والعلاقة بين الظلم والعدل. لن تكون لك إجابة إلا أن تقول لا علاقات بينها إلا بالإجبار، ولن يستطيع القيام بهذه العلاقات على الكمال والتمام إلا عظيم جبّار. فمع أنّ العطش والجوع والجنس والخوف إحساسات تجول بداخل الإنسان ونفسه، إلا أنها لا تشبع إلا من خارجها إشباعا ماديا، ولذا لن يتحقّق الرضا النفسي للإنسان إلا بما يشبع الحاجة. ولهذا فالقاعدة: (يتحقّق الرضا بما يشبع الحاجة ولا تجبر الحاجة إلا بمشبعاتها). إن عيسى قدّم مجموعة من مشبعات الحاجة فقد قدم لهم الدواء الشافي من الأمراض ببركته التي جعلها الله فيه، كذلك قدم لهم المائدة وهي إشباع لحاجة مادية ومعنوية معا وهو بذلك تخلق بصفات اسم الله الجبار يقينا وسلوكا.

5- جعله آية، يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}531، ويُلاحظ في هذا الجعل أمور منها:

أ- جعل الاثنين (مريم وعيسى) حالة واحدة (آية)

ب- تنكير آية له دلالة على مضمون الجعل

[531] المؤمنون 50.

نناقش المسألة الأولى ونذكر أن عيسى غير مريم بما فيهما من متباينات التي منها:

عيسى نبي ومريم ليست كذلك.

عيسى ابن مريم، ومريم بنت عمران.

عيسى من غير أب ومريم من أم وأب.

عيسى مرفوع إلى السماء حي ومريم ماتت.

وكثير من المتباينات نكتفي بما عرضنا لنصل إلى التساؤل:

كيف كان أن اجتمع الاثنين في آية واحدة؟

إن البحث في هذا التساؤل يتطلب منا مجموعة افتراضات تساهم في الوصول إلى حقّيقة فهم الآية وهي:

عيسى بدون مريم ليس آية

مريم بدون عيسى ليست آية

إذا في اتحاد العلاقة بين الطرفين تتشكل الآية، فما طرفا آية واحدة لا يمكن لأي منها على حدة أن يكون الآية التي أراد الله أن يبنها للناس، فلو أن مريم لم تلد عيسى لعاشت صديقة كريمة دون أن تكون آية إلا إذا شاء الله لها ذلك، ولو ولد عيسى من غير أمه (مريم) بغير طريقة ولادة مريم له لكانت ولادة عادية ولم تكن آية إلا إذا شاء الله لها ذلك.

أما التنكير فهو مفسر لعمق دلالة الجعل التي أراد الله للآية أن تكون عليه من جهة، ولطبيعة الخلق المعجز لعيسى والاصطفاء الخاص لمريم من جهة أخرى.

جعله مثلا، {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}532.

يصف ابن عاشور هذه الآية بأنّها "من أخفي آي القرآن معنى مرادا"533، بينما يقول الرازي في تفسيرها: "ثم قال تعالى: (إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ) يعني ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُمْ) لولدنا منك يا رجال (ملائكة فِي الأرض يخلفون) كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد في الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك (وإِنَّهُ) أي عيسى (لَعِلْمٌ لّلسَّاعَةِ) شرط من أشراطها تعلم به فسمي الشرط الدال على الشيء علما لحصول العلم به"534.

ونقول إن الجعل مثلا حاصل بالفعل إلى الآن وسيبقى لان عيسى له خصوصية على كل الخلق حسب ما أعلمنا الله واخبر عن ذلك وهو اعلم بغيره، فهو الوحيد الذي خُلق من أم ودون أب على هذه الأرض خلقا معجزا يوجب أن يكون آية معجزة ومثلا يُضربّ، والأمثال لا تُستقى من العام المعروف، وإنما تستمد من الخاص القريب أي أن السلوكيات العامة والنماذج المعروفة لا تكون مادة المثل بل إن الخاص من المعروف والظاهر والمتعارف هو الذي يُضربّ مثلا وهكذا كان

532 الزخرف 57-59.

533 تفسير ابن عاشور، ج 2، ص 456.

534 تفسير الرازي، ج 6، ص 222.

عيسى حالة خاصة تنطبق عليها شروط المثل فكان مثلا ضربّة الله عزّ وجلّ لنا ولغيرنا ليكون عبرة ومُقتدى.

لماذا الجعل في عيسى؟

هذا التساؤل ليس عن الإرادة حاشا لله فنحن على الإيمان المطلق بأنّ الله يفعل ما يريد مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}535، وإن كل ما يريد عزّ وجلّ حقّ، فالتساؤل ليس لغاية البحث في الأسباب وإنما لمقصد إيضاح الاختصاص الذي أُختص به عيسى دون غيره.

لقد بينا في أثناء حديثنا عن عيسى طبيعة المغايرة في خلق هذا النّبي الرّسول عن غيره من الأنبياء والرّسُل في الخلق والتكليف وفي عدة متغايرات مع تأكيدنا على وحدة الرّسالة التي جاء بها والتي جاءت مصدقة لمن قبله ومبشرة بمن جاء بعده، كما وضحنا طبيعة المتماثلات التي خص الله عزّ وجلّ عيسى بذكرها في قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}536.

لكن الجعل لا هو من المتغايرات ولا هو من المتماثلات وإنّما هو من المخصوصات التي خص الله بها عيسى لدواع يعلمها هو جلّ خلاله ونجتهد في البحث عن بعضها.

إنّ ظهور عيسى صلّى الله عليه وسلّم نبيا رسولا بالصورة التي أرادها الله يمثل تحديا لإرادة التصديق وذلك لان الخارق اللامعقول عند نسبي الإدراك قد تحقّق وهذا يعني أن صراعا سيحدث بين التصديق والتكذيب وسينتج عنه تصديقا محدودا بقدر سماح الإدراك بالتصديق،

---

[535] الحج 14.

[536] آل عمران 59.

وتكذيبا أوسع من واقع الإدراك المحدود، وهنا يظهر الجعل وكأنه ضرورة من ضرورات التصديق، فلو سُئل مصدق عن علة التصديق وجاء بالجعل آية (وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) لوضع السائل بين خيارين هما:

يصدق قلبه بآيات الله.

ينكر عقله المادي ما يسمع.

فعيسى جُعل للقلوب والعقول التي تهديها الروح إلى الإيمان بالحقّ وإتباعه وهو ضرورة لهؤلاء لأنه يُنزل الطمأنينة في قلوبهم ويزيدهم إيمانا، نحن نتحدث عمن يبحث عن الإيمان فانّه يجد في جعل عيسى قوّة لعقيدته وغبطة لسروره وهو يرى آيات الله المعجزة تتحقّق في جعل عيسى الطفل المولود من غير أب نبيا رسولا.

أما المنكر فهو في الحقّيقة عاجز ضعيف عن إدراك الجعل آية لأنه لا يمتلك أدوات التصديق، فالتصديق يحتاج إلى عقيدة سليمة، راسخة لا تتزلزل والأمر يحتاج إلى قوّة، لان السهل أن ترفض وتشيح بوجهك بعيدا لكنك ستبدو ضعيفا وأنت تنأى بنفسك عن الميدان، والأصعب أن تصدق لأنك لن تصدق منقولا محضا ولا موصوفا رسما لكنك ستصدق يقينا معقولا وحجّة قاطعة وعندها ستكون قويا كلما بحثت في أمر هذا الجعل الآية.

ميثاق عيسى:

يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النّبيينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}[537].

---

[537] الأحزاب 7.

تكشف هذه الآية عن حقّيقة هي أنّ الله جلّ وعلا أخذ الميثاق من الأنبياء والرّسُل، وعيسى صلّى الله عليه وسلّم كان ممن أُخذ الميثاق منهم لذا فمن الأهمية بمكان أن نقف مع ميثاق عيسى، ولابدّ لذلك من مجموعة تساؤلات نستدل بها على حقّيقة المفهوم وحدوده وعلى النحو الآتي:

ما الميثاق؟

ولماذا؟

ومتى؟

وكيف؟

لتوضيح هذه التساؤلات لابدّ لنا من العودة إلى مفهوم الميثاق، فعلماء اللغة يقولون إن الميثاقُ هو العهد538، ويشدد آخرون على مفهوم العهد فيقولون إن الميثاق توكيد العهد من قولك أوثقت الشيء إذا أحكمت شده539، وقال بعضهم العهد يكون حالا من المتعاهدين والميثاق يكون من أحدهما.

وهذا المفهوم اللغوي هو ذاته مفهوم المصطلح عند مفسري الاصطلاح، يقول ابن عاشور: "والميثاق: اسم العهد وتحقّيق الوعد، وهو مشتق من وثق، إذا أيقن وتحقّق، فهو منقول من اسم آلة مجازا غلب على المصدر، وتقدم في قوله تعالى: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه). وإضافة ميثاق إلى ضمير النّبيين من إضافة المصدر إلى

[538] لسان العربّ، ج 10، ص 371.

[539] الفروق اللغوية، ج 1، ص 361.

فاعله على معنى اختصاص الميثاق بهم فيما أُلزموا به وما وعدهم الله على الوفاء به"540.

وهكذا فقد حصر علماء اللغة والاصطلاح مفهوم الميثاق بالعهد، والعودة إلى نصوص القران الكريم تُظهر أن الميثاق دلالته تتوسع بما يقترن به، فهو مفهوم عام يحدده ما يقترن به أو ما يفسره، فما هو الميثاق في القران الكريم:

العهد بالتوحيد، {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}541.

العهد بالتبيين وعدم كتمان الحقّ، {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}542.

العهد بالعبادة والعمل، {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ والصّلاة وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}543.

والصّلاة

الزكاة

الإيمان

[540] التحرير والتنوير، ج 2، ص 249.

[541] البقرة 83.

[542] آل عمران 187.

[543] المائدة 12.

التعزير

حسن المعاملة

العهد بقول الحقّ، {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}544.

العهد بالتصديق، {وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النّبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي}545.

فالميثاق في القران الكريم هو مبدأ الالتزام بالعهد في كل ما يُتعاهد عليه.

ومن التفسيرات التي وردت في تفسير الميثاق لدى عدد كبير من المفسرين أنّ الله يأخذ ميثاق الأنبياء بالتصديق بمحمّد رسولا خاتما والإيمان بما جاء به ونصرته إن هو ظهر بينهم في أي وقت وأي زمان.

ونعتقد أنّ هذا فيه نظر كبير وذلك من خلال ما يطرح هذا الرأي من تساؤلات مهمة توهم بما لا يجب أن يتوهم به أحد واليك التساؤلات التي يطرحها هذا الرأي:

ألا يعلم الله جلّ وعلا أن لا نبي سيحضر دعوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟

أهناك شكّ يوجب الميثاق في إخلاص الأنبياء التصديق بمحمّد؟

544 الأعراف 169.

545 آل عمران 81.

أ يحتاج محمّد ميثاقا للإيمان به؟

إنّ هذه التساؤلات تجعل من هذا الرأي يجانب الصواب لانّ فيه ممّا يمس العقيدة كالشك في علم الله حاشا لله أو الشك في إخلاص الأنبياء معاذ الله ويرفضه المنطق لانّ مرتكزاته ضعيفة إلى حد كبير وهناك ما هو أقوى منها.

واليك ما نعتقد في تفسير الميثاق وطبيعته.

إنّ الميثاق كما هو منصوص عليه في كتب اللغة العهد المؤكد، فماذا أخذ الله من النّبيين ليكون عهدا مؤكدا؟

نقول: إنّ الآية التي اعتمد عليها المفسرون توضح إلى حد كبير ماهية الميثاق يقول جلّ وعلا: (لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)، وذلك من خلال ما يلي:

هذه الآية ليس فيها تخصيص أو تحديد لهذا الرّسول المصدق، فالآية لم تنص على أنه محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهذا الإطلاق إنما يعود بنا إلى حقّيقة هي أن الله عزّ وجلّ جعل هذا الأمر وهو أمر التصديق من قبل السابق للاحقّ ميثاقا ثابتا لكل الأنبياء بحيث تكون الرّسالة واحدة ومتصلة من آدم إلى محمّد، وهذه هي حقّيقة الأنبياء في القران الكريم الذي وضح إلى حد كبير طبيعة العلاقة بين المتوالين منهم وكلها تقوم على التصديق المؤدي إلى التواصل لا الانقطاع، فموسى صلّى الله عليه وسلّم صدق بما جاء به يوسف مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ

هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ}546، وصدق عيسى بموسى، {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}547، وصدق محمّد الرّسول الخاتم بكل من سبقه من الأنبياء والرّسُل وبكل كتبهم مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}548، وهذا هو الميثاق الواحد الذي أُخذ من جميع الأنبياء والرّسُل، وكذلك فان فللمؤمنين ميثاق نص عليه المولى عزّ وجلّ فقال: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}549.

والذي نصل إليه من هذا كله إن إخبارا حاصلا من الله جلّ وعلا لأي نبي ورسول بالرسالات التي سبقته كلها وما سيأتي بعده من أنبياء ورسل لتتحقّق وحدة الإيمان فتتصل عقيدة التوحيد ولا تنقطع فهي من يوم الدين (إني جاعل في الأرض خليفة)، إلى يوم الدين {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}550.

---

546 غافر 34.

547 المائدة 46.

548 المائدة 48.

549 البقرة 285.

550 الانفطار 17-19.

الأمر الذي يحتاج إلى ميثاق وهو العهد المؤكّد ليس من الأنبياء على وجه التحديد ولكن هو ميثاق الأنبياء الذي واثقوا به أتباعهم، فيكون التفسير هو أن الله أخذ من النّبيين الميثاق الذي اختاروه لتأكيد العهد عند الأتباع بأن يصدقوا بالرّسُل الذين سيأتون من بعدهم ومصداقه وصية إبراهيم لأبنائه وسؤال يعقوب لبنيه فقد أخذ العهد منهم بالثبات على العقيدة مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}551.

يلاحظ أنّ في الآية إشارة إلى عدم الاختصاص بالتبليغ، أي: أنّ الأنبياء والرّسُل هم رجال مسيرة واحدة فلا يختص أحدهم بهذا الأمر على وجه التحديد، بل هو أمر تكليف عام لكل من يصطفيه الله جلّ وعلا، وهذه من الأمور التي أراد الله لها أن تكون سنة في الأنبياء والرّسُل حتى تعم المساواة فلا تتفاضل الأمم من الأتباع بعضها على بعض كما حدث مع اليهود والنصارى مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنّة إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ ربّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}552.

551 البقرة 132-133.

552 البقرة 111-113.

وللميثاق دلالات أخرى تضيف إلى هذا المفهوم الدقيق سعة في الدلالة عن ماهيته، فعندما يقول الحقّ سبحانه وتعالى: (وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ ميثاقا غَلِيظا) فذلك يعني سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى: (ولنسألن المرسلين)، وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق، فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرّسالة553، وهذا الرأي له ما يدعمه من القران الكريم، فعيسى تعرض للسؤال من الله جلّ وعلا في قول الحقّ: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}554.

وهذا هو ما يقوله الله يوم يجمع الرّسُل وليس ممّا قاله في الدنيا، لأنّ عبادة عيسى حدثت بعد رفعه، ولقوله: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم).

وقد أجمع المفسّرون على أنّ المراد به يوم القيامة. وأنّ قوله: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) قول يقوله يوم القيامة. وهذا مبدأ تقريع النصارى بعد أن فُرغ من تقريع اليهود من قوله: {إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك، وتقريع النصارى هو المقصود من هذه الآيات كما تقدّم عند قوله تعالى: يوم يجمع الله

553 تفسير الرازي، ج 12، ص 331.

554 المائدة 116-117.

الرّسُل، فالاستفهام هنا كالاستفهام في قوله تعالى للرسل (ماذا أجبتم)، والله يعلم أنّ عيسى لم يقل ذلك ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى[555]. ابن عاشور.

أمّا ميثاق عيسى على وجه التحديد فيتوضح في عدة مسائل منها:

التصديق بمن سبق، (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)، نقول في هذا التصديق: إنّه تصديق قول وسلوك أي أنّ عيسى بلغ صدق من جاء قبله من الأنبياء وذلك ممّا علمه الله، (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)، فنقلها لأتباعه ولم يقبل فيهم شيء حتى وإن واجه رفضا أو كفرا من أصحاب المعتقد السابق كحاله مع اليهود الذين صدق بتوراتهم وأحل لهم ما حرم عليهم لكنهم أصروا على الكفر، {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[556].

التبشير بمن سيظهر،{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[557]، ليس من السهل على النّاس قبول مثل هذا الأمر إلا لمن رسخ الإيمان في قلبه، وتوخي طريق الحقّ، لان الأمر يدور عند غير المؤمن في دائرة الغيب غير المتوقّع غير الممكن وهو عند المؤمن في دائرة الممكن المتوقّع فالمسألة في صورة من التضاد البين حيث يشعر ضعاف الإيمان ببعد تحقّق المضمون لان أدوات تحقّقه عندهم مفقودة حيث

---

[555] ابن عاشور، ج 4، ص 348.

[556] آل عمران 52.

[557] الصف 6.

تغيب المرتكزات التي يقوم عليها التصديق بهذا الغيب، أما المؤمن فهو أقربّ إلى التصديق بالبشارة وهذا الذي حصل مع أتباع عيسى الذين شهدوا بشارة نبيهم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرّسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ يَقُولُونَ ربّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}558.

هنا تحقّق الميثاق الذي أخذه الله عزّ وجلّ من عيسى ويمكن أن نتصور طبيعة هذا الأخذ والتغليظ عليه (ميثاقا غليظا) من قبل عيسى لإتباعه من خلال تصورنا لحضور هذا الميثاق في قرار عقيدتهم ممّا سهل عليهم الاهتداء للحقّ الذي جاء بها النّبي البشارة أحمد حيث حصل تطابق بين ميثاقهم الذي واثقوا وبين الحقّيقة التي شهدوا فكان الإيمان بالله عزّ وجلّ وبمحمّد نبيا ورسولا.

التنزيه لله عن الشريك والولد هذا ميثاق مخصوص أخذه الله عزّ وجلّ من عيسى على وجه التحديد، وذلك لان الله علم بعلمه جلّ وعلا أن أمرا سيحصل مع عيسى وسيحدث شرخا في عقيدة توحيد الكثير من أتباعه، فسيدعي البعض وقد ادعوا الألوهية عيسى ثم يتجاور الأمر إلى الإشراك بالله بأن جعلوا له مريم وعيسى شريكين في ألوهية الله عزّ وجلّ تعالى عما يصفون، لذلك فإن سؤال الله لعيسى صلّى الله عليه وسلّم كان عن الميثاق الذي أخذه الله منه عند الاصطفاء، وعيسى أجاب بما واثق عليه إتباعه من حتمية الإخلاص والتوحيد لله ربّ العالمين وهذا ما تجلى واضحا في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍ إِنْ كُنْتُ

---

558 المائدة 82-83.

قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}559.

الفصل بين الحقّ والباطل، هذا من المواثيق الأساسية في كل شريعة من شرائع الأنبياء التي اختار الله لها أن تظهر في قوم أو مكان إلى أن جاء الرّسول الخاتم الكافة لتكون القاعدة الراسخة من آدم إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ويذهب الإمام القرطبي إلى أن الميثاق في أحد معانيه هو وجوب قطع الولاية بين المسلمين والكافرين فقال: "ويحتمل أن يكون هذا تعظيما في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أي هذا ممّا لم تختلف فيه الشرائع، أي شرائع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم. أي كان في ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرة سبب متأكد في الدّيانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكِيد؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخِذ عليهم المواثيق"560

وهذا الرأي، وإن كان يتحدث عن خصوصية الولاية إلا أنّه يشير إلى وجوب الفصل بين المؤمنين والكافرين أي بين الحقّ والباطل، وعيسى من الأنبياء الذين خصهم الله بصدق ميثاقهم في هذا الأمر فقال عزّ من قائل: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ

[559] المائدة 116-118.

[560] تفسير القرطبي، ج 4، ص 474.

دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} 561.

واللعن دلالة واضحة على موقف عيسى من الكفار أهل الباطل، وهو مرحلة بعد الفصل بين الحقّ والباطل وليس في أثناءها لانّ في الأثناء يكون الأمل موجودا في اهتداء البعض إلى الحقّ، ولكن بعد اليأس منهم اهتدائهم يحقّ عليهم اللعن، هنا نسأل هل من سلوك الأنبياء أن يكونوا لعانيين؟

نحاول عرض اقربّ التفاسير لهذه الآية قبولا ومنطقا ثم ندلو بدلونا في الموضوع، يقول أبو السعود في تفسيره:

(لُعِنَ الذين كَفَرُواْ) أي لعنهم الله عزّ وجلّ، وبناءُ الفعل للمفعول للجَرْي على سَنن الكبرياء (مِن بَنِى إسرائيل) متعلق بمحذوفٍ وقع حالا من الموصول أو من فاعل كفروا، وقوله تعالى: (على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ) متعلق بلُعن أي لعنهم الله تعالى في الزبور والإنجيل على لسانهما، وقيل: إن أهل أَيْلةَ لما اعتدَوا في السبت دعا عليهم داود عليه السّلام وقال: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخهم الله قردة، وأصحابُ المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السّلام: اللهم عذِّبْ من كفر بعدما أكل من المائدة عذابا لم تعذِّبْه أحدا من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازيرَ وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي (ذلك) إشارة إلى اللعن المذكور وإيثارُه على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازِه عن نظائره وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعد درجته في الشناعة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى:

[561] المائدة 78-79.

(بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ) والجملة مستأنَفةٌ واقعة موقع الجواب عما نشأ من الكلام كأنه قيل: بأي سبب وقع ذلك؟ فقيل: ذلك اللعنُ الهائل الفظيعُ بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر، كما يفيده الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل، وينبئ عنه قوله تعالى: (كَانُواْ لاَ يتناهون عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ) فإنّه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهي عن المنكر، ولا يمكن استمرارُه إلا باستمرار تعاطي المنكرات، وليس المراد بالتناهي أن ينْهَى كلُّ واحد منهم الآخَرَ عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهورُ لصيغة التفاعل، بل مجرد صدور النهي عن أشخاص متعددة، من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا معا"[562].

ونحن نقول: أنّ اللعن من عيسى صلّى الله عليه وسلّم حاصل لأسباب موجبة له وضحتها الآية وهي:

فعل المنكرات.

الاستمرار في فعلها.

السكوت على فعلها.

إن هذه الأفعال الثلاثة تدل على الانقطاع التام عن الخير، والمعني بها هو في ساحة مظلمة هي ساحة الضلال لذلك فهو مستحقّ للعن مادام على هذا الحال هو وكل من يختار أن يكون في مثل ذلك.

هنا يأتي السؤال هل يكون عيسى لعّانا وهو نبي رحمة؟

هل هو خلق موجب؟

[562] تفسير أبي السعود، ج 5، ص 96.

أنأتسي به؟

إنّ عيسى لعن الكافرين بعد داود الذي جاء مصدقا بزبوره وهو بعد موسى صلّى الله عليهم وسلّم، والاثنان اختارا هذا الخطاب مقتدين بالخالق الحقّ عزّ وجلّ الذي يقول في محكم كتابه: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا}563، فالقاعدة هي أن الكفر له اللعن، واللعن ليس مفهوما سالبا كما قد يتوهم البعض لان ذلك يجعل الأمر يمس بالله عزّ وجلّ وبحكمته ورحمته، وإنما هو كما تنص عليه المعاجم: "اللَّعْنُ الإِبْعادُ والطَّرْد من الخير وقيل الطَّرْد والإِبعادُ من الله"564، لاحظ أن الدلالة اللغوية ليس فيها أي من المفاهيم السائدة للعن والتي تقابل الشتم، فالمفهوم الاجتماعي غير الدلالة الإلهية التي نص عليها القران الكريم، فاللعن هو حكم الهي، بل هو أول حكم صدر بحقّ مخلوق مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}565. وهو هنا الإبعاد من رحمة الله ومن جنته، هذا الإبعاد هو إحقّاق للحقّ وإزهاق للباطل وهو أمر موجب، لذلك فنحن نأتسي بخلق داود وعيسى في الحكم على الكافرين إحقّاقا للحقّ وإزهاقا للباطل.

عليه نقول إن ميثاق عيسى كان في الأمور التي عرضنا لها وهي التصديق والتبشير والتبليغ والفصل بين الحقّ والباطل.

بقي أن نسأل متى كان ميثاق عيسى؟

---

563 الأحزاب 64.

564 لسان العربّ، ج 13، ص 387.

565 ص 77-78.

نعتقد إن الميثاق يؤخذ عند التكليم، فأي ميثاق يحتاج طرفين لا واسطة بينهما كما تنص شروط الميثاق، فالميثاق يكون بين اثنين أو جماعتين566، وهذا يدعم ما ذهبنا إليه من أن الله جلّ وعلا كلّم الأنبياء والرّسُل كل بما شاء لاسيما أن ثنائية الخطاب موجودة مع أنّبياء الميثاق على وجه واضح، ومع عيسى على وجه الخصوص ظهر الخطاب في آيتين هما:

1- (يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) وهذه الآية اختلف المفسرون في زمنها فنسبها البعض إلى الآخرة ونسبها البعض الآخر إلى الخطاب في الدنيا.

2- الآية الثانية التي تظهر فيها ثنائية الخطاب واضحة جلية، يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}567.

الخطاب هنا مفسر بالقول، أي بأهم أدوات الخطاب وهي القول ولم يكن على سبيل الدعاء الذي نص الله عزّ وجلّ عليه في عدة آيات فقال عز من قائل:

مع نوح عليه والصّلاة والسّلام: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا ربّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}568، وللتنويه فإن نوح صلّى الله عليه وسلّم من

[566] المعجم الوسيط، ج 2، ص 177.

[567] المائدة 114-115.

[568] القمر 9-11.

أنبياء الميثاق المكلمين كما جاء في قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ربّهُ فَقَالَ ربّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ ربّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}569.

الواضح أن القول كان من نوح إلى الله عزّ وجلّ ثم قول الله تعالى إلى نوح هو صورة الخطاب لأمر ظنَّ نوح أنّه يخصه (ابنه) فجاء قول الله تعالى أن هذا الأمر هو مشيئة الله عزّ وجلّ (الغرق للكافرين)، وفي ذات الآية يتحول السياق إلى لفظة قيل ونعتقد أنها ليست من لوازم ثنائية الخطاب.

وهكذا نصل إلى حقّيقة أن التكليم من الله عزّ وجلّ لأنبيائه حاصل في أمور العقيدة التي أراد الله بها إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ودلالته موجودة في سياقات القران الكريم مع أنبّياء الميثاق جمعيا وكما عرضنا مع عيسى ومع نوح عليها والصّلاة والسّلام، وسنعرض لبقية صور الخطاب في الحديث عن الأنبياء والرّسُل كل في موضعه إن شاء الله.

وصية الله لعيسى:

يقول الحقّ جلّ وعلا: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا

[569] هود 46-48.

الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}570.

يدور معنى (وصى) في المعاجم اللغوية والاصطلاحي على حد سواء حول محورين هما:

1- (وصي) أَوْصى الرجلَ ووَصَّاه عَهِدَ إِليه.

2- وَصَى الشيءُ يَصي إِذا اتصل ووَصاه غيره يَصِيه وصَله571.

وفي ضوء ذلك يتبين أن الوصية هي عهد من طرف لطرف، وهي في المعنى الآخر صلة وصل بين طرفين.

نبدأ الحديث عن معنى العهد ونبدأ بسلسلة من التساؤلات الموجبة للبحث:

ما هو العهد؟

لماذا العهد؟

متى يكون العهد؟

متى يخلف العهد؟

العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، هذا أصله، ثم استعمل في الموثق الذي تلزم مراعاته572، العهد ما كان من الوعد مقرونا بشرط نحو قولك إن فعلت كذا فعلت كذا وما دمت على ذلك

[570] الشورى 13.

[571] لسان العربّ، ج 15، ص 394.

[572] التعريفات، الشريف الجرجاني، ج 1، ص 51.

فأنا عليه، قال الله تعالى "ولقد عهدنا إلى آدم" أي أعلمناه أنك لا تخرج من الجنّة ما لم تأكل من هذه الشجرة، والعهد يقتضي الوفاء[573]، في دائرة الممكن أما في دائرة المطلق فلا شرط ينطبق عليه.

عليه فالوصية على المستوى البشري التي بمعنى العهد تحمل في مضمونها معنى الشرط من طرف لطرف آخر مقابل الإيفاء بما عهد إليه في الوصية.

هذا هو مفهوم الوصية بمعنى العهد، والآن نتساءل لماذا الوصية؟

ذكر الله سبحانه وتعالى في آيات الذكر الحكيم آيات مدللة على السببية المفسرة للفعل أوصى، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنا سنسأل عن أسباب إيصاء الله عزّ وجلّ لخلقه؟ ونبحث عن موجبات وصيته عزّ وجلّ! فقال لنا ولكل متسائل أن العلة الموجبة للوصية هي طبيعة خلق الإنسان في أصل خلقه (آدم)، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}[574]، هذا الإنسان مخلوق بقدرة الله عزّ وجلّ على أن يتذكر وينسى رحمة من الله به، ولو تصورنا أن الإنسان مخلوق لا ينسى ونظرنا إلى ذلك في نفوسنا وذواتنا لعرفنا مدى صعوبة قيامنا بأمر الاستخلاف على الأرض ونحن نعيش مع كل صغيرة وكبيرة من هواجسنا وذكرياتنا وإخفاقاتنا وأحزاننا الماضية، فالنسيان طبع موجب ليتخطى الإنسان به علله التي تمنعه من القيام بأمر الاستخلاف، على أن لا يطال النسيان الثوابت التي ترتبط بالعقيدة، هنا نتساءل:

هل كان العهد قبل النسيان؟

---

[573] معجم الفروق اللغوية، ج 1، ص 379.

[574] طه 115.

أم كان النسيان قبل العهد؟

أم هما في الآن ذاته؟

ولماذا العهد والنسيان حاصل؟

نقول: إنّ العهد والنسيان موجودان في الآن ذاته، وإنما حصل هذا ليكون آية مفحمة للبشر عن طبيعة ما سيكون من أحوالهم مع إرادة الله وأوامره ونواهيه، كما أن الآية فيها دلالة أخرى ذات بعد عميق اختلف عليه كثير من مفكري الإسلام في عصور سابقة حيث تكشف الآية عن اختصاص آدم بإرادة الاختيار، وإن الجبر لم يكن ممّا جُبل الله عليه آدم حتى في أهم قراراته التي حددت مصير البشرية من بعده (الأكل من الشجرة). ونقول الاختيار لانّ الوفاء بالعهد حاصل عند غير آدم، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[575]، والآية تذكر العهد ولم تذكر الوفاء به، لكن آية أخرى تذكر بالنص وفاء إبراهيم بما عهد إليه ربّه: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}[576].

وأمّا قوله تعالى: (وفّى) ففيه وجهان أحدهما: أنّه الوفاء الذي يذكر في العهود، وهو ظاهر لأنه وفى بالنذر وأضجع ابنه للذبح، وورد في حقّه: {قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا}[577]، وثانيهما: أنه من التوفية التي من الوفاء وهو التمام والتوفية الإتمام يقال وفاه أي أعطاه تاما، وعلى هذا

---

[575] - البقرة 125.

[576] - النجم 37.

[577] - الصافات 105.

فهو من قوله: {وَإِذَا ابتلى إبراهيم ربّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ}578، وقيل: (وفي) أي أعطى حقّوق الله في بدنه 579.

هنا وبعد هذا التقديم لمفهوم الوصية وعلة وجوبها نتساءل:

بماذا أوصى الله عزّ وجلّ عيسى؟

هل وفي عيسى بالوصية؟

لماذا عيسى؟

قبل البحث في التساؤلات السابقة نذكر على وجه الذكرى فقط مصداقا لقوله تعالى: (فذكر إن الذكرى تنفع المؤمنين)، أنه ما من لفظة وردت في آية من آيات القران إلا وجاءت في مستقرها الدلالي الذي يختاره الله عزّ وجلّ لها لتثير في نفس من يقرأ ويبحث كوامن من المهم الاهتداء إليها في هذا القران المعجز، لذا ومن هذا المرتكز نقول إن اختصاص عيسى بلفظ الوصية (وأوصاني) له من الدلالة التي تتجاوز سياق الذكر إلى عمق الفكر، بمعنى أننا وعند البحث في وصية الله لعيسى بقوله عزّ وجلّ: (وَأَوْصَانِي بِو الصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)، لا يمكن أن نفسر الأمور بالظاهر البسيط حتى وكأننا نحول الكلام من القول الإلهي إلى اللفظ اللساني الإنساني، فنتلفظ بالقول: أنّ الله أمره بالصّلاة والزكاة في حياته ثم أعفاه منها بعد موته؟

هذا أمر لا شك أنّ للمنطق رأي فيه على وجه الاعتراض لا على وجه القبول والتسليم.

---

578 - البقرة 124.

579 - تفسير الرازي، ج 14، ص 445.

وفي اعتقادنا أنّ في الآية ما هو أعمق ممّا هو في الظاهر منها من طرف فيها وهو دلالة الشرط الواضحة فيها وهي أن الله أوصاه بالصّلاة والزكاة مادام حيا، فالشرط هو دوام الحياة، هنا نعود لما انتهى إليه البحث في خاتمة عيسى صلّى الله عليه وسلّم في كتب العقيدة، حيث أقر الغالب من علماء العقيدة أن عيسى حي رفعه الله إليه، هنا نتساءل:

ألا يعني ذلك أن عيسى لا يزال يصلي!

ولا يزال يزكي!

هذه التساؤلات هي حقّائق يجب الوقوف عندها ومناقشتها بموجب مضمون الوصية المشروط في الآية الكريمة من جهة ورأي العلماء في دوام حياة عيسى إلى الآن من جهة أخرى.

أي لابدّ أن يكون عيسى المرفوع إلى السماء يصلي إلى الآن وسيبقى يصلّى إلى أن يموت وتنتهي حياته (ما دمت حيا)، وكذلك يجب أن يكون يزكي إلى الآن وسيبقى يزكي إلى أن يموت وتنتهي حياته (ما دمت حيا)، هنا أتساءل:

إذا كان هو في السماء مرفوعا حيا بجسده وروحه،

فلمن الزكاة؟

وكيف؟

ومن المستحقّ لزكاته؟

أيزكي وهو في السماء بين يدي الله؟

لقد تساءلنا عن الزكاة ولم أتساءل عن والصّلاة لاعتقادي بأنه يُصلّى في السماء لله عزّ وجلّ شكرا لنعمته وحمدا لعطاياه وكرمه، ولكن الحيرة تتلبدني وأنا أتساءل عن الزكاة في السماء: كيف لعبد أن يتزكى في حضرة مالك الملك؟

أهناك محتاج في السماء يتزكى عليه عيسى؟

أيمتلك عيسى ما يتزكى به؟

عليه لابدّ إذا أخذنا بالقول بأن عيسى حي مرفوع في السماء أن نكون أمام عدة احتمالات منها:

- أنّه لا يتزكى لأنّه لا يمتلك مالا يتزكى به وهذا القول يجعل من الزكاة التي أوصاه الله بها في الآية زيادة افتراضية في السياق وهو أمر نرفض الأخذ به مطلقا لأنه يمس بعلم الله عزّ وجلّ.

- أنّ نقول: إنّه حي يتزكى في غير السماء (الأرض) وهذا لا يتماشى مع مبدأ الرفع الذي قال الله مخبرا عن حاله (إني متوفيك ورافعك إلي).

- أن نقول: إن دوام الحياة انتهى مع عيسى ونحن نجهل ذلك أو لا نأخذ به!

الحقّ أنّ الأمر محير لمن يقول بأن عيسى لا يزال حيا رفعه الله إليه جسدا وروحا، وهو غير ذلك لمن يقول بموت عيسى وفي الحالتين الأمر محير إلى أن يتم التبين.

وعليه نعتقد أنه من الأولى قبل أن نجزم رأيا أن نستأنس بآراء بعض الأجلاء من العلماء عن مدة التكليف:

يقول الألوسي: "وأنت تعلم أن الظاهر المتبادر من المدة المذكورة مدة كونه صلّى الله عليه وسلّم حيا في الدنيا على ما هو المتعارف وذلك لا يشمل مدة كونه عليه السّلام في السماء"580.

ويقول أبو السعود: "(وأوصاني بالصّلاة) أي أمرني بها أمرا مؤكدا (والزّكاة) زكاةِ المال إنّ ملكتُه أو بتطهير النفسِ عن الرذائل (مَا دُمْتُ حَيّا) في الدنيا"581.

يلاحظ أن التفسيرين السابقين وهما نماذج لتفسيرات كثيرة بذات الاتجاه تجعل الوصية لحياة الدنيا دون أن تقدم ولو دليل نقلي أو عقلي لذلك.

ويأتي رأي الرازي، ويتابعه ابن عادل في اللباب والخطيب في السراج المنير، ليؤكد أن وصية الله لعيسى مستمرة لأنه لا يزال حيا، يقول الرازي: "والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى"582.

عليه فنحن الآن أمام خيارين هما:

الأول: عيسى حي ولا يزال يصلي ويزكي في السماء التي لا أمر لأحد فيها ولا ملك إلا لله الواحد القهار.

الثاني: أن عيسى ميت وهذا مخالف لرأي عموم علماء العقيدة.

وعلينا الآن أن نوجهك إلى خيارنا الثالث الذي يقبله المنطق ويؤيده النص، وهو أن الله سبحانه وتعالى توفي عيسى مصداقا لقوله

---

580 تفسير الألوسي، ج 11، ص 485.

581 تفسير أبو السعود، ج 4، ص 311.

582 تفسير الرازي، ج 10، ص 302.

تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}583، وتوفي عيسى هنا بمعنى أنه وفي حياته أي أخذ ما أوصاه الله به إلى حين الرفع ثم وفي الله ما تبقى ما هو مطلوب من بعد الرفع، بمعنى أنه لم يعد عيسى مكلفا بأداء ما أوصاه الله تعالى لان الله أتم عمل عيسى بهذه التوفية والله اعلم.

نعود الآن إلى عرض بقية ما أوصى الله عزّ وجلّ به نبيه وعبده عيسى صلّى الله عليه وسلّم، حيث يدلنا مبدأ التصديق الذي هو من أهم سمات رسالات الأنبياء والرّسُل وعيسى منهم على وجه التحديد على أن رسالة السماء إلى الأرض ومن عليها واحدة لذلك يمكن أن نستدل على عدة وصايا من خلال القران الذي جاء مصدقا ومهيمنا على ما سبق من الكتب والصحف والألواح، والسياق القرآني أشار إلى هذه الحقّيقة بقوله عزّ وجلّ (ما وصى به نوحا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)، فإنه مقدر فيه مضاف، أي مثلَ ما وصَّى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة الممّاثلة حتى صار المِثل كأنّه عين مثله، والمراد: الممّاثلة في أصول الدّين ممّا يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمُها توحيدُ الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أُودع مثله في دين الإسلام. فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياةِ الآخرة، وتقْوى الله بامتثال أمره

583 آل عمران 55.

واجتناب مَنْهِيّه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، قال تعالى: (قد أفلح من تزكّى وذكر اسمَ ربّه فَصلّى بل تؤثرون الحياة الدّنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحفِ إبراهيم وموسى)، وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه. ودين الإسلام لم يَخْلُ عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسدّ الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة584.

والوصايا الإلهية هي الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به585. وقد جاء في القران الكريم أنها تتعلق بتنظيم العلاقات الاجتماعية والأخلاقية وبما يتناسب مع المثل العليا التي تضمنتها أسماء الله الحسنى التي يريد الله عزّ وجلّ للقيم التي فيها أن تسود من خلال تحلي الخليفة بها على النحو الآتي:

التوصية بالصبر، يقول تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}586، إن النظر في سيرة عيسى يدل على أنه من الذين أوصوا بالصبر وعملوا به فقد صبر على عدة أمور منها:

الطعن بصدق رسالته، (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ).

الشك في عفة أمه، {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}587.

[584] – التحرير والتنوير، ج 13، ص 94.

[585] – التحرير والتنوير، ج 13، ص 94.

[586] – البلد 17.

[587] – النساء 156.

التهديد بالإيذاء البدني، (وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ).

العزم والإقدام على قتله، (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ).

إن كل مقاصد الإيذاء هذه واجهها عيسى بالصبر لذلك كان من الصابرين الذين رغّب الله بصبرهم نبيه محمّد صلوات الله وسلامه عليه فقال عز من قائل: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}588.

الوصية بالرحمة، (وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) التواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضا كناية عن اتصافهم بالمرحمة لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عَرَف قدرَها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يُوصي بها589، وعيسى صلّى الله عليه وسلّم ممن أوصاهم الله عزّ وجلّ بالرحمة وأول من أوصاه برحمته أمّه وهي وصية وإن لم تكن خاصة لعيسى لانّ بر الوالدين والرحمة بهما من الوصايا التي شدد عليها المولى عزّ وجلّ في أكثر من آية تقديرا منه سبحانه لفضل الأب والأم على الأبناء فقال الحقّ سبحانه وتعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}590.

---

[588] – الأحقاف 35.

[589] – تفسير ابن عاشور، ج 16، ص 277.

[590] – الإسراء 23 -24.

إلا إنّ وصيته بأمه كان لها من الخصوصية العقدية والتطهيرية في آن واحد، فالآية خصت عيسى بوصية بر الأم فقط لئلا يُشمل بالبر المطلق لعموم المؤمنين بالأب والأم فيحدث خلاف مع الإيمان بعقيدة خلق عيسى من أم وبغير أب هذا من ناحية العقيدة أما من ناحية التطهير فكانت الوصية ببر الأم تطهيرا من الله عزّ وجلّ لمريم من كل شبهة قد يشير إليها أي سياق، فسبحان الله الحقّ الذي لم يترك لأعداء الله ولو شبهة يأخذونها من كلامه على المخلصين من عباده لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم.

وعيسى بدوره أوصى بالرحمة لأنه من المستخلفين فظهرت هذه الرحمة بإذن الله في قلوب أتباعه مصداقا لقوله تعالى: (وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ).

الوصية بالحقّ، {إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحقّ}591، الوصية بالحقّ من الوصايا الأساسية التي أوصى الله بها عباده لاسيما أنبياءه المكلفون بتبليغ الرّسالة السماوية فقد كان شعارهم ودثارهم قوله تعالى كما اخبر عن لسان موسى: {حقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ}592، وعيسى كان من أصحاب الحقّ ومن الآمرين به ومن العاملين عليه ومن المبلغين له لذلك فإنّ خطاب التكليم الذي جاء في القرآن بين الله عزّ وجلّ مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم بين حرص عيسى على الحقّ وقوله وفعله مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ

591 - العصر 3.

592 - الأعراف 105.

كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}593.

الوصية بالوصية، الوصية من المبادئ التي أوصى الله عباده الأخذ بها سنة في حياتهم ومماتهم فكانت الوصية بالوصية أي أن تكون الوصية من أفعال الإنسان عموما والرّسُل خاصة لأنها من وصايا الله عزّ وجلّ، يقول المولى سبحانه وتعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حقّا عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}594.

وقد بيّن القران وصية حقّ من إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم لبنيه وكذلك من يعقوب لأبنائه أنموذجا خالصا للوصية الحقّ من الأنبياء والرّسُل لمن بعدهم وكذلك دلالة قاطعة على سلوك الأنبياء والرّسُل هذا الخلق الذي أوصاهم الله عزّ وجلّ به فقال عزّ وجلّ مخبرا عن تفاصيلها: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}595.

ونحن نعتقد أن عيسى أوصى أتباعه كما أوصى غيره من الأنبياء والرّسُل بوصية الحقّ وهي عبادة الواحد الأحد وإتباع الرّسول النّبي

---

593 - المائدة 116-117.

594 البقرة 180-181.

595 - البقرة 132-133.

الأمي الذي بشر به، وذلك لان تبشير عيسى لم يكن حدثا اعتباريا عابرا وإنما هو من صلب العقيدة الصحيحة فالاعتقاد بالتوصية به من عيسى لإتباعه وارد منطقيا.

وعندما نقرأ كل هذه الوصايا ونعرف القيم التي فيها ندرك تماما أنّ الوصايا تخرج عن النطاق الفردي إلى الغاية الجماعية (العلاقة مع الآخر)، وهي إرادة الله عزّ وجلّ بسيادة الأخلاق المثلى على الأخلاق الدُنيا وقيام الخلافة الحقّ.

نعود إلى الدلالة الثانية للوصية حيث يقول صاحب اللسان: وَصَى الشيءُ يَصي إِذا اتصل ووَصاه غيره يَصِيه وصَله، فالله سبحانه وتعالى وصل عيسى بعدة أمور منها:

وصله بروح القدس، وهو النّبي المؤيد بروح القدس على وجه التخصيص من الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}596.

وصله بإخوته من الأنبياء والرّسُل، هذه مسألة في غاية الأهمية حيث وصل الله عيسى بالأنبياء الرّسُل من قبل ومن بعد فكان مصدقا بموسى ومبشرا بأحمد صلوات الله وسلامه عليهم مصداقا لقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ"597. وهذا أجل أنواع الوصل كما نعتقد، كما لا يخفي على القارئ أن الله عزّ وجلّ وصلّى عيسى بزكريا ويحي وهما من الأنبياء الذين صدقوا برسالة عيسى وكانوا عونا له.

---

[596] – البقرة 253.

[597] – الصف 6.

وصله الله بالإيمان، لقد قدر الله عزّ وجلّ لعيسى أن يتربّى في مناخ من الإيمان والورع والتقوى برعاية أمه الصديقة مريم، {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآَيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}598، وأن ينعم بقبول الله له ولأمه، {فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}599.

فلماذا خص الله عزّ وجلّ بالوصية خاصة من أنبيائه ومنهم عيسى؟

يقول الرازي عن ذلك: "وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات أحدها: أنه قال في أول الآية (مَا وصى بِهِ نُوحا وفي آخرها (وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ) وفي الوسط (والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) فما الفائدة في هذا التفاوت؟ وثانيها: أنه ذكر نوحا عليه السّلام على سبيل الغيبة فقال: (مَا وصى بِهِ نُوحا) والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال: (والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ) وثالثها: أنه يصير تقدير الآية: شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك فقوله شَرَعَ لَكُم خطاب الغيبة وقوله والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خطاب الحضور، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال شرع

---

598 – المائدة 75.

599 – آل عمران 37.

لكم من الدين دينا تطابقت الأنبياء على صحته، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئا مغايرا للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى: (لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا) فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال600.

الثالوث:

قبل أن نبدأ في مناقشة قضية الثالوث نعرض عرضا موجزا لأبرز اتجاهات قول النصارى في الثالوث وكما ورد عند كبار المفسرين، يقول الرازي: "إن ادعائهم

طريقان:

الأوّل: قول بعض المفسرين، وهو: أنّهم أرادوا بذلك أنّ الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى للمسيح (أأنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله)، فقوله: (ثالث ثلاثة) أي: أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى في الرد عليهم (وَمَا مِنْ إله إلاَّ إله واحد) وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من مذاهبهم.

والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم أب، وابن، وروح القدس، وهذه الثلاثة إله

---

600 – تفسير الرازي، ج 13، ص 422.

واحد، وزعموا أن الأب إلهة، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد"601.

هذا القول يسير بنا إلى البحث في الثلاثة التي وردت في الادعاء (ثالث ثلاثة) لنقف مع كل واحد من الثلاثة المذكورة لنعرف الماهية أو الصفة التي بها حصل الاشتراك بالألوهية حسب الادعاء أو نصل إلى الاستحالة المطلقة لهذا الادعاء.

وعن الماهية نقول:

أولا: الذات

ولابدّ لهذا النمط المعرفي من سلسلة افتراضات هي:

الذات جزء لكل؟

الذات كل لأجزاء؟

الذات واحد؟

لمناقشة الافتراض الأوّل نقول لا يمكن أن تكون الذات جزءا لكل لأنّ ذلك يقتضي وجود كلٍّ يتجزأ منه بفعل إرادي أو لا إرادي وبزمن استغراقي يتمخض لا محالة عن وجود أجزاء مكملة.

والذات منتفٍ عنها هذا، فلا توالد أوجدها ولا أوجد لها، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}602، فالإيجاد (لم يولد) معناه حدوث وإقرار بأسبقية سواه عزّ وجلّ، والتوالد (لم يلد) معناه الاشتراك في الصفة والحكم والفعل وهو ما ذهب إليه أصحاب الثالوث، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي

601 - تفسير الرازي، ج 6، ص 124.

602 - الإخلاص 3.

دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}603.

وهذا ادعاء لا يقبله العقل لانّ الاشتراك يوجب أن تكون الأجزاء المكونة للكل بذات القدرة على الإتيان بفعل واحد في برهة واحدة وبجودة متطابقة كليةً.

فهل كان لعيسى ولأمه صلّى الله عليهما وسلّم القدرة على ذلك؟

نقول هذا وهم كبير وقع فيه أصحاب هذا الادعاء لأن الله سبحانه وتعالى يعلوا عيسى وأمه صلّى الله عليهما وسلّم بالمطلق من أوجه كثيرة كلها تدل على استحالة كون عيسى وأمّه جزأين يكملان الجزء الثالث لتكون الآلهة ثلاثة، وذلك مؤكد بذات الادعاء (ثالث ثلاثة) حيث أدعى المدعون ألوهية مريم بعد ولادة عيسى، هنا نتساءل:

ألم تكن قبل ذلك إلها؟

أتكون الألوهية مؤجلة لحين مخصوص؟

أيموت الإله (مريم)؟

نقول: إنّ الأجزاء التي يدعي أصحاب هذا الادعاء اتحادها بالذات لتكوّن الواحد هي على غير استواء مع الله بكل حال من الأحوال، فمن حيث الكينونة عيسى تراب ومريم تراب.

---

603 - النساء 171.

فهل يمكن للتراب أن يتحد مع غيره ليكون واحدا متجانسا لا انفصام ظاهر أو باطن فيه؟ بالتأكيد الإجابة تكون لا لأنه من الواجب أن يكون الاتحاد التام الخالي من الانفصام بين أجزاء العنصر الواحد كما تثبت النظريات العلمية الحديثة، أما إذا تشكل الخليط من مكونات مختلفة فلا يمكن بكل حال من الأحوال أن يتجانس. هنا نلفت عناية العقل المفكر إلى أنه ولو على الفرض قبلنا بالاتحاد الثلاثي فلابدّ أن نقر يقينا بحصول التناشز والانفصام بين أجزاء الخليط وذلك لانّ:

- الله غير عيسى ومريم.
- عيسى غير مريم.
- مريم غير عيسى.

فلو أخذنا بقولهم جدلا أن عيسى هو ابن الله وفيه من الله بسبب النفخ، فما تكون مريم المنفصلة في خلقها وتكوينها عن أبنها عيسى والتي لم ينفخ في روحها؟ وكيف يمكن لها أن تكون جزءا متحدا بذات الواحد المطلق جلّ وعلا؟

عليه فإن فكرة الاتحاد مرفوضة لان أحد أركان الثالوث المدعى من غير بقية الأجزاء حاشا لله عما يصفون.

ومن جانب آخر معلوم أن الثلاثة لا تكون واحدا، والواحد لا يكون ثلاثة.

الذات ليست جزءا ولا يمكن أن يكون لها أجزاء قابلة للاتحاد بها بالمطلق.

فهل تكون كلا لأجزاء كما في الافتراض الثاني؟

هذا غير ممكن أيضا لأن الكل قابل للتجزئة بكل حال من الأحوال، ممّا يفضي إلى وجود أجزاء متحدة للتكوين، وهو يستلزم وجود قوّة رابطة للأجزاء وكل ذلك محتاج ولابدّ من استغراق الزمن للتكون والاتحاد، ثم بعد ذلك يتوجب اتفاق الأجزاء، وهو أمر مستحيل كما يخبرنا الخبير عزّ وجلّ: {أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحقّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}604.

ولو كان في قولهم دعائم لقالوا لنا ولغيرنا بأية قوّة أو بأية وسيلة أو بأية أداة اتحد كل من عيسى ومريم بذات الله؟

وكيف؟

ولماذا؟

ولنناقش هذه التساؤلات، أمّا عن القوّة أو الوسيلة أو الأداة فنقول أن هذه القوّة هي من صفات الواحد المطلق الذي يفعل ما يريد ولديه القوّة لكل فعل، لكن القوّة النسبية لطرفي الاتحاد (مريم وعيسى) تفترق بالمطلق عن قوّة الواحد الأحد فلا تكافؤ في القوى بين الأطراف الثلاث فمن أين تأتي القدرة على الاتحاد؟

فمريم تقول كما أخبر العليم الخبير: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)، فهل يمكن لهذه الصديقة التي أوهن المخاض قواها أن تتحد بالقوي المطلق؟ هذا ما لا يقبله العقل بالمطلق.

604 - الأنبياء 21-24.

وكذلك عيسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد ذكر النصارى أصحاب ادعاء الثالوث أن عيسى صُلب وعُذب -وهذا ما لا نعتقد به مطلقا- نقول:

أيصلب إله؟

أيعذب إله؟

ثم ما هذا الإله الذي تقوى عليه قوى البشر؟

وينقل الدكتور علي الصلابي محاورة فكرية في ذات الموضوع تنص على: "وسأل القرافي النصارى، هل الإله يعلم الغيب أم لا، فإن قالوا: لا كذبتهم كتبهم لإثباتها ذلك وإن قالوا: نعم بطل اعتقادهم الألوهية بالمسيح لأن نصوص الإنجيل توضح عدم علمه بالمغيبات605.

أي: أنّ عيسى لا يعلم الغيب بدليل قولهم بصلبه وعذابه ولو كان يعلم الغيب لتجنب هذا الصلب المدعى والعذاب المفترى.

عليه نقول: إنّ القوّة لله وحده، أما مريم وعيسى صلّى الله عليهما وسلّم فهما على غير استواء ولا تماثل في القوّة مع الله عزّ وجلّ لذلك ولتباين القوى بين الأجزاء حسب الادعاء ينتفي الاتحاد.

نأتي لمناقشة كيفية الاتحاد، أن الكيفية المدعاة ترتكز على نظرية الحلول، أي أنّ روح الله حلت في عيسى وفي مريم بعد النفخ!

نقول معلوم أن:

الروح واحدة

---

605 الاستراتيجية الشاملة لمناصرة الرّسول، دروس وعبر من الحروب الصليبية، علي محمّد الصَّلاَّبيّ ص 45، نقلا عن دعوة المسلمين للنصّارى في عصر الحروب الصليبية، ج 1، ص 275.

وأنّ كل روح غير الأخرى

وأنّ لكل روح

عليه نسأل:

إذا حلت روح الله في عيسى فهل بقي لله روح؟

إذا حلت الروح في مريم فأين ذهبت روحها التي كانت فيها؟

هل يمكن أن تحمل مريم روحين في جسدها روح الله روحها التي كانت تحيي بها قبل ذلك؟

وربّما يقول قائل إنّنا نناقش الفريق الذي يقول بثالوث (الله، عيسى، مريم)، وأنّ هناك ادعاء ثالوث آخر هو (الله، روح القدس، عيسى) نقول: إنّ اختلاف الادعاء بالثالوث هو من أبرز الأدلة على بطلانه ولو كان له وجه حقّ لكان واحدا ولكن لنأخذ بهذا المقال ونناقشه لنقول:

أنّ فكرة الحلول هي فكرة تحول الروح من مكان إلى آخر لسبب ما وهذا هو صلب فكرة الحلول وعليه فان أصحاب الادعاء يقولون إن روح الله حلت بعيسى عن طريق روح القدس هنا نقول مفندين:

فإذا حلت روح الله في عيسى فهذا يعني أنّ الله فقد بعضه ـحاشا للهـ ولم يكتمل عيسى بالمطلق لأنّه أخذ البعض ولم يأخذ الكل فلا يمكن عند ذاك إن يكون عيسى إلها.

فإذا كان الفعل والصفة في الروح، فماذا بقي لله بعد أن وهب روحه لعيسى؟

إذا حلت روح الله في عيسى عن طريق روح القدس فليس هناك بعد ذلك روح القدس.

والطرفين السابقين هما أطراف الثالوث وبانتفاء وجود الروح لديهم انتفي وجودهم وبطل الثالوث وبقي عيسى إلها مطلقا وهذا ما لم يستطع القول به حتى اشد النصارى تمسكا بهذا الادعاء وعليه فالثالوث سواء كان ثالوث (الله عيسى مريم) أو ثالوث (الله، روح القدس، عيسى) هو باطل للاستحالة.

وإذا كان النصارى جازمين في القول بحلول الروح في عيسى من خلال النفخ، فيجب أن يكونوا جازمين كذلك بحلولها في آدم من خلال النفخ، فهم يقرون-له بروح من الله في حجاب من تراب606. وهو أمر تقول به كتب النصارى على اختلافها_ بل آدم أولى فقد نفخت روحه في السماء بينما نفخت روح عيسى في الأرض! أيمكن أن تحل الروح في أحدهما ولا تحل في الأخر وقد نفخت روحهما من الله!

هنا قد يعرض علينا خاطر أو يبدر أحد بقول مفاده أن الحلول كان حلول الجزء من الروح وليس كل الروح، وهذا القول أضعف من الأوّل لانّ الروح إذا تجزأت لم تعد روحا وإنما أصبحت بعض الروح وبعض الروح لا يحيا كما تحيي كل الروح، فهذا الاجتزاء إضعاف لله جل عما يقولون الخلق البارئ، وهو بالتالي ضعف في عيسى صلّى الله عليه وسلّم المخلوق الرّسول.

ولهؤلاء ولغيرهم نقول إن روح عيسى صلّى الله عليه وسلّم هي روحه التي خلقها الله عزّ وجلّ له ونفخها في جسده (التراب) وهي

606 مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، ص 129.

كروح آدم المخصوصة له ولو كانت الروح المنفوخة واحدة للزم أن تكون هي ذات الروح التي نفخت في آدم وهذا محال حسب زعمهم لأنهم يدعون أن عيسى خلق آدم!!! فهو روح من الله وليس، وعلى ذلك تنص الآيات، {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}607، {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آَيَةً لِلْعَالَمِينَ}608.

وهكذا فان الواحد سبحانه لم يكن عن اتحاد مع ذوات أخرى لانتفاء مقومات الاتحاد، وذلك لانعدام وجود ذات مطابقة ومماثلة لذات الواحد جل في علاه، وهو أمر حاول بعض من تولى الشرك على عقولهم أن ينسبوه للواحد سبحانه وكما يقول عنهم جل في علاه: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ}609.

ثم قال تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}610، والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزها عن الولد، والواحد سبحانه لا يكون له ولد لوجوه الأول: أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد. وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه، الثاني: شرط الولد أن يكون مماثلا في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم ألا يحصل من

607 – النساء 171.

608 – الأنبياء 91.

609 الزخرف 15.

610 الزمر 4.

تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوما بسبب منفصل، فلا يكون إلها واجب الوجود لذاته. فثبت أن كونه إلها واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدا في حقّيقته، وكونه واحدا في حقّيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحدا يمنع من ثبوت الولد الثالث: أنّ الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لابدّ وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحدا بل كانت زوجته من جنسه[611]، فهل لله زوجة من جنسه حاشا لله بالتأكيد ستكون الإجابة القاطعة لا بلسان النصارى قبل غيرهم لان مريم عليها والصّلاة والسّلام كانت إنسانة صديقة من نسل عمران البشر، فهي بشر من بشر إلى آدم أبو البشرية وزجه أم البشر.

نعرض الآن أسباب الاتحاد أو لماذا الاتحاد؟

بكل المعطيات لا مبرر لان تتخلى ذات الله عن واحديتها بصفة أو فعل لصالح أحد من مخلوقاتها لان ذلك يؤدّي إلى القول بالإيجاد وهي لم تكن من صفات الله عزّ وجلّ الباقي الذي لا تتبدل له صفة أو يتغير حال، أي أنّ القول بأن عيسى إله أشركه الله في حكمه يعني:

يمكن لله أن يوجد في أحد مخلوقاته إلها.

الإيجاد يعني التجسيد.

التجسيد يعني التشكل.

التشكل يعني الاحتواء.

الاحتواء يعني الإحاطة.

---

[611] تفسير الرازي، ج 13، ص 226.

وهكذا وصلنا إلى أنه يمكن الإحاطة بالله عزّ وجلّ، هنا نسألهم:

أين الله الذي أحطتم به؟

ونقول لهم لو أراد الله عزّ وجلّ أن يحاط به لكان ذلك قبل عيسى وعند الخلقّ فلماذا الآن وعند عيسى بالتحديد؟ أنه الله الواحد المحيط بكل شيء ولا يحاط ولو بشيء من علمه فيكف به سبحانه وتعالى عما يصفون.

بقي الفرض الثالث (الواحد المطلق) وهو يليق بوصف الذات لأن الواحد المطلق يدل على الماهية بلا قيد612، أي ينتفي عن الوصف بالواحد المطلق البداية والنهاية والتجزؤ والاتحاد، والزمن واستغراقه.

فالواحد يعني انفراد الذات أو الصفة عن الغير، فتقول هو واحد أهل عصره تريد أنه قد انفرد بصفة ليس لهم مثلها وتقول الله واحد تريد أن ذاته منفردة عن المثل والشبه.

وقال علي بن عيسى رحمه الله تعالى: الواحد ما لا ينقسم في نفسه أو معنى في صفته دون جملته كإنسان واحد ودينار واحد، وما لا ينقسم في معنى جنسه كنحو هذا الذهب كله واحد وهذا الماء كله واحد، والواحد في نفسه ومعنى صفته بما لا يكون لغيره أصلا هو الله جلّ ثناؤه613.

والواحدُ بُني على انقطاع النظير وعَوَزِ المثل614، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}615، فلا أحد يعدل الله الواحد ليصل إلى درجة التكافؤ

---

[612] محمّد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص 1663.

[613] الفروق اللغوية، ج 1، ص 400.

[614] تهذيب اللغة، ج 2، ص 170.

[615] الإخلاص 4.

وهي التساوي المطلق بين طرفين616، أي أن يكون مقابل للواحد يساويه بالمطلق، وهذا معدوم، وإذا حل العدم اختص بالواحدية فهو الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

كما انعدمت درجة التماثل، يقول الواحد سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السّميع الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}617، "حكم الله تعالى بأن مثل مثله ليس بشيء، ولا شك أن كل شيء مثل لمثل نفسه، وثبت بهذه الآية أن مثل مثله ليس بشيء ينتج أنه تعالى غير مسمى بالشيء، فإن قالوا إن الكاف زائدة، قلنا هذا الكلام معناه أن هذا الحرف من كلام الله تعالى لغو وعبث وباطل، ومعلوم أن هذا الكلام هو الباطل، ومتى قلنا إن هذا الحرف ليس بباطل صارت الحجّة التي ذكرناها في غاية القوّة والكمال.

وانتفاء التماثل علته تعالي الواحد عما سواه، فالواحد أكبر من كل شيء فتعالى الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء).

فالواحد له أحادية الوجود، فليس هناك حقّيقة إلا حقّيقته، وليس هناك وجود حقّيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر إنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقّيقي، ويستمد حقّيقته من تلك الحقّيقة.

فالواحد المطلق هو المتمكن من الأحدية لعدم التماثل مع الغير لانتفاء وجود من يماثله جل في علاه لدواعي هي:

616 الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، ج 1، ص 395.

617 الشورى 11-12.

1- التماثل يكون حقّيقة في أخص الأوصاف وهو الذات618، ولا ذات غير ذاته حتى في ادعاء النصارى أنفسهم.

2- التماثل هو التعادل في تناظر وتناسب619. {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}620.

يَعْدِلُونَ من العدل بمعنى العدول أو منه بمعنى التسوية، والكفر يحتمل أن يكون بمعنى الشرك المقابل للإيمان أو بمعنى كفران النعمة، والباء يحتمل أن تتعلق بكفروا وأن تتعلق بيعدلون والمعنى أنّه سبحانه خلق هذه النعم الجسام والمخلوقات العظام التي دخل فيها كل ما سواه، ثم إنّ هؤلاء الكفرة أو هؤلاء الجاحدين للنعم يسوون به غيره ممن لا يقدر عليها وهم في قبضة تصرفه ومهاد تربّيته621.

والعقل البشري مهما توسع ونضج وارتقى فإنه عاجز عن إيجاد مُعادل يناسب ويناظر الله جل تعالى عما يشرك المشركون، لأنه الله الذي لا إله إلا هو، ولان ما سواه مطوق بالعجز عن معادلة الله في فعل أو قول أو اسم أو صفة، لذا فإن بعض الكفار عندما أرادوا إقامة المعادلة أعيتهم الحيلة فأقاموا المعادلة بين أرضي وأرضي لأنهم يعلمون علم اليقين أنّ ما من أرضي يعدل الله في عرشه فقالوا للرسول وكما يخبرنا عنهم العليم الخبير جل في علاه: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي

---

618 الفروق اللغوية، ج 1، ص 481.

619 معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 145.

620 الأنعام 1.

621 تفسير الألوسي، ج 5، ص 220.

إِسْرَائِيلَ}622، فالكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى، روي أنّه لما نزل قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ}623، قال عبد الله بن الزبعري: هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بل لجميع الأمم" فقال خصمتك وربّ الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النّار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النّبي صلّى الله عليه وسلّم وفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}624. وهكذا فإن الكفار لم يستطيعوا إيجاد من يقوموا بمعادلته بالله فكان مثالهم أن عادلوا عيسى صلّى الله عليه وسلّم بآلهتهم وهي معادلة فارغة من المعنى والمضمون لأنها تفتقر إلى مساحة علائقية تربّط أطراف المعادلة.

3- التماثل هو المشاركة في النوع والماهية لا مطلق المشاركة، فالفرس الكيس وإن كان بالغا في الكياسة ما بلغ لا يكون ممّاثلا للإنسان لمخالفته له بالنوع وإن شابهه بالكياسة التي هي عارضة خارجة عن المقومات للإنسانية؛ وأنت تعلم بأدنى التفات أنه لا يتصور الشركة بين الله تعالى الحي العليم المريد القادر المتكلم السّميع البصير وبين العبد

---

[622] الزخرف 57-59.

[623] الأنبياء 98.

[624] الأنبياء 110.

المتصف بالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر إلا في إطلاق الاسم لا غير625.

وهذه مسألة في غاية الأهمية لمن يريد معرفة الواحد سبحانه، لانّ النظير والشبيه منتفٍ للنقص الحاصل في الكل سواه سبحانه وتعالى عما يشركون.

والإنسان الذي خصه الواحد سبحانه بأن كرمه فقال عنه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}626، هو متبدل غير ثابت على هذه الحال، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}627، فالإنسان له من الفضائل على المخلوقات الكثير الكثير لكن نقصا حاصلا في ذاته تمنعه من التفرد بالواحدية، فهو يمرض فيحتاج إلى طبيب يداويه وهو يجوع ويحتاج من يطعمه، وهو محتاج من كل بد إلى شريكة (زوجة) يسكن إليها ويقضي معها رفثه الذي يؤدّي به إن لم يُقض إلى الخيانة، {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}628، فموجبات الواحدية منتفية عند الإنسان.

ومعلوم أن عيسى يعجز عن أن يكون ذات الله أو معادل له بالمطلق وهو ما أقر به لسانه صلّى الله عليه وسلّم كما يخبرنا العليم عزّ وجلّ فيقول: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا

---

625 تفسير الألوسي، ج 6، ص 465.

626 التين 4.

627 التين 5.

628 البقرة 187.

لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[629]، ولذا؛ فإنّ الخالق لا يقارن بالمخلوق وذلك لانعدام التماثل، وهذا مرتبط بخلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم فهو يمرض ويجوع ويغضب ويهلع ويضعف ثم بعد ذلك هو يموت، فمن أين جاء الاشتراك مع الله في صفة أو حكم أو فعل.

وأخيرا ينقل الدكتور على الصلابي عن الجعفري قوله: "زعم النصارى أنّ المسيح خلق آدم وذريته أجمعين، ثم اعترض عليهم بقوله: ... فمريم من خلقها؟ فإن قالوا: ليست من خلقه نقضوا مقالهم، وإن زعموا أنّه خلقها فيقال لهم: كيف تلد المسيح وهو خالقها؟ أم كيف ترضعه وهو رازقها؟، أسمعتم يا معشر العقلاء بامرأة ولدت خالقها"[630].

وهذا القول قابل للمناقشة والتفنيد، فهو ينص على أن الله موجود ثم أوجد ذاته من خلال مريم في عيسى؟ يا لهذا العقل الذي يقبل أن يُوجد الموجود ذاته، الموجود لا يوجد، وإنما المعدوم ممكن الوجود، وهذا ما حصل لعيسى المخلوق الذي كان عدما ثم أوجده الله بكن فكان عبدا له، وأمّا أنّ الله أوجد عيسى ليوجد فهذا سفه عقلي لانّ الموجود باق، والباقي هو الذي لا يتبدل وهو الموجود لا عن حدوث في حال

[629] المائدة 116-117.

[630] تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، ج 1، ص 396.

وصفه بذلك631، أي إذ ذُكر الباقي فصفة الوجود كامنة في الذات لا في الحدث.

وفاة عيسى:

يقول الحقّ جلّ وعلا: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}632.

نبدأ البحث في المصير الذي اختاره الله لعبده ونبيه عيسى، ونقول المصير الذي اختاره الله وليس أحد آخر، فقد ادعى البعض ادعاءات غريبة حول هذا المصير فقالوا بالقتل وقالوا بالصلب وغير ذلك ممّا سمي بعذابات المسيح وغيرها. لذا نعتقد أن من الضروري مناقشة هذه الأفكار والبحث فيها. وأول هذه الأمور نقف مع قضيتين هما:

- القتل
- الصلب

يقول جلّ وعلا: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}633.

---

[631] معجم الفروق اللغوية، ج 1، ص 90.

[632] - آل عمران 55.

[633] - النساء 157-159.

أوّل شيء نقف عنده هو السؤال: لماذا بدأ الله عزّ وجلّ بالقتل أولا ثم جاء بالصلب؟ ألم يكن أولى إن يكون الصلب أولا ثم القتل ثانيا؟

نقولّ إنّ ابتداء الله بالقتل ثم الإتيان بالصلب من بعد فيه نفي مطلق للادعاءين، وكأنه سبحانه وتعالى يقول لنا ولغيرنا لم يقتلوه ولم يقدروا حتى على اقل من ذلك وهو الصلب.

وفي هذه الآيات يأتي عرض مسألة مهمة وهي موت عيسى، حيث تنفي الآية الادعاء بقتل المسيح، والنفي هنا ليس لعلة العجز عن القتل لا إرادة ولا فعلا لأنهم سبق لهم قتل الأنبياء مصداقا لقوله تعالى: {مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}634، لكن لأسباب أخرى منها:

بسبب التأييد الإلهي (وأيدناه بروح القدس) ذكر الله سبحانه وتعالى هذا التأييد في ثلاثة مواضع تفضيلا مخصوصا لسيدنا عيسى كما سبق الذكر، والنصوص توجب عدم التوهم بغير ذلك، فإذا أيقنا به صعب على المنطق القبول بالقتل إلى جانب التأييد حيث سيظهر بكل تأكيد نوع من المفارقة بين القتل الذي هو بمثابة الترك وبين التأييد وهو موجب للملازمة الدائمة.

لاكتمال التكليف حيث نستشعر من الآيات الكريمة أنّ عيسى كان في خضم صراع مرير مع بني إسرائيل وأن زمن التكليف لابدّ له من الاكتمال بالإيمان بعيسى مصداقا لقوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)،

---

[634] – النساء 155.

وكان عيسى صلّى الله عليه وسلّم لا يزال يبلغ رسالة ربّه كما يدل مطلب المائدة يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا وَآَيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}635.

انتصار على التحدي الباطل كان من أشرس مظاهر الرفض والكفر بدعوة عيسى دعوتهم لقتله، وكان ذلك تحديا لإرادة الله سبحانه وتعالى الذي يقول في كتبه العزيز ولكل أنبيائه: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}636، هذه الإرادة الإلهية لا يمكن لها أن تنثني حاشا لله فكان منعه عزّ وجلّ للكافرين من الوصول إلى عيسى عليه والصّلاة والسّلام. فإذا قيل لماذا إذا استطاع بعض بني إسرائيل قتل بعض الأنبياء، {وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}637، نقول إن الحكمة الإلهية قضت أن يحصل هذا الفعل مع القدرة على منعه لانّ الله عزّ وجلّ أراد أن يكون قتل الأنبياء آية للمؤمنين تبين لهم نوع العداء الذي يكن بعض الخلق لله وملائكته

635 - المائدة 110-115.

636 - الحج 40.

637 - آل عمران 181.

ورسله، كذلك ليعطي عباده الحجّة القاطعة على كفر وفساد من كفر من بني إسرائيل وإلا كانت ستكون تهمة بدون دليل لانعدام الفعل.

نأتي لنفي الصلب (وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)، نحن هنا أما احتمالين هما:

الأوّل: أنّ الصلب حدث لغير المسيح أي: لمن شبه لهم.

الثاني: أنّ الصلب لم يحدث مطلقا، وإنّما الذي اشتبه عليهم خبره.

بالنسبة للاحتمال الأوّل الذي يفيد بأنّ المسيح لم يصلب وإنما ألقى الله عزّ وجلّ شبهه على أحد البشر سواء كان من دل أعداءه عليه وهو ما تقول به بعض أناجيل النصارى ويفيد بأن" (يهوذا الاسخريوطي) أحد أصحاب المسيح، وكان قد ضلّ ونافق، هو الذي وشى بعيسى عليه السّلام وهُو الذي ألْقَى الله عليه شبهَ عيسى، وأنَّه الذي صُلب، وهذا أصله في إنجيل برنابي أحد تلاميذ الحواريين"638. أم سواء ما قالت به بعض التفاسير من أن اليهودُ أجمعت على قتله فأخبره الله تعالى بأنه سيرفعه إلى السماء فقال لأصحابه: أيُّكم يرضى بأن يُلقى عليه شبَهي فيُقتلَ ويصْلَبَ ويدخُلَ الجنّة؟ فقال رجل منهم: أنا، فألقَى الله تعالى عليه شبَهَه فقتل وصُلب"639.

فإن هذا فيه نظر ويحتاج إلى تمحيص، لقد رفض بعض كبار العلماء هذه الآراء وكان لهم فيها قول ومن أبرزهم يأتي الرازي الذي ناقش المسألة عقليا فقال: "أنّه إن جاز أن يقال: أنّ الله تعالى يلقي شبه إنسان على إنسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة، فإنا إذا رأينا زيدا فلعله ليس بزيد، ولكنه ألقى شبه زيد عليه، وعند ذلك لا يبقى

638 – تفسير ابن عاشور، ج 4، ص 82.

639 – تفسير أبو السعود، ج 2، ص 178.

النكاح والطلاق والملك، وثوقا به، وأيضا يفضي إلى القدح في التواتر لأن خبر التواتر إنما يفيد العلم بشرط انتهائه في الآخرة إلى المحسوس، فإذا جوزنا حصول مثل هذه الشبهة في المحسوسات توجه الطعن في التواتر، وذلك يوجب القدح في جميع الشرائع، وليس لمجيب أن يجيب عنه بأن ذلك مختص بزمان الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، لأنا نقول: لو صح ما ذكرتم فذاك إنما يعرف بالدليل والبرهان، فمن لم يعلم ذلك الدليل وذلك البرهان وجب أن لا يقطع بشيء من المحسوسات ووجب أن لا يعتمد على شيء من الأخبار المتواترة....، وبالجملة ففتح هذا الباب يوجب الطعن في التواتر، والطعن فيه يوجب الطعن في نبوّة جميع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فهذا فرع يوجب الطعن في الأصول فكان مردودا"[640].

ونحن إذ نعتقد بما يقول الرازي نضيف بعض موجبات الرفض لمسألة التشبيه الصوري وهي إنه من غير المنطقي إن يلقى الله عزّ وجلّ على منافق ضال صورة مؤمن مختار مصطفي رسول نبي، حيث سيحدث ولاشك خلط بين الحقّ والباطل وبين الخير والشر وبين النور والظلام، وهذا محال بحقّ الله عزّ وجلّ، لانّ رسالة الله إلى خلقه ومن آدم إلى الخاتم مجمّد صلوات الله وسلامه عليه كانت تقوم لغاية الفصل بين الحقّ والباطل وبين الخير والشر لا على الخلط بينهما مهما كانت الأسباب، لذلك فإننا نعتقد أنه من المستحيل أن يكون هذا فعل الله عزّ وجلّ.

أمّا أن يكون عيسى قد طلب من أحد أتباعه أن يفتديه فهو غير منطقي من ناحيتين:

---

[640] – تفسير الرازي، ج 5، ص 433.

الأولى: أنّ عيسى هو من يضحي من اجل الآخرين وليس هو من يطلب منهم، ولم تكن هذه من صفات الأنبياء وليتذكر من يقول بذلك تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل صلّى الله عليهما وسلّم وهو الذي ولد على كبر وبعد حرمان، فكيف يمكن أن يكون هذا خلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم مع أتباعه؟

الثانية: أن الخبر يقول إنّ الله أخبر عيسى بأنه سيرفعه إليه فما هي الحاجة إلى طلب افتداء احد أتباعه له؟ لأنهم كانوا يطلبون عيسى وعيسى ناج بما أخبره الله عزّ وجلّ من خبر الرفع عليه سيكون من غير المنطقي أن يطلب عيسى طلبا يؤدّي إلى قتل أحد أصحابه دون داع لذلك.

فكيف نفسر قوله تعالى (شبه لهم)، نذكر بعض الآراء القيمة في ذلك ثم ندلو بدلونا في الموضوع.

قال أبو علي الجبائي: إنّ رؤساء اليهود أخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على موضع عال ولم يمكنوا أحدا من الدنو منه فتغيرت حليته، وقالوا: إنا قتلنا عيسى ليوهموا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي به عيسى عليه السّلام فلما دخلوه ولم يجدوه فخافوا أن يكون ذلك سببا لإيمان اليهود ففعلوا ما فعلوا، والمراد وقع لهم تشبيه في الأمر و(شُبّهَ) من الشبهة أي التبس عليهم الأمر[641].

ويقول ابن عاشور: "والّذي يجب اعتقاده بنصّ القرآن: أنّ المسيح لم يُقتل، ولا صُلب، وأنّ الله رَفَعَه إليه ونجّاه من طالبيه، وقوله: (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه) يدلّ على وقوع خلاف في شأن قتل المسيح. والخلافُ فيه موجود بين المسيحيين: فجمهورهم يقولون: قتلته

[641] - تفسير الألوسي، ج 4، ص 301.

اليهود، وبعضهم يقول: لم يقتله اليهود، ولكن قتلوا يهوذا الاسخريوطي الذي شبّه لهم بالمسيح، وهذا الاعتقاد مسطور في إنجيل برنابي الذي تعتبره الكنيسية اليوم كتابا محرّفا فالمعنى أنّ معظم النّصارى المختلفين في شأنه غير مؤمنين بصلبه، بل يخالج أنفسهم الشكّ، ويتظاهرون باليقين، وما هو باليقين، فما لهم به من علم قاطع إلاّ اتّباع الظنّ. فالمراد بالظنّ هنا: معنى الشكّ، وقد أطلق الظنّ على هذا في مواضع كثيرة من كلام العربّ.

واليقين: العلم الجازم الذي لا يحتمل الشكّ، وقوله (يقينا) يجوز أن يكون نصب على النيابة عن المفعول المطلق المؤَكِّد لمضمون جملة قبله: لأنّ مضمون: (وما قتلوه يقينا) بعد قوله: (وقولهم إنّا قتلنا المسيح) إلى قوله (وما قتلوه وما صلبوه ولكنّ شبّه لهم) يدلّ على أنّ انتفاء قتلهم إيّاه أمر متيقّن، فصحّ أن يكون يقينا مؤكّدا لهذا المضمون642.

أمّا رأينا في القضية فنقول: سواء أكان الصلب حدث أم لم يحدث بالمطلق؛ فالنتيجة هي أنّ عيسى لم يكن المصلوب بانتفاء فعل الصلب أو بوجوده، ذلك أن عيسى كان من المصطفين الأخيار الذين أنجاهم الله ونصرهم.

هنا ستتبادر التساؤلات الآتية:

إذا لم يقتل عيسى ولم يصلب فما كان المصير؟

عيسى توفاه الله ثم رفعه (إني متوفيك ورافعك إلي) فما معنى الوفاة؟

لماذا الرفع؟

---

642 – تفسير ابن عاشور، ج 4، ص 82.

لماذا عيسى يُرفع وأنبياء آخرين يقتلون؟

ما التطهير؟ ولماذا؟

ألم يكن من قبل مطهرا؟

لماذا تأخر عن الرفع؟

يحدد الله عزّ وجلّ مصير عيسى صلّى الله عليه وسلّم بدقة مصداقا لقوله تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).

ويلاحظ أن ترتيبا دقيقا ارتسم في تبيان درجات الارتقاء الحاصل لعيسى صلّى الله عليه وسلّم من الأرض إلى السماء وعلى النحو الآتي:

متوفيك

رافعك

مطهرك

أما الوفاة فقد قال فيها العلماء كثير من الأقوال منها:

يقول الرازي: اختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين ولهم في تفسيرها عدة وجوه الأوّل: معنى قوله (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربّك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن.

والثاني: (مُتَوَفّيكَ) أي مميتك، وهو مروي عن ابن عباس.

الوجه الثالث: في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي، وهو أن المراد (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال: (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) وذلك لأنّ من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

الوجه الرابع: إنّ التوفي أخذ الشيء وافيا، ولما علم الله إن من النّاس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنّه صلّى الله عليه وسلّم رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده.

الوجه الخامس: (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) أي أجعلك كالمتوفي لأنّه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفي، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الوجه السادس: أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير: متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) أي ورافع عملك إلي، والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشّره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها643.

بينما يذهب ابن عاشور بقطعية الوفاة التي بمعنى الموت فيقول: "وقوله: (إني متوفيك) ظاهر معناه: إنّي مميتك، هذا هو معنى هذا الفعل في مواقع استعماله لأنّ أصل فعل توفي الشيءَ أنه قَبَضه تاما واستوفاه. فيقال: توفاه اللهِ أي قدّر موته، ويقال: توفاه ملك الموت أي

643 – تفسير الرازي، ج 4، ص 227.

أنفذ إرادة الله بموته، ويطلق التوفّي على النوم مجازا بعلاقة المشابهة في نحو قوله تعالى: {وهو الذي يَتَوَفَّاكم بالليل}644، وقولهّ {الله يتوفى لأنفسَ حينَ موتها والتي لم تَمُتْ في منامها فيُمْسِك التي قضى عليها الموتَ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى}645، أي: وأمّا التي لم تمت الموت المعروف فيميتها في منامها موتا شبيها بالموت التام كقوله: (هو الذي يتوفاكم بالليل) ثم قال (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) فالكل إماتة في التحقّيق، وإنما فَصَل بينهما العرف والاستعمال، ولذلك فرّع بالبيان بقوله: فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى، فالكلام منتظم غاية الانتظام، وقد اشتبه نظمه على بعض الأفهام. وأصرح من هذه الآية آية المائدة: فلمَا توفيتَني كنت أنتَ الرقيب عليهم لأنّه دل على أنه قد توفي الوفاة المعروفة التي تحول بين المرء وبين علم ما يقع في الأرض، وحملُها على النوم بالنسبة لِعيسى لا معنى له؛ لأنهُ إذا أراد رفعَه لم يلزم أن ينام؛ ولأنّ النوم حينئذ وسيلة للرفع فلا ينبغي الاهتمام بذكره وترك ذكر المقصد، فالقول بأنها بمعنى الرفع عن هذا العالم إيجاد معنى جديد للوفاة في اللغة بدون حجّة، ولذلك قال ابن عباس، ووهب بن منبه: إنها وفاة موت وهو ظاهر قول مالك في جامع العتبية قال مالك: مات عيسى وهو ابن إحدى وثلاثين سنة"646.

أمّا نحن فنقول إن الاختلاف حول التفسير دليل قاطع على تميز حاصل في هذه الوفاة، فهي:

-ليست ككل وفاة فهي مشفوعة بالرفع والتطهير.

---

644 - الأنعام 60.

645 - الزمر 42.

646 - تفسير ابن عاشور، ج 3، ص 110.

لم يذكر الموت مع عيسى مطلقا مع أنّه ذكر مع أنّبياء ورسل غيره، فقد قال الله عزّ وجلّ عن يعقوب: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}647، وعن سليمان {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}648، وعن محمّد صلّى الله عليه وسلّم {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}649.

هاتان الحقّيقتان موجبتان للتساؤل الآتي:

إذا كانت هذه وفاة الموت فهي وفاة الجسد بكل تأكيد دون الروح، فلماذا الرفع والروح ستُرفع إلى ربّها بكل حال من الأحوال؟

نحن الآن أمام خيارين فهل نختار واحدا منها، أم لنا رأي آخر؟

يمكن للقارئ أن يأخذ من هذه الآراء ما يشاء فيما يرى أنها اقربّ إلى الصواب، ولكن ألا يمكن التفكير بخيار ثالث؟

نقول نعم يمكن من خلال استجماع ما سبق من الآراء ثم بلورة رأي يقبله المنطق ولا يخالفه نص وعلى الاحتمال، والرأي هو أن عيسى على وجه الخصوص رفعه الله جسدا وروحا تطهيرا لهذا الجسد الطاهر من أن يقربّه المشركون لأنهم نجس مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}650، وممّا يؤكد قولنا هو أن عيسى في

---

[647] – البقرة 133.

[648] – سبأ 14.

[649] – الزمر 30.

[650] – التوبة 48.

حياته كان مطهرا من رحم مطهرة (ومطهرك على نساء العالمين)، هنا يكون القول بأن تطهيرا سيحصل لعيسى بعد الرفع فيه تناقض وهذا محال بحقّ الله عزّ وجلّ، أما المؤكِد الآخر فهو تتمة الآية حيث حصر الله عزّ وجلّ التطهير بـ (مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)؛ فالتطهير ليس لذات عيسى لأنّها طاهرة من قبل ولكن التطهير من نجس ممكن متوقع من الذين كفروا كأن يمثلوا بالجسد الطاهر أو يُظهروا عورته أو أي أذى في دائرة الممكن المتوقّع.

ولبلورة الفكرة كما ينبغي أن نقرأ الحدث من بداياته في موضوع هو:

عيسى من توفيته إلى إنزاله:

الوفاة تتممةُ لاحقّ على سابقٍ، ولذلك فهي تُعد مرحلة من المراحل أو خطوة من الخطوات أو متغيرٍ من المتغيرات التي تُسجل في سجلات الحياة والتعدادات الإحصائية للأقوال والأعمال والرسالات.

والوفاة لا تتم إلا بفعل فاعل قادر، والقائم بها مُوفي، والقائمة من أجله موَّفي لا منقوص له فكل شيء على التمام. ولهذا فالوفاة هي فعل يتم إنجازه من قبل المختص به دون نقصان.

الوفاة من حيث المفهوم ليست الموت كما يعتقد البعض، فلكل منهما معنى ودلالة لا خلط بينهما، فالموت حقّ على الجميع لا مفر منه، أما الوفاة فهي تتممة للأعمال والأقوال دون زيادة ولا نقصان، وهي ليست بالضرورة أن تكون النهاية كما هو حال الموت الذي هو نهاية الحياة الدنيا، فمن عاهد وفي ومن صدق القول وفي ومن أخلص في عمله وفي ومن أتم رسالته وفي، ولذلك فالوفاة لا تكون إلا بالإنجاز التام مع فائق الإخلاص.

ولذا؛ فالوفاة تتعدد والموت واحد لا يتعدد وإن تعددت أسبابه، فكل الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم كانوا وفاة في أقوالهم وأعمالهم ورسالاتهم وأنبائهم ثم ماتوا فكُتِبت عليهم الوفاة من بعد الموت باستثناء عيسى صلّى الله عليه وسلّم توفي ولم يمت ممّا جعل وجوده في السماء آية، قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}651.

لقد نفي الله تعالى قتل عيسى ابن مريم بالمطلق، ونفي صلبه بالمطلق، ومع ذلك يظن البعض بأنه صُلب وقُتل، وفي مقابل ذلك يعتقد البعض الآخر يقينا بأنه لم يُقتل ولم يُصلب ومن هؤلاء:

المؤمنون من أهل الكتاب (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) أي أنهم يؤمنون به الآن باقيا حيا، ويؤمنون بأنه سيكون عليهم شهيدا يوم القيامة (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)، وهؤلاء المؤمنون كغيرهم من المؤمنين من المسلمين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين بعد الرّسالة الخاتمة والرّسول الكافة. ولذلك نقول: الأيمان واحد والرّب واحد ونحن لا نفرّق بين أحد من رُسلِهِ إيمانا بقوله تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}652.

---

[651] النساء 157 . 159.

[652] البقرة 285.

إذا من يؤمن بالله تعالى فالله تعالى قال: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ)، لذا؛ فبالنسبة للمؤمن المصدِّق لا شك في ذلك أبدا، {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ ربّكَ الْعَظِيمِ}653.

سبحان الله العظيم إنَّ قوله الحقّ، ولذلك أقول مرة ثانية: سبحان الله العظيم الذي رفع عيسى إليه، وأقولها مرة أخرى: لكي تبقى في نفسي دائما سبحان الله العظيم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم.

التشبيه هو ما لم يكن بأصل، ولذلك دائما في التشابه يبرز اللبس والغموض ولم يبرز الوضوح والتجلي، ولهذا في التشبُّه إخفاء وإنكار للحقّيقة، والشبه والتشبُّه على وجهين:

الأول: الشبه الطبيعي الذي هو في كثير من الأحوال يظهر بين التوأم والمتشابهين في الخلق.

الثاني: التشبُّه بالآخر وهو ما يُعمل اصطناعا على إظهار ما يقاربّ به أو له.

ولذا؛ فالمترتب دائما على الشبه والتشبُّه هو الشك لأجل التعرف يقينا، أو الظن الذي يؤدّي في بعض الأحيان إلى تحقّيق الإثم، ولتبيان الفرق أقول:

---

653 الحاقة 40 . 51.

1 . الشك: لا يكون إلا مع توفر الموضوعية أو حسن النية دون إصدار للأحكام القطعية.

2 . الظن: هو المترتب على إصدار الإحكام قبل التبيُّن الذي به يُزال اللبس والغموض وتُصحَّح الآراء والمواقف أو تُصحَّح الأقوال والأفعال والأعمال.

قال تعالى: (وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ)، يُفهم من قوله تعالى: (شُبِّهَ لَهُمْ) أن التشبُّه كان بفعل فاعل وهو الله الفعَّال لِما يُريد، حتى ظن الذين يريدون صلب عيسى صلّى الله عليه وسلّم بأنه هو المصلوب وهو المقتول، فقبضوا على الشبيه وصلبوه وقتلوه ظنا منهم بأنه هو عيسى الذي حفظه الله جلّ جلاله بالرفع إليه.

ويُفهم من قوله تعالى: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ) الذين اختلفوا فيه على فريقين:

1 . البعض كان يشك بأن المصلوب والمقتول ليس عيسى عليه والصّلاة والسّلام.

2 . البعض الآخر يشك في شك الذين يشكون في أنّه لم يكن عيسى صلّى الله عليه وسلّم ولذلك كان الجميع مختلفين فيه، إلا الظانين الذين شكوا في شك الظانين، فهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ)، ومن يتّبع الظن يأثم إثما كبيرا ويظل في حاجة للاستغفار والتوبة وإن لم يفعل فيكون جزاؤه العذاب

الشديد، ولذا، نهى الله عزّ وجلّ عن الظن مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}654.

ولأنّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم رسول ونبي فله رسالة تستوجب التبليغ ونبأ يتوجب الاهتداء به للتي هي أقوم، لذا، كانت له مهمة التبليغ والترشيد والتحريض والإنذار والدعوة لأفعال الخيرات الحسان، فوفى بأفعاله على كل ما كُلّف به ولم يَقُل ما لم يَقُلهُ عزّ وجلّ له، فلو قال ما لم يقله جلّ جلاله ما وفى على ما أُمر باتباعه نبيا ورسولا كريما، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَربّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}655.

قوله تعالى: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) دليل على عدم وعي عيسى صلّى الله عليه وسلّم بما حدث في زمن توفيته التي من بعدها صحا مع كلام الله المتسائل له بقوله تعالى: (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، كان هذا الاستفسار في السماء بعد أن رُفع عيسى إليها بقدرة الله عزّ وجلّ الذي أيقظه واعيا ليجيب على ما جرى بشأنه عندما كان على الأرض نبيا ورسولا.

فكانت إجابته في قوله تعالى: (قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ

654 الحجرات 12.

655 المائدة 116، 117.

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ربِّي وَربّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

وفي المفهوم اللغوي لقوله تعالى: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) معنى يدل على اعتراف عيسى لربّه العزيز بأنّه قد أتم نعمته عليه من حيث:

1 ـ أنّه بلَّغ ما أُمِر وكُلِّفَ به من رسالة تدعو لعبادة الله واحد أحدا لا شريك له (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ربِّي وَربّكُمْ).

2 ـ أنّ الله تعالى لم يتركه أبدا أثناء أدائه للرسالة وبعد أن أدَّاها فحفظه من شرور الكائدين والماكرين ورفعه إليه، ولهذا قال (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) أي فلما رحمتني بالرفع كُنتُ في سباته لا اعلم شيئا، (وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

وعليه أقول: التوفية إتمام على الحقّ وهي ليست بإماتة، ولهذا قال (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) ولم يقل (فلمَّا أمتني)، وذلك للفارق في المعني من حيث:

أ ـ أنّ التوفية دليل استكمال الأعمال والمهام والرسالات الخالدة، ولذا فالوفاة لا تكون إلا لتقدير إتمام الجهد مع نيل الرضا.

ب ـ والإماتة هي: تتممة للعمر ونهاية له من قيد الحياة، ولهذا؛ فهي لا تكون إلا لنهاية العمر.

وعليه أقول:

ليس كل وفاة إماتة

ولا كل موت وفاة.

ولذا؛ فكل من أتم ما هو به مُكلَّف من رسالات ومن إعمار وإصلاح في الأرض ولم يسفك الدماء فيها بغير حقّ فهو موفي، وكذلك من يتم عمره على ذلك ويموت فيعد متوفي، أي لم يترك عليه دينا من ديون النقص.

ولأنّ عيسى عمره لم ينته بعد فلم يمت، ومع أنّنا نعلم أنّ الرّسالة المكلَّف بها عيسى لقومه قد أتمَّها على أفضل وجه إلا أنّنا لا نعلم يقينا بعد وفاته إن كانت أو لم تكن له مهمة أعظم، ولكن ما نعلمه يقينا توفاه الله جلّ جلاله وأنه لم يُصلب ولم يمت بل رفعه الله إليه ولهذا نعتبره يقينا في تعداد الأحياء، خاصة وأن القرآن لم يذكر هبوطه بعد أن رفعه إليه جلّ جلاله.

ولأنّ الموت لا يتعدد والوفاة تتعدد قد يتساءل البعض:

كيف تعددت وفاة عيسى عليه والصّلاة والسّلام؟

أقول تعددت وفقا للآتي:

1 . توفيته من غير أب، قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرّحمن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا}656.

656 مريم 17 . 22.

2 . توفيته بالكلام وهو من تحتها (زمن الوجود الحي على أرض الحياة)، قال تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}657.

3 . توفيته بالمعجزات، قال تعالى: {وَيُعَلّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}658.

4 . توفيته بالحفظ من الصلب والقتل، قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}659.

5 . توفيته بالرّسالة التي من بعده، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}660.

6 . توفيته بالرفع إليه، قال تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}661.

7 . توفيته بالإبقاء حيا، قال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}662.

---

[657] مريم 24، 25.

[658] آل عمران 48 . 50.

[659] النساء 157.

[660] الصف 6.

[661] النساء 158.

ولأنّ الوفاة ليس بالموت فهي تُطلب ولا يُطلب الموت، فالمؤمن يطلب الوفاة في الأقوال والأعمال والمهام والرسالات الخالدة ولا يطلب الموت، وذلك إيمانا منه بأن الموت كتابا موقوتا لا يأتي إلا في وقته الذي به يجب أن يكون فيكون في وقته على المؤمن رحمة ولذا فالقاعدة: (الموت آتٍ فلا يُطلب). ولهذا فالمؤمن لا يطلب الموت لعلمه أنه لن يأتي قبل موعده الذي لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله، ويطلب الوفاة لأجل أن يتم أعماله الصالحات أو رسالته التي هو بها مُكلّف من عند ربّه عزّ وجلّ كما هو حال يوسف صلّى الله عليه وسلّم الذي بطلبه كان راجيا من الله تعالى أن يتوفاه مسلما خالصا في أداء رسالته التي هو بها مُكلّف، قال تعالى: {ربّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ}663.

وفي المعنى في قوله تعالى: (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ) البقاء على الإسلام ضمانا لإتمام المهام الصالحات، ولهذا كانت دعوة يوسف لربّه وطلبه منه أن يجعله وافيا متوفيا لا منقوصا فيما يجب أن يّقدِم عليه ويقوم به حتى يضمن أن يكون مع الصالحين، ولهذا تتجزأ الآية السابقة من حيث المعنى إلى جزأين:

1 . (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا) تدل على أن يوسف صلّى الله عليه وسلّم له طلب ورجاء لربّه جلّ جلاله وهو يأمل أن يتم المهمة الإسلامية التي هو بها مكلف من عند الله تعالى.

2 . (وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ) تدل على أن طلب يوسف من ربّه أن تكون نهايته بالموت الذي ليس من بعده عمل أي يأمل ألا يلحقه

---

[662] النساء 157.

[663] - يوسف 101.

الموت قبل أن يتم مهمته التي بها يلتحقّ بالصالحين في الجنّة، وهذا لا يعني أنّ يوسف قد طلب الموت بل يعني أنه مؤمن به ويأمل أن يكون نهاية خير له حتى يلتحقّ وافيا بالصالحين.

وعليه أقول: إنّ الأنبياء والرّسُل المكرَّمين هم دائما لا يرجون إلا خيرا ولهذا، يتضرعون لله تعالى أن يتوفاهم مسلمين ويُميتهم مسلمين ممّا يجعل الوفاة والإماتة توفية ورحمة تلحقّهم بالصالحين.

ولأنّ جميع الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم هم مصطفون من عند الله عزّ وجلّ اصطفاءً فهم لابدّ أن يكونوا وفاة له بالإيمان والطاعة والهداية وملتزمون بأوامره ونواهيه ومبشرون ومنذرون ومحرضون وداعون لواحديته وبذلك فهو تعالى لهم معزا حكيما، مصداقا لقوله تعالى: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) من هذه الآية الكريمة علاقة قوية تتضح بين الظروف التي كان عليها آدم والظروف التي كان عليها عيسى صلّى الله عليهما وسلّم، ولذلك فالمثل واحد مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}664، ومن هذه التشابهات فيما يأتي:

1 . آدم صلّى الله عليه وسلّم خُلق في السماء خلقا بدون أب ولا أم، قال تعالى: {إِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}665.

[664] آل عمران 59.

[665] ص 71 . 74.

2 . عيسى صلّى الله عليه وسلّم خُلق بأمر السماء (كن) من أمٍ ولا أبا له، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحمن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آَيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}[666].

3 . آدم خُلق في السماء وأهبط إلى الأرض بعد الخطيئة والتوبة، قال تعالى: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[667].

4 . عيسى كان رسولا في الأرض وصُعِد به إلى السماء بعد أن وفي فتوفاه الله إليه، قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[668].

5 . آدم خُلِق في الجنّة وكُرِّم بها، قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا

---

[666] مريم 16 . 24.

[667] الأعراف 24، 25.

[668] النساء 157، 158.

اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[669].

6 . عيسى كُرِّم نبيا ورسولا في الأرض ورُفع إلى الجنّة في السماء، قال تعالى: {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[670].

7 . آدم صلّى الله عليه وسلّم تكلّم بالأمر (كن) ساعة خلقه ونُفِخت الروح فيه على قيد الحياة، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[671].

8 . عيسى صلّى الله عليه وسلّم تكلّم بالأمر (كن) ساعة خلقه ونُفخت الروح فيه على قيد الحياة، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ

---

[669] البقرة 35 . 37.

[670] المائدة 117 . 119.

[671] البقرة 30 . 33.

تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}672.

إذا خُلق آدم صلّى الله عليه وسلّم في الجنّة وأهبط منها إلى الأرض ثم تاب الله عليه بالجنّة مرة ثانية، وكذلك خُلق عيسى من غير أب بالأمر (كن) الذي نَفَّذه رسول من الله تعالى بعد أن تمثل لمريم عليها السّلام بشرا سويا، ثم رفعه الله إليه في الجنّة، ولهذا فالقاعدة: (الجنّة دار خلد لا يدخلها إلا الأحياء).

وعليه لا وجود للمقابر إلا في الأرض، ولا مكان للأموات إلا في الدار الدنيا، أمّا السماء لا يُخلق فيها ألا مُكرّم ولا يصعد إليها قبل البعث إلا مُكرَّم، ولهذا لا تصعد الأجساد إلى السماء.

وبما أنّه إلى السماء لا تصعد الأجساد إذا قوله: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) لا تعني (لما أمتني) بل تعني ممّا تعني لما عظمتني بحفظك الذي به كنت هنا في رعايتك في السماء.

ولأن الوفاة تتعدد والموت لا يتعدد قال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}673، من حيث المعنى يلاحظ الفارق في الدليل الاثباتي للوفاة من حيث:

672 مريم 23 ـ 25.

673 الزمر 42.

1 . النفس عندما تتم أيامها يكون الموت وفاة لتلك الأيام التي كُتِبت لها، والتي ستكون على يد ملك الموت الموكّل بها مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}674.

2 . النفس عندما لا تتم أيامها التي كُتبت عليها تتوفي وتصحو وتتوفي وتصحو كل يوم وفقا لقاعدة تعاقب الليل والنهار وهي لا تعد في تعداد الأموات بل تُعد في تعداد الأحياء في مناها وصحوتها.

الوفاة سابقة للموت ولاحقّة عليها:

أوّلا: سابقة للموت من حيث:

1 . وفاة النوم الطبيعي، مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}675.

2 . وفاة الإغماءات المرضية التي تُصيب البعض من ضربّة الشمس أو بأسباب الحوادث المفاجئة أو غيرها من الأمراض المتعددة.

3 . وفاة النوم غير الطبيعي كما هو حال التخدير بالتدخل الطبي لضرورة إجراء العمليات الجراحية.

4 . وفاة الرفع إليه جلّ جلاله وهي التي حدثت مع عيسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}676.

---

674 السجدة 11.

675 الأنعام 60.

676 المائدة 117.

ثانيا: لاحقّة للموت: قال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}677، يُفهم من قوله تعالى: (حِينَ مَوْتِهَا) زمن توقيت الموت، أي بإتمام العمر تنتهي الحياة بالموت وبها تكون الوفاة حيث لا منقوص من العمر بأي سبب من الأسباب التي قد تُمات بها المخلوقات إثما وظلما وعدوانا، قال تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا}678، يُفهم من الآية الكريمة السابقة المعنى الدلالي على وجهين:

الوجه الأوّل: تعظيم الذنب لمن يقتل النفس البريئة، مصداقا لقوله تعالى: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا).

الوجه الثاني: تعظيم الأجر والثواب لمن يُحيي النفس البريئة من الهلاك كالغرق والحرق والعطش والجوع والمرض والظلم والبرد والحر والانتحار، مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا).

الوفاة بين سابق عليها ولاحقّ لها:

الوفاة مرحلة من مراحل الاكتمال العقلي والمعرفي والعمري لا يمكن أن تكون ما لم يسبقها خلق، ولا يمكن أن تبقى سرمدية مادام الموت يلاحقّها، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}679.

---

677 الزمر 42.

678 المائدة 32.

679 النحل 70.

وعليه هناك ثلاث مراحل رئيسة تتوسطها الوفاة هي:

المرحلة الأولى: مرحلة الخلق (كن فيكون)، قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ).

المرحلة الثانية: مرحلة التوفية (الوفاة) قال تعالى: (ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)، وهي مرحلة النمو في اتجاه الاكتمال البنائي والعقلي من حيث القوّة والقدرة، وهذه تنقسم إلى مجموعة من فترات النمو المؤدية إلى (الوفاة):

1 ـ فترة الطفولة.

2 ـ فترة المراهقة.

3 ـ فترة القوّة، من الشباب إلى النضج الذي به يتمكّن الإنسان من التذكُّر والتفكُّر والتدبُّر والتحدِّي والبناء.

المرحلة الثالثة: مرحلة الضعف التي فيها (مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) وهي مرحلة الاستسلام الممتدة من الشيخوخة إلى الموت.

وعليه أقول: إنَّ قول الله تعالى: (ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ) لا تعني ثم يُميتكم، بل تعني إنه متوفيكم بالتمام على القوّة والقدرة والاستطاعة والعمل، ولذلك أكد من بعدها على أن من وراء هذه المرحلة مرحلة أخرى هي مرحلة أرذل العمر، ولهذا لو كانت التوفية هنا هي الموت ما كان بعد الموت إلا البعث حيث لا بعث إلا من بعده، ولأنها لم تكن الموت جاء من بعدها قوله تعالى: (أَرْذَلِ الْعُمُرِ).

ومع أنّ هذه هي مراحل النمو البشري إلا أنّ هناك من لا يمر بها، فهناك من خُلق ومات دون أن يمر بمراحل النمو، وهنالك من خُلق ومرَّ ببعض مراحلها، وهناك من توفي بها، فالنّبي عيسى رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم خُلق وتوفي، ولم يُرد شيخوخة إلى أرذل العمر كما يُرد البعض، ولم يمت مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[680].

يُفهم من الآية الكريمة السابقة أمور ثلاثة:

1 . إنَّ الله متوفِّي عيسى.

2 . إنَّ الله رافع عيسى إليه.

3 . إنَّ الله مُطهّر عيسى.

أي: منجيه من الذين كفروا وأشركوا بالله ربّ العالمين فلم يُصلب ولم يُقتل، ولم يترك فيهم حتى يلاحقّوه بالكيد والمكر.

ولذا؛ فإنّ المخلوق يمر بالمراحل الآتية:

1 . مرحلة الخلق.

2 . مرحلة النمو.

3 . مرحلة الوفاة.

4 . مرحلة الموت.

5 . مرحلة البعث.

الوفاة بين المعنى والمصطلح:

لتبيان ذلك أعود بالكلمة إلى ما يضادها في المعنى لأجل إن يزال اللبس والغموض وتتضح دلائلها وفقا للآتي:

---

[680] آل عمران 55.

1 . (حي) وفي المقابل ألتضادي (ميّت).

إذا (الموت) وفي المقابل الضدي (الحياة)

2 . (وفاة) وفي المقابل الضدي (نَقْص).

إذا (الوفاة) وفي المقابل الضدي (النَقصُ).

3 . (أتمَّ) وفي المقابل الضدي (نَقُصَ).

فمن حيث المعنى لا ينبغي أن نقول الوفاة هي الموت مادامت (الوفاة) في مقابلها الضدي (النَقْص)، ولذلك ليس لنا بدا إلا أن نقول: الوفاة تعني الإتمام، وعندما تكون من الله تعالى فهي تعني الكمال.

وعليه: فإنّ قوله تعالى: (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) تعني: أني جاعلك على التمام والكمال بعد أن أتممت الرّسالة، ولهذا جاء في المعنى جَعلتُك على الرّفعة التي جَعَلْتُكَ في السماء في الجنّة مصداقا لقوله تعالى: (هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

ولذا، أقول: إنَّ رَفْع الله عيسى إليه هو رِفْعَةً بعيسى، أي رِفعَة له من مقام الرّسُل في الأرض إلى مقامات الخالدين في الجنّة.

أمّا من حيث المصطلح المستخدم (للوفاة) فالبعض يرى أن الوفاة هي الموت وهذا مخالف للمعنى الحقّيقي الذي يجب التصويب به وفقا لما تقدم، وما سيأتي تباعا.

وعليه أقول:

لو كانت الوفاة هي الموت لكان عيسى من الميتين، ولو كان عيسى قد مات لكان السبب في موته الصلب والقتل، ولأن عيسى لم يُصلب ولم يقتل (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) إذا متغيري الصلب والقتل تم نفيهما إثباتا من عند الله جلّ جلاله، ولهذا الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}[681]. قوله عزّ وجلّ: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) يدل على المطلقية أي: أنّه لم يمت بالمطلق وليس بالنسبي، وذلك لأن اليقين وخبره بيد الذي توفاه ورفعه إليه ولم يكن بأيدي الشاكين والظانين الذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلا.

وبناء على ما تقدم، الوفاة لا تحدث إلا على الأرض وهي درجة تمام للأقوال والأعمال والرسالات، وفي مقابل ذلك السماء دار بقاء لا محل فيها لزيادة الأعمال التي عليها يكون الجزاء (توابا أو عقابا) ولهذا فهي دار جزاء الصالحين فيها في الجنّة والطالحين فيها في النّار.

ولأنّ الوفاة في الدار الدنيا على الأرض لذا فمن يستوفي فيها يرحل إلى دار البقاء والخلد.

ولسائل أن يسأل: إذا كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم إلى يومنا هذا حيا في السماء فكيف له أن يصلي ويزكي مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}[682]؟

قوله تعالى: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ) تدل على عمومية المكان دون تحديده أي سواء أكان في الأرض أم في السماء.

---

[681] النساء 157.

[682] مريم 31.

فقوله: (أَيْنَ مَا كُنْتُ) في مفهومها على لسان عيسى تدل على أين ما سأكون، وهي تدق ناقوس تفكيرنا لترشده إلى معرفة عيسى صلّى الله عليه وسلّم بأنه لن يكون في مكان واحدٍ بل سيكون في رعاية الله في أكثر من مكان؛ وكذلك يفسح مجال التفكير بساطه للقول في دائرة الممكن أن عيسى كان لديه العلم المسبق بأنه لن يكون مستقرا فقط في الأرض، وهذا الأمر الإعجازي لا يستغربّ بالنسبة للأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم فهم أصحاب المعجزات أي هم الذين كانت المعجزات من الله تعالى على أيديهم.

إذا قوله: (أَيْنَ مَا كُنْتُ) يتضمن قرارا مسبقا على وجهين:

1 . قرار مسبق من الله تعالى بأن عيسى لن يكون رسولا ونبيا لمكان واحدٍ ولا لقوم من الأقوام، فهو في بعثته رسول لبني إسرائيل أي قبل رفعه إلى السماء، وسيكون رسولا مصدقا للكافة بعد هبوطه منها.

2 . قرار مسبق من عيسى صلّى الله عليه وسلّم وذلك لعلمه وإيمانه بما يشاؤه الله إليه فهو صاحب الرّسالة وصاحب القوم الذي بُعث فيهم رسولا ونبيا، وصاحب الأماكن المرتبة مسبقا من الله تعالى، ولو لم يعلم عيسى بالأمر ما قال: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ) وإلا كيف عرف نفسه مباركا لو لم يعلمه الله بذلك؟

وما يمكن لنا البرهنة به على عدم موته قوله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[683]، فقوله

[683] الزخرف 57 . 61.

تعالى: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) هذه الآية الكريمة كما يقول المفسرون هي عائدة على نزول عيسى على الأرض (لما ينزل عيسى على الأرض)، ولذلك فقوله تعالى: (وَإِنَّهُ) تعود على عيسى وأمره وقوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) تدل على أن نزوله علامة لقيام الساعة من بعده، ولهذا لو نزل كما يُخمّن البعض لقامة الساعة من بعده وانتهت الحياة على الأرض، وقوله تعالى: (فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) تعني فلا تَشكُنَّ في أمر قيامها بعد أن ينزل عيسى من السماء فالأمر أمر يقين، ولذلك نحن نعتقد مع المعتقدين في أنّه سينزل لا محالة وسيؤمن به أهل الكتاب على العموم. قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}[684].

يتضح من هذه الآيات الكريمات مجموعة من المتغيرات المتراتبة بعضها على بعض وهي:

أوّلا: القول بقتله، وهو قول مفتر لا يسنده الصواب.

ثانيا: لم يقتل وهو الحقّ الذي تسنده الدلائل.

ثالثا: لم يُصلب، بل صُلب الشبيه.

رابعا: شُبّه لهم، والشبه غير الأصل.

خامسا: اختلفوا فيه بين شك وظن.

سادسا: رفعه الله إليه، (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا).

---

[684] النساء 157 . 159.

سابعا: هبوطه إلى الأرض، ليؤمن به من أهل الكتاب الذين لم يكونوا قد آمنوا به من قبل، وأهل الكتاب هم قوم إبراهيم وموسى وداود وعيسى وأمة محمّد عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين أفضل والصّلاة والسّلام.

تاسعا: إيمان أهل الكتاب به قبل موته (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ)، في هذه الآية الكريمة جاء قوله تعالى: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) للتبعيض حيث أن بعضا من أهل الكتاب يؤمنون به وهم جميع اتباع رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وكذلك الذين اتبعوه من النصارى أمَّا البعض الآخر فهم اليهود الذين لم يؤمنوا به.

وقوله تعالى: (إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) تحتوي مفهوما متحقّقا في المستقبل، ولهذا قال: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) ولم يقل (آمنوا به) ممّا جعل المستقبل لا يزال مُفتَّح الأبواب لمن لم يؤمن بعيسى ليؤمن به صلّى الله عليه وسلّم ولهذا فالأبواب لم تُسد ولم تُقفل بعد؛ وفي هذا الأمر يتم الاتفاق مع ما جاء في السنّة من أحاديث مروية عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منها حديث أبي هريرة الذي قال: "قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، لا يقبلها من كافر، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها"[685].

ولذا فالذين لا يزالون على الضلال (من اليهود) ليس لهم بدا (إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) ويصبح الدين واحدا آية محقّقة بين أهل الكتاب الذين جعل الله النبوة فيهم، ولهذا فإن نزول عيسى بعد رسالة محمّد

---

[685] أشراط الساعة، ج 1، ص 147.

صلّى الله عليهما وسلّم هو نزول لتأكيد رسالة محمّد والتأكيد على الأخذ بما جاء فيها وعليه فإن رسالة محمّد هي للكافة وهي الرّسالة الخاتمة بدليل نزول عيسى ليؤكد وجوبية الأخذ بها وليجعلها معممة على الكافة كما شاء الله لها أن تكون من عند الله تعالى مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}686. فالذين لم يعلموا من أهل الكتاب سيكونوا من العالمين بذلك بعد هبوط عيسى صلّى الله عليه وسلّم إلى الأرض، ولذلك يعد نزول عيسى إلى الأرض تأييدا لمحمّد ورسالته الخاتمة للكافة.

ويفهم من الآية (إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) أنَّ الضمير الإيماني يعود على عيسى أي لَيُؤْمِنَنَّ بعيسى قبل موته، وهذا يدل على أنه لا رسالة بعد رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليستوجب الإيمان بها أو ليشار لوجوبية الإيمان بها بدليل نصّ هذه الآية التي قصرت وجوبية الإيمان على عيسى الذي سيأتي نزوله مؤكدا على رسالة محمّد بالتمام والكمال والإجلال ولذلك نصت الآية على الإيمان بعيسى ولم تشر لأيّ رسالة جديدة بعد رسالة محمّد عليه والصّلاة والسّلام.

وقوله تعالى: (قَبْلَ مَوْتِهِ) تدل على أنَّ موته لم يتحقّق بعد، فلو تحقّق موته لأمن به بنو إسرائيل، ولأن بنو إسرائيل لم يؤمنوا به بعد، إذا موته لم يتحقّق ولهذا نقول عيسى لا يزال حيا.

وعليه: فإنّ قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) يدل هذا القول الكريم على أن قيام الساعة لا يكون إلا بعد نزول عيسى من السماء، ولذا، لو نزل

---

[686] سبأ 28.

عيسى كما يفسِّر البعض أو يحلل لكانت الساعة قد قامت ولم يعد أحد ليكتب كما نحن نكتب أو نبحث على قيد الحياة.

عاشرا: صيرورته عليهم شهيدا، (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا).

جميع الرّسُل سيكونون شهداء على أقوامهم وأممهم ولكن آخر الشهداء على أهل الكتاب هو عيسى صلّى الله عليه وسلّم ولذلك فعيسى صلّى الله عليه وسلّم سيكون شهيدا على ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: شهيد على قومه قبل الرفع إلى السماء مصداقا لقوله تعالى: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}687.

المرحلة الثانية: سيكون عليهم شهيدا (على أهل الكتاب كلهم) بعد نزوله إليهم من السماء، ولذلك قلنا لو نزل لكانت هناك أحداث كثيرة ظهرت ولو كانت لذُكِرت في القرآن ولأنّ القرآن هو الرّسالة الخاتمة والقرآن بين أيدينا كاملا فلن يذكر من بعده شيئا ولكن ستتم معايشته في زمن ما بعد نزول عيسى على الأرض عليه والصّلاة والسّلام.

المرحلة الثالثة: سيكون يوم القيامة شهيدا على أهل الكتاب (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) وفي ذلك اليوم كما سبق أن ذكرنا سيكون كل الرّسُل شهداء على أممهم {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا}688 ويكون عيسى على أهل الكتاب شهيدا وفوق كل

---

687 المائدة 117.

688 النحل 84.

شهيدٍ شهيد مصداقا لقوله تعالى: {وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}689، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}690.

أمَّا قوله على لسان عيسى عليه والصّلاة والسّلام: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ) فمن حيث المفهوم تعني وخلقني مع ديمومة البقاء على المباركة، أي مباركة الله تعالى لعيسى أينما يكون، ولذلك (وجعلني) ترتبط بالخصوص (خصوص عيسى الرّسول النّبي عليه والصّلاة والسّلام).

أمَّا قوله تعالى: (وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) فالتوصية أو الوصية ليس بالضرورة أن تكون مقتصرة على عيسى، بل في دائرة الممكن تأخذ بعض الاحتمالات منها:

1 . أوصاه تعالى لغيره.

2 . أوصاه تعالى لنفسه ولغيره.

3 . أوصاه تعالى لنفسه.

وفي كل الحالات الاحتمالية السابقة فإن الوصية تستوجب الائتمان والمحافظة وعدم التفريط، وعندما تتعلق بالخصوص فهي تستوجب الأداء، وعندما تتعلق بالعموم فهي تستوجب حُسن التبشير بها وحُسن الدعوة إليها وأدائها دون تفريط في كبيرة أو صغيرة.

ولهذا؛ فنحن بيَّنا الفارق في المفهوم بين قوله تعالى: (وَجَعَلَنِي) التي تقتصر على عيسى، وقوله تعالى: (وَأَوْصَانِي) التي تفتح الآفاق أمام

[689] النساء 166.

[690] الفتح 28.

دخول الآخرين في العمل أو الأخذ بالوصية، والوصية في قوله تعالى: (وَأَوْصَانِي) في كل الأحوال لا تخص عيسى وحده فالصّلاة والزكاة حقّ على المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين، ولذا فالحقّ يبقى قيدا على الأحياء وكلما تهيئة ظروفه وجب.

ولأنّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم موصى بالصّلاة والزكاة فالأمر لا يستثنيه من أداء والصّلاة وإخراج الزكاة حتى وإن قُصِد بها الآخرون، فالزكاة كلما توفرت إمكانات استخراجها وجبت دون استثناء.

وبناء على ما تقدم أتساءل:

. كيف يمكن لعيسى أن يستخرجها في السماء؟

. وهل هناك من هو في حاجة إليها في السماء؟

. وعلى ماذا سيزكي عيسى في السماء؟

وأسئلة أخرى يمكن أن تُطرح من قبل الآخرين ولكن أقول:

أنّ والصّلاة والزكاة لا ترتبط إلا بالأحياء دون غيرهم ولهذا جاء قوله تعالى على لسان عيسى: (مَا دُمْتُ حَيًّا) ولأن عيسى ما قتلوه وما صلبوه ورفعه الله إليه، فهو في اعتقادنا لا يزال حيا في السماء، ولهذا تساءلنا:

. كيف يمكن له استخراج الزكاة في السماء؟

. ولمن سيستخرجها؟،

. وعن ماذا سيتم استخراجها؟

والصّلاة من بين معانيها التسبيح، والزكاة من بين معانيها التطهير من دنس الذنوب، ولهذا؛ فالله تعالى يصلّى ويزكىَ له عباده، ولأن الله

باقٍ فعبادته تعالى باقية لا تنقطع، وإن قلنا أنَّ السماء دار رفعة ولا يوجد فيها من هو في حاجة للزكاة، وجب علينا القول إننا مؤمنون بعودة عيسى للأرض وهبوطه عليها ولكننا غير متيقِّنين بأنه قد نزل، ولم يكن بين أيادينا نص قرآني يثبت ذلك، لذا فإن دائرة الممكن تسمح لنا متوقعين بأنه سيهبط لا محالة لكي يكون الموت فاعلة بملكها الموكِّل بها.

وعليه أقول:

في مفهوم الآية الكريمة (مَا دُمْتُ حَيًّا) احتمالين:

الأول: عندما كان حيا على الأرض.

الثاني: بعد أن يهبط عليها متى ما شاء الله تعالى، ولذلك (مَا دُمْتُ حَيًّا) تحتوي الزمنين:

1 . الزمن قبل الرفع.

2 . والزمن بعد أن يهبط ولذلك فالمقصود بالزمن (زمن ما بعد الهبوط) الذي يدل على بقاء تكليف عيسى صلّى الله عليه وسلّم لتستمر الوصية على والصّلاة والزكاة حتى يعم العدل في الأرض، ثم بعد ذلك لم يبق إلا قيام الساعة.

وعليه أقول:

إنَّ رفع عيسى إلى السماء آية في القرآن ومعجزة عظمى على واقع الأرض والسماء ليس لمؤمنٍ بدا إلا أن يؤمن بها؛ ولأن رفعه إليه آية عظمى ذُكِر في القرآن نصا، وفي مقابل ذلك بعد أن رُفع عيسى آية لو أُهبط به صلّى الله عليه وسلّم لذُكِر في القرآن نصا كما ذُكِر رفعه إليه

نصا. وإلا هل هناك من يشك في أن رفعه إليه آية وإنزاله إلى الأرض ليس بآية؟

أقول:

. الرفع آية ذكرت نصا قرآنيا مع عيسى عليه والصّلاة والسّلام.

. الهبوط آية سبق أن ذكرت مع من تحقّقت معه (أبونا آدم عليه والصّلاة والسّلام).

لذا، لو كان عيسى قد أُهبِط به لتحقّقت آية هبوطه، ولو تحقّقت لذكرت مع الآيات الإعجازية في القرآن الكريم الذي هو في لوح محفوظ {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}691.

نزول عيسى من السماء كما سبق أن بيّنا هو علامة من علامات قيام الساعة حيث لا يكون بعد نزوله إلا النهاية ولا نهاية إلا بعد وفاة لعيسى على الأرض يستكمل بها حياته ليكون الموت من بعدها حقّ ليس له بدا منه.

وباستقراء قصص القرآن نلاحظ علاقات قوية بين جميع الأنبياء والرّسُل حيث كل منهم جاء ليتمم مكارم الأخلاق وينشر الفضائل بين النّاس ويدعو للتي هي أحسن وأقوم طاعة لله واحد أحد لا شريك له، ولذلك فمثل عيسى كمثل آدم، وأن الله جعل النبوة في ذرية نوح وإبراهيم صلّى الله عليهم وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}692.

---

691 البروج 22.

692 الحديد 26.

وتتضح العلاقة بين عيسى ومحمّد صلّى الله عليهما وسلّم من حيث:

1 . إنَّ عيسى لديه العلم بمحمّد رسولا من بعده مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}693، وهذا البلاغ الذي جاء على لسان عيسى هو لأجل أن يؤمن بني إسرائيل بمحمّد ورسالته المكلَّف بها عندما تحين بعثته، وهذا يدل على أن رسالة عيسى ليس بخاتمة وأن عيسى رسولا من الله ولم يكن ابن له، فلو كان ابنا لكان باقيا حيا ولا رسول يأتي من بعده قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجنّة وَمَأْوَاهُ النّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السّميع الْعَلِيمُ}694.

2 . إنَّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم جاء داعيا لتحقّيق ملة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

---

693 الصف 6.

694 المائدة 72 . 76.

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس}695، ولهذا؛ فالرّسول شهيد على المسلمين الذين يستوجب أخذهم بماء جاءت به ملة سيدنا إبراهيم (وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ)، وقوله (وَفِي هَذَا) يدل على هذا الأمر وهو ملة إبراهيم عليه والصّلاة والسّلام؛ ولذلك فالعلاقة بين النّبيين الكريمين عيسى ومحمّد صلّى الله عليهما وسلّم هي علاقة توحيد الله تعالى لا شريك له وتتممة لمكارم الأخلاق، فقبل رفع عيسى إلى السماء كان رسولا لقومه أمّا بعد أن ينزل سيكون داعيا لما دعا محمّد إليه وهو الإسلام الذي يجمع أهل الكتاب على دين واحد وربّ واحد لا إله إلا هو جلّ جلاله ولذا سيكون عيسى صلّى الله عليه وسلّم شهيدا على محمّد ورسالته من حيث:

1 . إنّه شهيد على أنّه سيأتي من بعده.

2 . إنّه شهيد على أنّ ما جاء به محمّد هو الحقّ ولهذا سيكون نزوله لتأكيد الحقّ الذي كفر به من كفر أو أشرك به من أشرك، قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}696.

إذا نزول عيسى يعد ضرورة من ضرورات المستقبل الحسن، فنزوله سيُبطل الباطل وهو إدعاء المشركين اشتراكه مع الله في ملكه، ويحقّ الحقّ بتبرئه ممّا قالوا عليه وهو من قولهم بُراء.

وفي تفكيرنا أن الحياة على الأرض التي بدأت برسول فنهايتها لا تكون إلا بشهيد ولهذا كان آدم بداية الحياة الإنسانية على الأرض وأن عيسى سيكون هو نهاية البشرية عليها، ولذلك فالبداية كانت على الإيمان والنهاية لا تكون إلا عليه.

---

[695] الحج 78.

[696] النساء 159.

وعلى لسان عيسى صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى في كتابه الحكيم: {وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}697، أسست هذه الآية الكريمة على ثلاثة متغيرات لفعلين اثنين هما:

1 ـ فعل ماضٍ ولدت (يَوْمَ وُلِدْتُ).

2 ـ فعلان للمستقبل هما:

أ ـ يوم أَموت، (وَيَوْمَ أَمُوتُ).

ب ـ يوم أُبعث، (وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا).

وهذه المتغيرات الثلاثة أسست لمعلوم واحد ومجهولين أثنين، فالمعلوم الواحد (المعلوم به وبحاله) وهو السّلام المتحقّق على عيسى يوم أن ولد صلّى الله عليه وسلّم أمَّا المتغيران الآخران مع أنّ الدراية بهما معلومة من حيث أنهما سيأتيان لا محالة إلا أن حالهما مجهول من حيث زمن التحقّق وهما:

1 ـ اليوم الذي سيموت فيه عيسى، الذي سيكون يوم سلام وتسليم عليه.

2 ـ اليوم الذي سيبعث فيه مع المبعوثين، الذي هو الآخر سيكون يوم سلام عليه، عليه والصّلاة والسّلام.

ولذا؛ فنحن المسلمون مع أنّنا نؤمن بأن عيسى صلّى الله عليه وسلّم سيموت وأن البعث سيأتي لا محالة إلا أننا لا نعلم بحالهما، فحالهما حال غيب لا يعلمه إلا الله مصداقا لقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ

697 مريم 34.

عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}698.

اللهم اجعلنا مؤمنين طائعين موحدين لا مشركين وعلى جميع الأنبياء مصلين ومسلِّمين والحمد لله الباقي ربّ العالمين.

عيسى من آل عمران

يقول الحقّ جلّ وعلا: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السّميع الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}699.

نريد الحديث الآن عن قوله تعالى ذرية بعضها من بعض في سياق الآيات المنبهة للمعنى في سورة آل عمران.

نعتقد جازمين أنّ المقصود من الآية مقصدين عام: ومعناه أن الأنبياء بعضها من بعض وأنهم سلالة مباركة واحدة جاءت لخير البشرية ولإخراجهم من الظلمات إلى النور.

---

[698] الأعراف 187.

[699] - آل عمران 33-37.

والثاني: خاص هو التأكيد على أنّ عيسى صلّى الله عليه وسلّم من ذرية الأنبياء وان كان خلقه على غير اتصال مباشر من طرف أب، فعيسى المخلوق بكلمة الله (كن) حملته مريم ابنة عمران الذي هو من سلالة الأنبياء وقد أطال المفسرون في تأكيد ذلك من ناحية البحث في سلسلة النسب وإخبار التاريخ ونكتفي بذكر نموذج واحد هو مناقشة الرازي للموضوع، يقول: "وأما آل عمران فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال المراد عمران ولد موسى وهارون، وهو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فيكون المراد من آل عمران موسى وهارون وأتباعهما من الأنبياء، ومنهم من قال: بل المراد: عمران بن ماثان والد مريم، وكان هو من نسل سليمان بن داود بن إيشا، وكانوا من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلّى الله عليهم وسلّم، قالوا وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة، واحتج من قال بهذا القول على صحته بأمور أحدها: أن المذكور عقيب قوله (وآل عمران على العالمين) هو عمران بن ماثان جد عيسى عليه السّلام من قبل الأم، فكان صرف الكلام إليه أولى وثانيها: أن المقصود من الكلام أن النصارى كانوا يحتجون على إلهية عيسى بالخوارق التي ظهرت على يديه، فالله تعالى يقول: إنّما ظهرت على يده إكراما من الله تعالى إياه بها، وذلك لأنه تعالى اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات العظيمة، فكان حمل هذا الكلام على عمران بن ماثان أولى في هذا المقام من حمله على عمران والد موسى وهارون،

وثالثها: أن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى: (وجعلناها وابنها ءَايَةً للعالمين)، واعلم أن هذه الوجوه ليست دلائل قوية، بل هي أمور ظنية، وأصل الاحتمال قائم"[700].

---

700 - تفسير الرازي، ج 4، ص 181.

ونحن نقول إنّ الدليل القرآني يبقى الأقوم والأقوى فقد كان عمران وآله من المصطفين مصداقا لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) ثم بعد ذلك اختار الله عزّ وجلّ سورة من سورة القران باسمهم وكانت تتحدث عنهم وعن أحوالهم، لذلك فعيسى من آل عمران لبقاء الاتصال مع الأصل ونقاء الدم عن الاختلاط بآل آخر.

فهل لهذا مزية أو فضيلة؟

نقول:

نعم لانّ خلق عيسى خلقا معجزا من غير أب أوحى لأعداء الله ما توحي الشياطين مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[701]، فقالوا عليه من الأقاويل الكثيرة الباطلة التي تخرجه من سلسلة النبوة التي شاء الله عزّ وجلّ إلا أن يربّطه بها ويجعله جزءا منها.

عمران مسيرته:

بادئ ذي بدء نذكر أنه ليس من منهجنا الاعتماد على الأخبار والسير في تحليل المضامين مع كامل الاحترام لكل الجهود، لكن منهجنا كان وسيبقى يُحكّم النص الموثوق والمنطق في كل معروضاته من الموضوعات لذلك فإننا لن نعتمد كل ما قيل عن عمران في كتب الأخبار وسنكتفي بما يدعمه نص وما يقبله المنطق.

---

[701] - الأنعام 112.

وأول ما نذهب إليه في البحث عن عمران آيات القران الكريم، فقد ذُكر عمران في ثلاثة مواضع هي:

1- قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ).

2- قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السّميع الْعَلِيمُ).

3- قوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ).

لقد عرّف أغلب المفسرين عمران في قوله تعالى (آل عمران) بأنه جد عيسى، وذهب البعض الآخر إلى القول بأنّه أبو موسى وهارون صلّى الله عليهما وسلّم.

ونحن نعتقد أنّ القول الأوّل: أصوب لعدة أسباب منها:

1- إنّ عمران أبو موسى وهارون لم يذكر في القران الكريم مطلقا لتكون الآية إشارة إليه.

2- إنّ السياق الذي ورد فيه ذكر عمران كان في الحديث عن بيت عمران الممثل بزوجته جدة عيسى وابنته مريم ثم حفيده عيسى، فجو النص وسياقاته الدلالية تدل على كونه جد عيسى.

3- الدلالة الخاصة لقوله تعالى: ذرية بعضها من بعض لأنّها تشير إلى عيسى كما ذكرنا لإثبات اتصاله بسلسلة النبوة من أمه مريم.

وبناءً على ذلك نقول:

- عمران من ذرية النبوة (ذرية بعضها من بعض).

– من المصطفين (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَي آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ).

– هو أبو مريم (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ).

– أبا لصديقة (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ).

– أبا لمصطفية (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ).

– أبا لمنذورة (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السّميع الْعَلِيمُ).

– أبا لمقبولة (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا).

– أبا لمحصنة (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا).

– زوجا لصالحة (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ).

– جدّا عيسى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ).

– دم عيسى من دمه من مريم سليلة النبوة.

وبعد هذه الحقّائق المؤكدة عن عمران نصل إلى الحكم على سيرته، فرجل يجمع كل هذه القيم والفضائل لابدّ أن يكون رجلا صالحا وطيبا، فهو زوج طيبة والمولى عزّ وجلّ يقول: {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ ممّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[702].

[702] – النور 26.

وهو ربّ لبيت مؤسسة أركانه على الفضائل التي ورثها من آله الذين (آل النبوة) انحدر منهم وكان عيسى منهم. بيت ينذر لله نذرا خالصا بأن يكون المولود في طاعة الله وخدمة عبّاده.

عيسى في النذر:

قد يتساءل البعض عن علاقة عيسى بالنذر الذي نذرته امرأة عمران المخبر عنه في قوله تعالى (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السّميع الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

من المهم لتحليل التساؤل السابق أن نقف مع:

الناذرة

المنذور

الغاية من النذر

فمن هي الناذرة، إنها:

امرأة عمران

أم مريم

جدة عيسى:

فهي زوجة صالح وأم صديقة وجدة نبي رسول، ونعتقد أن امرأة بهذه الصفات لها من الملكات الروحية ما يؤهلها لقراءة إرهاصات النبوة التي بدأت تلوح في سماء البيت الإيماني الذي يحيط بها عناية ورعاية وتهيئة للقادم من الأحداث.

ونعود لقراءة نص الآية المبينة لنذر هذه المرأة المؤمنة وأقول إن القارئ ليشعر بوجود عيسى في هذا النذر أو بما يدل عليه.

إن نذر امرأة عمران كانت توحي بالمنذور الذي تهيأت نفس وروح وعقيدة عمران وأهله لاستقباله، وقد كانت الآمال ترنو نحو النبوة المرتقبة التي كانت موجودة يقينا في عقيدة عمران وامرأته وأهله، لذلك فإن نذر امرأة عمران كانت بمثابة التهيؤ إلى مرحلة الاستعداد لما سيكون عليه المنذور، ويذكر الحسن البصري كلاما دقيقا في الموضوع إذ يجعل النذر إلهاما من الله عزّ وجلّ، يقول: "إنها إنما فعلت ذلك بإلهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأى إبراهيم ذبح ابنه في المنام فعلم أنّ ذلك أمر من الله وإن لم يكن عن وحي، وكما ألهم الله أم موسى فقذفته في اليم وليس بوحي"703.

ونعتقد أن هذا الرأي يسند قبوله المنطق وتوحي به الوقائع الواردة في النص، فهذه المرأة مؤهلة لقبول الإلهام كما هي أم موسى، وإذا أخذنا بهذا القول فإنّنا نعتقد أنّ هذه المرأة كانت تتأمل أن يكون المولود ذكرا، وأنه قد يكون هو النّبي الذي ينتظره أهل بيت عمران، لكن هذه المؤمنة لا تعلم الغيب، وهي تعلم أنها لا تعلم، لكنها كانت

---

703 – تفسير الرازي، ج 4، ص 183.

تدرك أنّ المولود سيكون له شأن عظيم في مسيرة الرّسالة السماوية رسالة التوحيد بـ (لا إله إلا الله)، لكن المولود لم يأت ذكرا بل كانت أنثى: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى).

إنّ ولادة امرأة عمران لأنثى لم يكن هو المستغربّ بكل حال من الأحوال عند امرأة هذه صفاتها، لكن المستغربّ عند هذه العابدة المؤمنة بإرادة الله عزّ وجلّ هو طبيعة الدور الذي ستؤدّيه أنثى في مسيرة الرّسالة، ويقول الرازي في ذلك قولا لامعا نصه: " أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأنّ ما يفعله الرّب بالعبد خير ممّا يريده العبد لنفسه"704.

عليه فقد كانت أم مريم موقنة أن هذا المولود سيكون له دور مهم في إرساء عقيدة التوحيد على الأرض، وإنها وهي تنظر إلى ابنتها سبحت الله بقولها (ليس الذكر كالأنثى) على إرادته التي لا راد لها سبحانه وتعالى.

وما أن وضعت مريم حتى دعت لها دعاء مجابا لعدة وجوه:

إيمان أم مريم وصدق نيتها

دعاء الأم لأولادها

دعاء المؤمن وقت حاجته

704 - تفسير الرازي، ج 4، ص 185.

ثم بعد ذلك نقلتها وهي الأم التي تفيض حنانا على مولودها إلى حيث نذرت، فلم تجعل العاطفة تمنعها من الإيفاء بالنذر، سيرة المؤمنين الذين وصفهم الله عزّ وجلّ ووعدهم الجنّة مصداقا لقوله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}705، ولكم يذكرنا هذه الموقف بإلقاء أم موسى ابنها الوليد في اليم مصداقا لقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}706.

كذلك كانت أم مريم أوحى لها الله عزّ وجلّ بما تعمل بمولدتها المخصوصة مريم، فقد يكون لها أخوة أخريين كما تذكر بعض الأخبار لكن المخصوص بالفعل الموحى به من الله عزّ وجلّ هو مريم على وجه التحديد.

والحقّ أن اليم والمحراب الذي ذهب إليه كل من موسى ومريم صلّى الله عليهما وسلّم هما واحد في الغاية، فقد كان بمثابة المنقذ والحضن المهيأ لمهام أراد الله عزّ وجلّ لها أن تتحقّق، ونقول المنقذ لان المحراب أظهر سيرة مريم الخالصة من كل شائبة ممّا جعل الألسن تُلجم عن المساس بهذه الطاهرة وهي قادمة تحمل طفلا لم تنكر بنوته.

وهكذا كان عيسى صلّى الله عليه وسلّم موجودا بإرهاصاته ساعة النذر وما بعدها ثم هو بعد ذلك أقوى ظهورا مع أمه مريم.

705 – الإنسان 7.

706 – القصص 7.

مريم أم عيسى:

نبدأ من حيث انتهينا في الحديث عن النذر، أي من المرحلة التي بدأت ومريم على باب المحراب ورجاله يختصمون ويتسابقون على كفالتها مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}707.

يُلاحظ في هذه الآية أن رغبة شديدة في رعاية هذه المنذورة كانت حاضرة لحظة اختيار الكافل، هنا نعتقد أن إرهاصات النبوة تظهر من جديد، حيث نعتقد أن هذا التنافس ما كان من غير سبب خصوصا أن الكفالة مكلفة ولا تدر على الكافل شيء وهذه الأسباب توجب ترك الاهتمام والرعاية بمسألة الكفالة، في حين وصف القران الكريم اهتمامهم بالكفالة حد الخصومة.

ونعتقد أنّ رجال المحراب وهم من الصالحين ومن علماء بني إسرائيل تفرسوا في هذه الأنثى المنذورة نورا أضاء وجداهم، وهو الأمر الذي جعلهم يختصمون وهي درجة أعلى من التنافس وتدل على عظيم اهتمام بالأمر، لكن كل هذا الاهتمام يبدو واهنا أمام إرادة الله عزّ وجلّ الذي أراد أن تكون النبوة مستمرة حاضرة في أداء الرّسالة السماوية لذلك اختار عزّ وجلّ نبيا ليكون كافلا لمريم مصداقا لقوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

707 - آل عمران 44.

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[708].

فما هي دلالات اختيار زكريا للكفالة؟

من أولى الأمور الواضحة في هذا الاختيار المعجز تأتي النبوة، فأي كافل سوى زكريا كان سيعلم مريم العلم لكنه لن يكون قادرا بأي حال من الأحوال أن يعلمها علم النبوة، لذلك فإن زكريا كان له مهمة مع مريم هي التعليم المنبثق من النبوة ودقة علمها وصدق يقينها ورسوخ عقيدتها.

ثم يأتي أمر يختص به الأنبياء والرّسُل وخاصة من العباد وهو التصديق، فالتصديق مصطلح دقيق لا يمكن لكل البشر فهم ماهيته وتحمل نتائجه فلا يعملون به إلا من رحم ربّي، لان التصديق يكون بغير برهان، يقول العسكري: "التصديق لا يكون فيما يبرهن عند صاحبه"[709].

ومثل هذا الأمر في مسائل العقيدة غاية في الأهمية لانّ المصدّق يصدّق بأمور عقيدته دون أن يطلب برهانا ومنها:

- بالغيب إذا أُطلع عليه
- بالمعجز إذا عرفه
- بالخارق إذا رآه
- بالقول إذا سمعه

[708] – آل عمران 37.

[709] – الفروق اللغوية 136،1.

- بالمسبَب دون أسباب

وأمور أخرى كثيرة اكبر من أن نحصيها وكل ذلك دون طلب برهان وإلا لو طُلب البرهان ما كان تصديقا، ولعل هذا المقام يوجب الحديث عن أمر يتعلق بالتصديق هو الاطمئنان القلبي الذي كثيرا ما طلبه المصدقون ومنهم الأنبياء، نقول إن طلب الاطمئنان هو ليس طلبا للبرهان بأي حال من الأحوال لان البرهان لا يقدم للقلب اطمئنا بل يقدم للعقل قبولا أو رفضا ومع هذا القبول قد يفتقد الإنسان الاطمئنان القلبي فيقبل الفعل لكن لا يقبل نسبته إلى فاعله الحقّ ويبقى في نفسه شك من ذلك، أما الاطمئنان القلبي فيقطع المسألة وهذا ما حصل مع سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}710، وحصل مع موسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى ربّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}711، وكذلك حصل مع عيسى إذ طلب الحواريون مائدة من السماء (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ ربّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ).

[710] - البقرة 260.

[711] - الأعراف 143.

أمّا زكريا فكان من الصادقين المصدقين ونعتقد جازمين أن زكريا لم يسأل مريم عن عيسى إلا سؤال طلب إخبار دون أن يحمل هذا السؤال أي وجه من وجوه الإنكار والدليل حاصل في رد فعل زكريا على معجزة من المعجزات التي وهبها الله لمريم، فقد كان رزقها يأتي من السماء مصداقا لقوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}712، وهو أمر معجز سأل عنه زكريا سؤال لطلب الإخبار لانّ المشهد فيه من غرابة عن المعروف لديه فقد تضمن:

وفرة في الرزق

مغايرة في النوع المألوف

تعددا في النوع

وعندما علم أنّ الله يرزق مريم رزقا معجزا صدق دون طلب الدليل أو البرهان على قولها الذي هو عند غير المصدقين مجرد ادعاء، هنالك دعا الله أمرا معجزا لا يستطيع أحد أن يفعل فيه شيء إلا الله عزّ وجلّ، وهو:

الابن الوارث

الإنجاب على كبر

الإنجاب من عاقر

نبي من آل النبوة

712 - آل عمران 37.

مصداقا لقوله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}713.

اللهم اجعلنا من المصدقين ونحن منهم بإذن الله لأننا صدقنا رسولنا بما جاء صادقين مصدقين ولسنا بحاجة إلى الدلائل والبراهين على تعددها في الدين والدنيا.

عيسى في الاصطفاء:

يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}714.

تحتوي هذه الآية على كثير من المعطيات مهم للباحث عن دلالتها الوقوف متأملا ما جاء فيها على النحو الآتي:

أولا: خطاب الملائكة لمريم (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ)، هذا الخطاب يدل على أمور عدة منها:

- أنّ مجموعة من الملائكة هي التي خاطبت مريم وليس ملكا واحدا

- أنّ الخطاب لم يكن مرة واحدة

- أنّ مريم بُلغت بأمر الله عزّ وجلّ بشارة من الملائكة

713 - آل عمران 38-40.

714 - آل عمران 42-43.

- أنّ مريم تتواصل مع السماء بخطاب الملائكة

نناقش مسألة تعدد الملائكة الموكلين بخطاب مريم، نقول إن اختيار الله عزّ وجلّ مجموعة من الملائكة يدل على تنوع الخطاب وعلى النحو الآتي:

خطاب الاصطفاء.

خطاب التطهير.

خطاب القنوت.

خطاب السجود.

خطاب الركوع.

إنّ هذه الخطابات المتعددة استوجبت عدة ملائكة ممّا تشعرنا بشديد الاهتمام وعظيم العناية هنا يأتي عيسى صلّى الله عليه وسلّم، فكل هذه العناية لم تكن لمريم على وجه التحديد بل هي لمريم وابنها عيسى.

هنا نتساءل إذا تولت الملائكة في مريم كل هذه القضايا فما معنى كفالة زكريا؟

هذا الموضوع من الأمور الدقيقة التي توجب الدقة والاهتمام، لكي نستطيع التمييز بين دور زكريا في كفالته وبين مهمة الملائكة في خطابها دون مساس بأي منهما.

إنّ كفالة زكريا هي كفالة تعتمد التعليم الأرضي النسبي غير المخصوص لمريم أي: أنّ زكريا ربّما يكون قد كفل قبل مريم واحدا أو أكثر لانّ الواضح من السياق أن الكفالة من الأمور المعروفة آنذاك،

وهو نبي لا يمكن له إلا أنّ يتعامل بالمساواة ودون تميز فما يعلمه لمريم يعلمه لغيرها وهكذا، أما تعليم الملائكة بخطاباتها المتعددة هو تعليم مخصوص لمريم ومن شاء الله له ذلك.

الأمر الثاني: أن كفالة زكريا وما فيها من علم هو دعوة للهداية يقدمها زكريا دون قطعية بالقبول التام أو القناعة المطلقة، أما خطاب الملائكة فهو يقدم بل يضع المخاطب بدرجة اليقين الخالص والعقيدة الراسخة.

المسألة الثالثة هي أن كفالة زكريا لمريم أدنى درجة من خطاب الملائكة لمريم

لانّ خطاب زكريا هو خطاب بشري، أما خطاب الملائكة فهو خطاب إلهي (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) لذلك لابدّ أن يكون الخطاب الإلهي متضمنا من العقائد ما لم يستطع زكريا أن يقدمه في كفالته.

لماذا إذا الجمع بين الخطاب الإلهي والكفالة البشرية؟

نعتقد وبإرادة الله أنّ عيسى هو الموجب لهذا الجمع، أي أن كل ما جاء في الخطاب والكفالة كان يُراد أن ينتهي علمه إلى عيسى، والأمر يحتاج إلى تحليل منطقي لان الإطلاق في ذلك يوهن القول.

نقول إن خلق عيسى على غير مماثلة مع أحد سوى آدم أوجد في الواقع حالة من الريبة به وبأمه (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)، ممّا يوحي على أنّ نفورا من الأم وابنها سيحصل على أرض الواقع، والنفور يعني بشكل من الأشكال قطيعة معهما، وعيسى في طفولته يحتاج إلى المعلم والموجه والكافل فقامت مريم بذلك مستجمعة لكل ما أخذته من الخطاب الإلهي ومن الكفالة، يساندها في ذلك روح

القدس الذي أمره الله عزّ وجلّ بأن يكون مؤيدا لعيسى، كذلك نعتقد هنا أن الملائكة لم ينقطع خطابها مع مريم بإرادة الله عزّ وجلّ بل استمر إلى أن شاء الله أمرا كان مفعولا.

ثانيا: اصطفاء وتطهير مريم:

إن المذكور في هذه الآية:

أولا: الاصطفاء.

ثانيا: التطهير.

ثالثا: الاصطفاء على نساء العالمين.

ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولا من الاصطفاء الثاني، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق، فلابدّ من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في باقي عمرها.

النوع الأوّل من الاصطفاء: فهو أمور أحدها: أنّه تعالى قبل تحريرها مع أنّها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث.

ثانيها: قال الحسن: إنّ أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنّة.

ثالثها: أنّه تعالى قبل نذرها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.

رابعها: أنّه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى: {أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله}.

خامسها: أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأوّل.

وأمّا التطهير ففيه وجوه:

أوّلها: أنّه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية، فهو كقوله تعالى في أزواج النّبي صلّى الله عليه وسلّم {وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا}715.

ثانيها: أنّه تعالى طهرها عن مسيس الرجال.

ثالثها: طهرها عن الحيض، قالوا: كانت مريم لا تحيض.

رابعها: وطهرك من الأفعال الذميمة، والعادات القبيحة.

خامسها: وطهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم716.

وهنا لابدّ من إشارة إلى أن التطهير في الآية يحيلنا إلى عيسى فقد طهره الله كذلك مصداقا لقوله تعالى (ومطهرك) وهذا يجعلنا نتساءل عن تفسير لارتباط التطهير بعيسى وأمه في هذه الرّسالة على وجه التحديد.

إنّ الحديث في هذه المسألة يتطلب أن نستحضر موقف من حول عيسى وأمّه، لانّ التطهير مهما كان نوعه فانه يتعلق بما حول الشخص المستهدف بالتطهير، وأنّ الذات لها التزكية مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا}717، لذلك فأنّ الله طهر مريم وعيسى ممن حولهم وما حولهم، فعل التطهير لا تعود إلى ذات المطهر ولكن ترجع إلى من وما حوله،

715 - الأحزاب 33.

716 - تفسير الرازي، ج 4، ص 201.

717 - النساء 49.

وقد حصل بالفعل أن قال من حول عيسى ومريم فيهم أقوالا لا ترضيهما على الحب أو البغض على حد سواء، فقد قال المبغضون بهتانا على مريم عائد بكل تأكيد على عيسى فكانت التهمة النجسة موجهة من هؤلاء إلى كل من عيسى ومريم، وقال المحبون المغالون أنهما إلهان وهذا شرك والشرك نجس أيضا على ما نصت عليه الآية: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}718، وعليه فإن التطهير لكل من عيسى ومريم كان بسبب من حولهم من الخائضين بالباطل تنزيها من الله لعبدين مخلصين لله الواحد القهار.

ثالثا: تكليف مريم

الظاهر أنّه من مقول الملائكة أيضا وصفوها بالمحافظة على الصّلاة بعد أن أخبروها بعلو درجتها وكمال قربها إلى الله تعالى لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة، وتكرير النداء للإشارة إلى الاعتناء بما يرد بعد كأنّه هو المقصود بالذات وما قبله تمهيد له. والقنوت إطالة القيام في والصّلاة، أو إدامة الطاعة، أو الإخلاص في العبادة، (واسجدي واركعي مَعَ الراكعين) يحتمل أن يكون المراد من ذلك كله الأمر بالصّلاة إلا أنّه أمر سبحانه بها بذكر أركانها مبالغة في إيجاب المحافظة عليها لما أن في ذكر الشيء تفصيلا تقريرا ليس في الإجمال، ولعل تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتهم، وقيل: لأنّه أفضل أركان والصّلاة وأقصى مراتب الخضوع، وفي الخبر "أقربّ ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد" أو للتنبيه على أنّ الواو لا توجب الترتيب أو ليقترن (اركعي) بالراكعين للإيذان بأنّ مَن ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين، ويقول الزمخشري حيث قال: "ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في

718 - التوبة 28.

صلاته ولا يركع، وفيه من يركع فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع"[719].

ونقول: إنّ السجود يكون في العبادة ويكون في غيرها، فهو طاعة لله وشكر وثناء لله عزّ وجلّ فدلت الآية على وصية لمريم بالسجود المطلق يعني في والصّلاة وفي غير والصّلاة، أمّا الركوع ففيه إشارة محددة إلى العبادة حيث لا ركوع في غير صلاة.

إنّ تكليف مريم هو تكليف عام لا خصوصية فيه أي هو لكل مؤمن بالله عزّ وجلّ يريد أن يصل إلى درجة الصالحين من العباد، فالخصوصية ليست في التكليف لأننا نعتقد أنها كانت تقوم بتلك العبادات وهي في كفالة زكريا النّبي الذي كان يعلمها العبادة، ونعتقد أن المخصوص في الأمر هو زمن التكليف، فالوصية هنا لا ترجع إلى ما قبل ولكن تذهب إلى ما بعد أي بعد أن يحصل لها من الأمر ما يخرق العادة ليكون معجزة، حيث أن الله عزّ وجلّ يعلم وهو العليم الخبير أن مريم ستواجه تهما ظالمة وباطلة قد تعجز النفس عن الصمود والصبر أمام هولها لاسيما على أنثى من نسل نبوة مصطفاة زكية ومطهرة أمامها مهمة هي كفالة عيسى إلى سن البلوغ فكانت الوصية من الله عزّ وجلّ بقضاء هذه المدة في الطاعة والعبادة وعدم الانصراف إلى مناقشة أو مجادلة كل خائض بالباطل لانّ المهمة اكبر من تلك الرخيصات التي تقوّلها أعداء الله.

وعيسى يبدو حضوره واضحا في هذه الآية إذ هو محورها، حيث تنصرف أمه للعبادة والطاعة وتربّيته على هذا السلوك الإيماني.

مراحل ولادة عيسى:

[719] – تفسير الألوسي، ج 3، ص 33.

فصل المولى عزّ وجلّ في مراحل ولادة عيسى تفصيلا دقيقا دون سائر الخلق من عباده وحتى آدم لان آدم لم يولد وإنما خلق من الله خلقا وتسوية، أما عيسى فهو من الله بالأمر الذي تلقته مريم فكان عيسى ابنها النّبي الرّسول وذلك لان العليم جلّ وعلا يعلم ما سيكون على السنة المتقوّلين في خلق عيسى صلّى الله عليه وسلّم فكان التفصيل دقيقا، يقول الحقّ جلّ وعلا:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحمن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}[720].

هذه الآيات توضح مراحل خلق عيسى من أمه مريم ومن غير أب خلقا معجزا آية عبدا لله عزّ وجلّ ونبيا، وعلى النحو الآتي:

1- مرحلة الانتباذ الأولى

2- مرحلة الانتباذ الثانية

3- الحمل

[720] مريم 16-26.

4- المخاض

5- المناداة

6- بث الاطمئنان

7- بدء التبليغ

1- مرحلة الانتباذ الأولى

ما دلالة انتبذت، ولماذا؟

الانتِبَاذ: التَّنَحِّي والاعْتِزَالُ يقال: انْتَبَذَ عن قَوْمِه إِذَا تَنَحَّى وانْتَبَذَ فُلانٌ إِلى ناحِيَةٍ أَي تَنَحَّى نَاحِيَةً[721].

على هذا التعريف اللغوي نبني أنّ الانتباذ يكون مقصودا وبإرادة ولهدف محدد، ولا يكون من غير غاية أو هدف.

عليه: فإنّ انتباذ مريم كان عن إرادة ولغاية محددة، وتذهب كثير من الآراء إلى أنّها انتبذت مكانا شرقيا لأمر يتعلق بشعرها أو بطهارتها أو غير ذلك، إلا أنّ المنطق يرفض هذه الأفكار التي لا تستند إلى نص وذلك لانّ الأمر الذي ستقبل عليه مريم في هذا الانتباذ هو أكبر من تلك المهونات التي يوصف بها الموقف والتي نصت كثير من التفاسير عليها فقالوا أنها ذهبت لتمشط شهرها أو تفليه أو تغتسل، فكل هذه الأمور ليس من المنطق في شيء وإلا وجب أن تنتبذ مريم في كل شأن من شؤونها انتباذا ولن يكون بعدها لهذا الانتباذ أهمية توجب ذكره في الكتاب الحكيم، إذ يجب معرفة حقّيقة أن القران الكريم ليس فيه ممّا لا

[721] تاج العروس، ج 1، ص 2374.

يستدعى ذكره أم ممّا لا أهمية لمعناه، فالانتباذ هو من صميم آية مريم وعيسى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية).

والانتباذ فعل قُرن بالممّاثلة مع بدء الخليقة مصداقا لقوله تعالى: (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم)، لذلك؛ فإنّنا نعتقد أن مريم انتبذت على بينة نحتمل أن تكون أمرا من الله عزّ وجلّ بلغته الملائكة لمريم، وهناك ما يدل على صواب هذا الاحتمال، فعندما حصل الخطاب مع الرّسول

(إنّما أنا رسول ربّك)، يوحي الخطاب بأنّ مريم لم تستغرق في الاستغراب وإنها أطمئنت واعية بأنه رسول عندما صرح هو بذلك، وتطلب من الرّسول لا دليل أو حجّة، بل أيقنت أنّه رسول من الله مع أنّه تمثل لها في صورة بشر وهو دليل مؤكد ثان على معرفة مريم بقدوم الرّسول لان تمثله في صورة بشر يوجب الشك والريبة لو أنها كانت تجهل جهلا تاما قدوم الرّسول حيث لا يكون المؤمن من الغفلة بحيث يصدق دون دليل أو بينة، وهكذا فإن تصديق مريم بالرّسول المتمثل بشرا يؤكد أن معرفة ما كانت عند مريم فصدقت.

ومن أدلة معرفة مريم بقدوم الرّسول استعمال الرّسول لصيغة الحصر (إنما) إنما هذه أداة تتكون من إنّ وهو حرف توكيد وما كافة لكن وردها في هذا السياق يدل على الحصر، وذلك يدل على أن الرّسول بلغ مريم أنه الرّسول المخصوص المكلف الذي هو في ذهن مريم وليس أحدا غيره، وهذا يعني أن مريم كان لها علم بأن رسولا من الله أتاه ليخبرها بأمر ستقوم هي بدور فيه.

عليه: فمريم انتبذت قاصدة واعية وبإرادة في الانتباذين الأول والثاني كما تشير الآية الكريمة (إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا).

فماذا حصل في الانتباذ الأول؟

لقد حصلت عدة أمور في هذا الانتباذ هي:

اتخاذ الحجاب

إرسال الروح

تمثل الملك بشرا

الاستعاذة

الهبة

التهوين (هو عليّ هين)

جعل الآية

جعل الرحمة

قضاء أمر عيسى

نناقش أولا اتخاذ الحجاب فنقول إنه من موجبات الاصطفاء والتطهير، فمريم المبلغة من قبل الملائكة باصطفاء الله لها وبتطهيرها كانت تتصرف في ضوء ذلك من البحث عن أساليب الطهارة وشروطها، والحجاب في الآية جاء بصيغة التنكير وهذا له دلالة تعميم الحجاب على الاحتمال فقد يكون حجابا وضعته هي من قماش أو غير ذلك وقد يكون ستر رأته فاحتجبت به كأن يكون حائطا أو جبلا

أو شيء من هذا القبيل، وعليه فليس نوع الحجاب هو المقصد المهم وإنما الاحتجاب هو الذي نبحث فيه، ونعتقد أنه احتجاب يناسب الحدث الذي أقبلت عليه مريم وطاعتها لأمر الله عزّ وجلّ، فمريم إذا احتجبت وهي مستعدة للأمر الذي ستواجه لذلك هي اتخذت حجابا نعتقد أنها اختارته لهذا الأمر وليس لأمور تتعلق بها كالغسل وما شابه.

أمّا إرسال الروح ففيه حديث طويل تحدثنا فيما سبق عن الروح، ولكن نريد الحديث هنا عن الإرسال، الفعل الإلهي (أرسلنا) يشير في دلالته إلى أمرين:

بعث الرّسول

طبيعة البعث

وهي من ألفاظ الإعجاز القرآني التي عبرت عن الفعل وطبيعته في آن واحد، فالرّسول بُعث إلى مريم إرسالا، والإرسال في اللغة يشير إلى المراحل المتقطعة وليس دفعة واحدة، وهذا دليل آخر على أن مريم كان لها علم مسبق بأمر الرّسول، وهو في ذات الوقت رحمة من الله العزيز الرّحيم بمريم التي لم يكن بمقدورها أن تتلقى هذا الأمر العظيم الذي تدثر وتزمل منه خاتم الأنبياء والمرسلين لو لم تكن مهيأة بالإخبار والاستعداد، بقي أن نواجه سؤالا مفاده:

لماذا قالت إذا (أعوذ بالرّحمن منك أن كنت تقيا)؟

نقول إنها قالت لأنه جاءها متمثلا لها في صورة بشر (فتمثل لها بشرا سويا)، وعندما أخبرها بأنه الرّسول المخصوص (إنما) هدأ روعها فلم تناقشه في صفته وإنما سألته عن غرابة ما سيحصل لها وهي عذراء طاهرة؟

ثم نسأل لماذا تمثل لها الملك بشرا؟

جاء التمثل لانّ مريم ليس لديها ملكات رؤية الملائكة التي عند الأنبياء والرّسُل لذلك تمثل لها ولو ظهر لها بصورته الحقّيقة لما تمكنت من رؤيته لافتقادها الملكة المؤهلة لذلك ولبقي الصوت فقط ممّا سيؤدّي إلى الشك في هذا الأمر.

الهبة، الهبة في الاصطلاح عطاء من غير مقابل722، على هذا يمكن القول إنّ مريم لم تسهم في خلق عيسى بأي شيء سوى الحمل الذي نصت عليه الآية (فحملته)، وهذا يعني أن نستبعد الرحم والبويضة لعدم الحاجة إليهما في خلق عيسى، فهو:

مخلوق كامل الخلق بأمر (كن)

تام قبل مريم (كان أمرا مقضيا)

موهوب من الله (لأهب لك)

معروف الجنس (غلام)

موصوف الخُلق (زكيا)

وعليه: فلم يكن حمل مريم لعيسى حمل تخلقي، أي أنّه لم يتخلق في رحمها كما يتخلق بقية البشر الموضح في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}723.

722 – معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 492.

723 المؤمنون 12 . 17.

بل كان حمل هبة بمعنى: أنّ مريم حملته بأمر الله (كن).

ولفظة لأهب تدلل على ذلك من حيث كون الهبة تطلق على شيء محدد ثابت في كينونته، فالهبة هي كون خارج عن الواهب (الله) وعن الموهوب (مريم)، لذلك فإن عيسى ما كان ولم يكن ولن يكون ابنا لله عزّ وجلّ، وهو كذلك ليس متخلقا في رحم مريم، بل هو موهوب ابنا لها.

ونتساءل:

هل كان عيسى هبة لامه فقط؟

إن عيسى الموهوب لمريم هو عيسى:

ابنها (ابن مريم)

البر بها

الرّحيم بها (لم يجعلني جبارا شقيا)

الرّسول الذي سيبلغها رسالة ربّها

أما لغيرها من بني إسرائيل فهو رسول لهم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[724].

وبحث الآن في التهوين (هو علي هين) ونتساءل:

ما الهين؟

[724] الصف 6.

ما دلالته؟

لماذا ورد اللفظ في السياق؟

من الهين؟

على من هو هين؟

تذكر المعاجم في لفظة هين عدة دلالات، منها يقال رجلٌ هيِّنٌ ليّنٌ، وفي لغة: هَيْن لَيْنٌ. والهُونُ: هَوانُ الشيء الحقّير. والهيّن: الذي لا كرامة له، أي: لا يكون على النّاس كريما725.

وهذه الدلالة تتحدث عن المخلوق العاقل (الإنسان).

وهناك دلالة أخرى تتعلق بالأفعال تنص على أن الشيءُ الهيِّنٌ، على فَيْعَلٍ، أي سهلٌ726.

ومن سياق الآية الكريمة وواقع الدلالة اللغوية لا يمكن أن يكون المقصود بكونه هينا عيسى صلّى الله عليه وسلّم، لأنّه لا تنطبق عليه صفات الهين من الرجال، فهين هنا للفعل أي أنّ خلق عيسى سهل عند الله لأنه بالأمر (كن) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وقد ورد اللفظ في السياق لمقابلة استغراب مريم، فمريم استغربّت قدرتها هي على القيام بهذا الأمر (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) وذلك من منطلق بشريتها الذي يعلم علما محددا لا مطلقا أن الحمل لا يكون إلا بالممّاسة وأن خلاف ذلك سيكون أمرا

[725] معجم العين، ج 1، ص 282.

[726] الصحاح في اللغة، ج 2، ص 260.

مستغربّا لإعجازه، ولم تستغربّ أمر الله عزّ وجلّ لان الرّسول ما أن أبلغا أنه أمر الله حتى ذهب استغراب مريم ليختفي في يقينها.

بقي الحديث عن على من هو هين؟ الرّسول أبلغ مريم نصا إلهيا هو (قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) فهو هين على الله فلا عناء ونصب وهو القوي الحكيم، وليس الأمر على الرّسول هينا لان الرّسول ليس له في هذا الأمر كله (خلق عيسى) إلا التبليغ.

عليه: نستنتج أن الرّسول لم يتدخل في خلق عيسى لا من قريب ولا من بعيد وإنما هو رسول مبلغ لمريم بأمر الله عزّ وجلّ.

- الآية (ولنجعله آية منا) سبق التفصيل في مفاهيم ودلالات الجعل، وهنا في هذا السياق جاء بمعنى صيره أية، والتنكير مفسر لعمق دلالة الجعل التي أراد الله للآية أن تكون عليه من جهة طبيعة الخلق المعجز لعيسى أولا وكذلك في كل حوادثه هو آية من جهة أخرى، واليك بعض براهين ذلك:

- كلامه في المهد آية (ويكلم النّاس في المهد).

- خلقه بإذن الله آية (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)

- شفاؤه الأمراض آية (وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ).

- إحياؤه الموتى بإذن الله آية (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ).

- إخباره الأسرار آية (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

– مائدته آية (رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

– وفاته آية (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ).

– رفعه وتطهيره آية (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ).

وعليه: ما بين الانتباذ الأوّل والانتباذ الثاني حصلت مرحلة الحمل مصداقا لقوله تعالى: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا).

نناقش الآن قضية الحمل ونتساءل:

هل حملت مريم عيسى؟

الحمل هنا ليس كحمل النساء وإنما هو حمل معجز، فمريم لم تعد إلى بيتها أو إلى المحراب أو بيت زكريا وهي كل الأماكن المحتملة لعودتها لكي نتأول مدّة حمل لها بين يوم أو أشهر بل واصلت فحملت فانتبذت، ومعلوم أن الفاء في انتبذت للتعقيب وأن الزمن المستغرق لولادة عيسى لم يكن إلا مسافة سير مريم بين الانتباذ الأوّل وصولا إلى المكان القصي (المنتبذ الثاني) والله اعلم به ولكنه لن يكون إلا في حدود ساعات أو أقل ثم بعد ذلك حدث المخاض.

فالحمل حصل في الانتباذ الأول ثم هي بعد ذلك حملته، أي كان الحمل في المكان الشرقي الذي أشار إليه القرآن الكريم أما المخاض فكان في المكان القصي، ولعل سائل يسأل:

لماذا شرقيا؟

وعلى ماذا يدل؟

السياق القرآني يقدم الصورة آية في الدلالة والبلاغة والإعجاز والتمام لذلك تجد كل ملامح الصورة المرادة تتكامل في الآية بإشارة في سياق أو لفظ أو غير ذلك، وفي قصة مريم ذكر الله عزّ وجلّ مكانا شرقيا ولم يذكر مثلا شماليا أو جنوبيا لان المقصود إظهاره هو الاتجاه بالمتعلق باتجاه الشمس فقال شرقيا للدلالة على طلب مريم للشمس وفي ذلك كما نعلم تحديد لبض ملامح الأجواء في هذه القصة، وهكذا يتبدى لنا أن القصة تدور في أيام باردة يتلمس فيها الإنسان الشمس.

والآيات إذ تشير إلى ذلك فإنها تقدم النص تاما لأنه من العليم سبحانه، وتحديده مهم جدا لبيان الفكرة، ففي هذه الآية وضحت مكانا شرقيا جانبا آخر من معاناة هذه الصديقة وصبرها وطاعتها لأمر الله عزّ وجلّ، كما وضحت آية سقي موسى لطبيعة معاناة موسى وصبره وطاعته، يقول الحقّ سبحانه وتعالى: {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ ربّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}727، هنا يبدو أن الفصل كان صيفا والجو حارا من خلال أمرين:

الأول: التدافع على الماء يعكس طبيعة طلبه من العطشى

الثاني: تولي موسى إلى الظل يدل على علو الشمس وحرارتها ومع ذلك قام بدوره الإصلاحي صابرا محتسبا عند الله.

الانتباذ الثاني حصل بعد الحمل مصداقا لقوله تعالى: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) وحصل فيه:

-المخاض

- الوضع

---

727 - القصص 24.

- النداء

- الأكل

- الشربّ

- أمر الصوم

المخاض هو "المِخاضُ وجَعُ الوِلادةِ وهو الطلْق"، وبهذا يكون معنى ألْجَأهَا المخاض، وهو وجعُ الولادةِ إلى جذْعِ النَّخْلَة؛ لتستند إليها، وتتمسَّك بها عمد وجع الولادة، وكانت نخلة يابسةً في الصحراء في شدَّة الشِّتاء، ولم يكُن لها سعفٌ، ولا خُضْرة، والتعريف فيها: إمَّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة؛ أو كانت تلك الصَّحراء كان فيها جذْع نخلة مشهورٌ عند النّاس.

فإن قيل: جذعُ النَّخْلة فهم منه ذلك دون سائره، وإمَّا يكون تعريف الجنْسِ، أي: إلى جذْعِ هذه الشَّجرة خاصَّةً؛ كأنَّ الله تعالى أرشدها إلى النَّخْلة؛ ليُطعمَها منها الرُّطب الذي هو أشبه الأشياء موافقة للنُّفساء، ولأنَّ النخلة أشدُّ الأشياء صَبْرا على البَرْد، ولا تُثْمِرُ إلاَّ عند اللِّقاح، وإذا قُطِعَ رأسُها، لم تُثمِرْ، فكأنَّ الله تعالى قال: كما أنَّ الأنثى لا تلدُ إلاَّ مع الذَّكر، فكذا النَّخلة لا تُثْمِر إلا باللِّقاح، ثم إنَّه أظهر الرُّطب من غيْر اللِّقَاح؛ ليدلَّ ذلك على جواز ظُهُور الولد من غير ذكر"[728].

ودلالة المخاض أعمق من الذكر المجرد، فهو يوحي ويدل على أمومة مريم لعيسى، فالله سبحانه وتعالى إذ بشر مريم بالابن الموهوب هبة لم يحرم مريم من علامات الأمومة كالحمل والمخاض والطلق ثم

---

[728] تفسير اللباب، ج 11، ص 56.

الولادة لانّ مريم أم كسائر الأمهات في أمومتها لعيسى عليه والصّلاة والسّلام.

ومن دلالاتها المهمة ما في ذلك من صفات بشرية لكل من مريم وعيسى، فعيسى بشر مخلوق بأمر الله عزّ وجلّ من أم بغير أب ومريم مخلوقة من أم وأب، ونحن على يقين تام أن الله قادر على أن يخلق عيسى بدون حمل أو مخاض، لكن إرادة الله العليم أرادت أن يُجلي للناس بشرية عيسى ومريم على حد سواء لكيلا يشتبه الأمر على الذين لا يعلمون، ولكن المصرين مع التحذير الشديد من الله عزّ وجلّ لهؤلاء بقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا}[729].

ومع تبليغ عيسى لإتباعه وحدانية الله عزّ وجلّ وتنزهه عن الولد والصاحبة والشريك إلا أنهم لم يأخذوا حتى بعلم نبيهم وتبليغه، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ربِّي وَربّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[730].

---

[729] النساء 171.

[730] المائدة 116-117.

الوضع (وضع عيسى):

لم يذكر وضع مريم لعيسى في القران الكريم كما ذُكر في وضع أمها لها مصداقا لقوله تعالى: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، وهذا يدل على احتمالين:

أن تكون مريم وضعت ولم يُذكر ذلك.

أن تكون مريم لم تضع.

يمكن ترجح أحد احتمالين من خلال البحث في دلالة الوضع، حيث تنص معاجم اللغة على القول "ووضَعَتِ الحامِلُ الوَلَدَ تَضَعُه وَضْعا بالفتح وتُضْعا وهي واضِعٌ ولدَتْه"731.

عليه نتساءل:

هل ولدت مريم؟

أكان عيسى مولودها؟

أكان عيسى بدون ولادة؟

إنّ النص القرآني لم يذكر في هذا السياق سوى المخاض ثم من بعد ذلك النداء من عيسى لامه (فناداها من تحتها) هنا يصعب الترجيح الدقيق لأحد الاحتمالات، لكن الصورة القرآنية أعطت عديد الملامح عن ولادة عيسى ولم تذكر الوضع المذكور مع سائر الأمهات مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا

[731] لسان العربّ، ج 8، ص 396.

وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ ربّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[732].

إذا الوضع حاصل مع كل الأمهات ومن هذه الآية نستنتج ثوابت تجعلنا نرجح احتمالا:

مريم أم عيسى

مريم حملت عيسى

حمل كل أنثى له وضع

مريم أنثى

مريم وضعت

هذه النتيجة المنطقية للبحث في احتمال وضع مريم لعيسى، عليه نقول إن الوضع حاصل.

ثم نتساءل:

هل كان الوضع من الموضع الذي تضع منه النساء.

نقول معلوم أن المرأة لا تضع من موضع واحد، فأغلبهن يضعن من الفرج، وأخريات يخرج الجنين من بطونهن بعملية جراحية، والله قادر على أن يُخرج الجنين من أي موضع من مواضع جسم المرأة، ومريم التي وضعت عيسى كانت عذراء وبقيت عذراء وستبقى إلى أن يشاء الله عزّ وجلّ هذا يعني أن يكون وضع مريم لعيسى احتمالي لا قطعي من

[732] الأحقّاف 15.

حيث مكان الوضع، ونرجح أن يكون وضع مريم لعيسى من المكان الذي نُفخ فيها، وهو أقربّ إلى المنطق لانّ ذلك يدل على دخول النفخة مقابل خروج المولود والله اعلم.

النداء

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِّي وَقَرِّي عَيْنًا).

النداء كان يتضمن عدة أمور:

1- جعل السري

2- إثمار النخلة

3- دعوة مريم للفرح

هذا المضامين إعجازية في كل شيء ومن صور هذا الإعجاز الترتيب، فالوالدة بعد مخاض أول ما تحتاج إليه هو الماء لفقدها سوائل كثيرة لذلك جعل الله عزّ وجلّ تحت مريم سري وهو في اللغة الجدول الصغير، ثم بعد ذلك جاء الأكل المخصوص، أي الأكل الذي يناسب حالة المرأة في هذا الموضع لان الرطب فيه سكريات كثيرة وعناصر متنوعة وهو من علم الله أن يقدم للمرأة بعد الوضع فائدة عظيمة وهذا وإن أثبت العلم صحته لكننا موقنون بها قبل إثبات العلم لأننا نعلم أن القران في اختياراته معجز لذلك تجد كل لفظة في موضعها الذي لا تزحزحه لفظة أخرى، وأن العلم الذي فيه هو من علم الله ولا يمكن أن يظهر خلاف ذلك، ويذكرنا إطعام مريم بالرطب الجني بقوله تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}[733]،

---

[733] - الصافات 145 -146.

فاليقطين هو افصل ما يقدم لمن اعتل بالجفاف لأنه يحتوي على سوائل كثيرة يمكن للجسم امتصاصها والاستفادة منها، والله سبحانه وتعالى قادر على أن يهب يونس ماءً غدقا، إلا أن ذلك كان سيؤذيه أكثر ممّا سينفعه، لذلك فإن إطعام الله عزّ وجلّ لمريم بالرطب كان اطعما إعجازيا.

نريد هنا الحديث عن طريقة الإطعام، فقد طُلب من مريم أن تهز جذع النخلة لكي يتساقط رطبها.

هنا نتساءل:

أيمكن أن يهز جذع النخلة فيتساقط الرطب؟

هل كانت مريم قادر على هز الجذع؟

هل كان لابدّ من هز الجذع؟

نقول إن المعروف عند أهل النخل أن الحصول على الرطب لا يكون بهز جذع النخلة في الحالات الاعتيادية بل بطرق أخرى، وهذا يجعنا نقول في التساؤل الثاني أن في هز الجذع احتمالين:

أن يكون امتلك قوّة عظيمة قادرة على هز الجذع.

أن يكون هز الجذع سببيا.

نحن نرجح الاحتمال الثاني أي أن يكون هز الجذع من باب طلب الأسباب، والله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا ولغيرنا في هذه الآية أن مريم وفي وضعها هذا طُلب منها أن تهز جذع النخلة لطلب الرطب، عليك إذا أيها الإنسان أن تكون أن تطلب أسباب الرزق وتسعى وعليه:

هز الجذع رمز يوحي به لطب الأسباب، فالذي يصيد السمك في البحر لا يهز الجذع ولكن يلقي بالشبك في البحر والاثنان واحد وهو طلب الأسباب، فكان الهز قاعدة ضرورية لمريم وغيرها.

أمر الصوم:

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)

إن الحديث عن أمر الصوم يجعلنا نبحث في موجباته هنا من خلال تساؤلات:

هل كان عبادة؟

أم كانت وسيلة؟

أكان آية؟

أكان نذرا؟

إنّ مصطلح الصوم هو مصطلح يدل على نوع من أنواع العبادة المؤصلة في الخلق، وما كان منع الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجه للأكل من شجرة مخصوصة إلا تدريبا لهما على الصوم وامتحانا لصبره على الامتناع عن نوع من الطعام، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}734.

عليه: فإنّ الصوم مصطلح يطلق على العبادة الفروض منها والنوافل، والذي يبدو من الآيات الكريمة أن الصوم عن الكلام كان من

[734] البقرة 35.

أنواع الصيام المعروفة في زمن مريم، فقد صام زكريا نفس نوع الصيام لمدة محددة، {قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ ربّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[735].

أمّا مريم فلم يذكر المدة التي صامت فيها عن الكلام.

وصيام مريم كان نوعا من تهيئة النفوس التي حولها والتي تنطق متسائلة عن هذا الذي جاءت تحمله (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)، ولم تتكلم مريم فتشوقت النفوس إلى سماع الرد الذي جاء من حيث لم يحتسبوا، جاء على لسان هذا المولود الذي سألوا عنه: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}[736].

فهل كان الصيام وسيلة؟

نعم انه من وسائل العبادة ومن وسائل الوقاية من الجاهلين والخائضين في الباطل، ولم يكن صيام مريم آية بل كان نذرا علمها إياه ابنها النّبي الرّسول عيسى صلّى الله عليه وسلّم (فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)، لكن مسألة تحتاج إلى نظر هي:

كيف تقول وهي لن تتكلم؟

يحتاج هذا إلى معرفة الفرق بين القول والكلام،

[735] آل عمران 41.

[736] مريم 29-33.

ينقل معجم الفروق عن الطبرسي قوله: القول يدل على الحكاية. وليس كذلك الكلام. نحو قال الحمد لله. فإذا أخبرت عنه بالكلام قلت: تكلم بالحمد"737.

عليه: فانّ القول يدل على الخبر مفهوما أو منطوقا، أما الكلام في النطق بالخبر لذلك فإن قول مريم لهم أنها صائمة كان بلغة الإشارة الموحية بذلك ونرجح ذلك لشيوع الصوم عن الكلام في زمنها ومعرفة النّاس بطريقة إخبار الصائم عن صومه.

737 الفروق اللغوية 438،1.

النبي

عيسى من السنّة

عيسى ابن مريم عليهما السّلام هو نبي الله إلى بني إسرائيل، وهو آية من آيات الله في خلقه؛ فقد خلقه في بطن أمّه العذراء بروح منه جلّ جلاله. حيث جاء الملك جبريل إلى السّيدة مريم وهي تتعبّد، حيث بشرها بأنّها ستلد ابنا له قدسية، وأنّه سيكون رسولا من رسل الله ونبيا من أنبيائه دون أن يكون له والد، وهذه هي الآية المعجزة؛ فعيسى عليه والصّلاة والسّلام كان حمله استثنائيا، وكلامه استثنائيا.

كانت لدى عيسى عليه السّلام القدرة على فعل بعض المعجزات كسائر المرسلين والأنبياء مع الاختصاص بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

ويقال أنّ في زمان عيسى عليه السّلام كان علم الطب متقدّما، فلما رأى أهل ذلك الزمان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علموا أنّها ليست من حد صناعة الطب، وإنّها معجزة لعيسى من عند الله؛ ليؤمنوا برسالته ويتبعوه[738].

علّم الله عيسى عليه السّلام الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بني إسرائيل، أي، بعد أن انحرف بنو إسرائيل عن الصّراط المستقيم، وتجاوزوا حدود الله؛ فأفسدوا في الأرض وأنكر فريق منهم البعث والحساب والعقاب، وانغمسوا في الشّهوات والملذات حينئذ بعث الله إليهم عيسى ابن مريم رسولا منقذا.

---

[738] مختصر إظهار الحقّ، ص 161.

قام عيسى عليه السّلام بدعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، والعمل بأحكام التوراة والإنجيل. وأخذ يجادلهم ويبيّن لهم فساد مسلكهم، ولكن لما رأى عنادهم وظهرت بوادر الكفر فيهم وقف في قومه قائلا: من أنصاري إلى الله؟ فآمن به الحواريون وعددهم اثنا عشر قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ربّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرّسول فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}739

ومن آيات عيسى عليه السّلام أنّه يعلم بمحمّد عليه والصّلاة والسّلام رسولا من بعده، أي أنّه قد بُشر به، وبه بشّر من بعده. {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}740.

ومع أنّ عيسى عليه والصّلاة والسّلام هو عبد الله ورسوله، ولكنّ أهل الكتاب قالوا عنه ما لم يكن فيه، وفيه قد اختلفوا؛ فمنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، ومنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو عبد الله ورسوله. ونحن نقول بلا تعصّب والحقّ بيّنة من الله، أنّه عبد الله ورسوله. {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}741.

ومع ذلك قد جعل الله في أتباع عيسى والمؤمنين به رأفة ورحمة، ولذا؛ فهم أقربّ مودّة لأتباع محمّد عليه والصّلاة والسّلام، مصداقا لقوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاس عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ

[739] آل عمران 52، 53.

[740] الصّافات 6.

[741] النساء 159.

أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}742.

وسمي عيسى عليه السّلام بالمسيح "لأنّه كان لا يمسح بيده ذا عاهة إلا وقد شفي، وهناك من يقول: إنّه خرج من بطن أمّه ممسوحا بالدّهن، أو كان يمسح الأرض أي يقطعها"743. وهذه من صفاته. وكذلك الحكمة من صفاته حيث قال: "من علم وَعمل فَذَلِك يدعى عَظِيما فِي ملكوت السَّمَاء"744.

كان عيسى عليه السّلام نبيا متواضعا يلبس الشّعر ويأكل ممّا يتوفّر لديه، وفي هذا الأمر قَالَ الْحسن الْبَصْرِيّ: "كَانَ عِيسَى علية السّلام يلبس الشّعْر وَيَأْكُل من الشَّجَرَة ويبيت حَيْثُ أَمْسَى. وَكَانَ النّبي محمّد صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم يلبس الصُّوف"745.

عيسى ابن مريم المسيح الكريم عليه والصّلاة والسّلام لا يقبل الكذب من أفواه النّاس ولا يقبله سلوكا؛ فذات مرّة يروى أنّ "عيسى عليه السّلام رأى رجلا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال لا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذّبت بصري"746.

ويقال أنّ مكان مبعث عيسى عليه والصّلاة والسّلام هو ساعير، وفقا لما قاله أَبُو محمّد رَضِي الله عَنهُ: "سيناء هُي مَوضِع مبعث مُوسَى عَلَيْهِ السّلام، وساعير هُي مَوضِع مبعث عِيسَى عَلَيْهِ السّلام، وفاران هِيَ مَكَّة مَوضِع مبعث محمّد صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم بَيَان ذَلِك أَن

---

742 النساء 82.

743 كنز العمال، 3، ص 342.

744 المقصد الأسنى، ص 110.

745 التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 22.

746 كشف الخفاء ط القدسي، 2، ص 292.

إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السّلام أسكن إِسْمَاعِيل فاران وَلَا خلاف بَين أحد فِي أَنه إِنَّمَا أسْكنهُ مَكَّة فَهَذَا نَص على مبعث النَّبِي صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم747.

ويقال في أخر الزّمان: سينزل عيسى حاكما بشريعة محمّد صلي الله عليه وسلّم، مصليا إلى قبلته فهو كآحاد أمته، بل هو أفضل هذه الأمّة748.

مريم أمّ عيسى:

نشأت مريم في المحراب، تواظب على عبادتها وتجتهد، فظهرت عليها آثار التُّقى والعفّة والطّهارة، ما جعل الملائكة تبشّرها بالطّهارة والصّفاوة واصطفائها على نساء العالمين، فهي لا تسجد ولا تركع إلّا مع الرّاكعين لله تعالى {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}749. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلّى الله عليه وسلّم – قَالَ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ"750

747 الفصل في الملل والأهواء والنحل، 1، ص 90.

748 كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقّيق دعوة الأنبياء والمرسلين، ص 127.

749 آل عمران 42 . 45.

750 الإيمان بالجن بين الحقّيقة والتهويل، ص 306.

فمريم عليها السّلام وهي تتعبّد ربّها تعالى اختارت أن تنفرد بنفسها عن أهلها مكان بعيد، {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}751 حتى أرسل لها الله تعالى روح من روحه وقد تمثل لها بشرا سويا؛ فكانت في خشية منه امرأة تقية؛ فاستعاذت بالله منه حيطة وحذرا، {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرّحمن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}752 ولكن جواب الملوك لا يمكن أن يكون إلّا رفعة ذوقيّة، {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا}753. وهنا فُتح الحوار حجّة ومنطق وآية من آيات الرّحمن في قصّة لا تستوجب إلّا التسليم بمشية الله تعالى وعظمة تعالى. {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}754

أم عِيسَى عَلَيها وعليه السّلام، حملت بهَا أمهَا ونذرت أَن تهب مَا فِي بَطنهَا محررًا لخدمة الهيكل، فَلَمَّا وَضَعتهَا أُنْثَى اعتذرت إِلَى الله، ودعت لَهَا، فَأجَاب الله تعالى دعاءها وأنبتها نباتًا حسنا، وَمَات والدها وَهِي صَغِيرَة فكفلها زكريًّا، وَكَانَ كلّما دخل عَلَيْهَا الْمِحْرَاب وجد عِنْدهَا رزقا لَا يجده عِنْد النّاس، ونشأت طَاهِرَة عفيفة محْفُوظَة بعناية

751 مريم 16.

752 مريم 18.

753 مريم 19.

754 مريم 20 . 25.

الله، ثمَّ أرسل الله إِلَيْهَا جِبْرِيل فأعلمها أَنَّه رَسُول من الله ليهب لَهَا غُلَاما زَكِيًّا، وحملت بِعِيسَى عَلَيْهِ السّلام وانجبه كليما لله تعالى[755]

موسى يتكلّم يوم ولادته:

بلغة العصر ومنطقه هذا الأمر غير ممكنا، ولكن بمنطق المعجزات فهو الممكن بعينه، وهذه هي الأخرى قد لا تكون ميسّرة الفهم لدى البعض، ولكنّها لدى المؤمنين فالخالق قادر على كلّ شيء، وهذه لا تكون إلّا بأمره، الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

وإلّا كيف يقبل العقل أنّ الخَلق الأوّل من طين، والكلام يوم الخلق؟ أي: الم يكن آدم من طين؟

الم يكن آدم من غير أب ومن غير أم؟

وأيهما أقربّ للعقل أن تُخلق جنينا في بطن أمكّ ثمّ تلدك وتتكلّم يوم ميلادك، أم أنّك تخلق من تراب وتتكلّم لغة أنت مصدرها بعد الإلهام الرّباني؟

معجزة التكلّم في المهد هي من معجزات عيسى عليه السّلام الذي حملته السيدة العذراء وأنجبته ثمّ جاءت به إلى قومها؛ فتعجب النّاس من هذا الابن، وبدأوا باتهامها بأنّها لمست رجلا غريبا عنها، إلّا أنّ الله تعالى أنطق رسوله وهو في المهد؛ فتكلم بكلام عجيب؛ فأسكت كلّ من سمع صوته، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ

---

[755] نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزّ وجلّ من التوحيد، 1، ص 390.

الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}756

دعاء عيسى:

يروى عن معمر عن جعفر ابن برقان أنّ عيسى عليه السّلام كان يقول في دعائه "اللهم إنيّ أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتهنا بعملي؛ فلا فقير في الدنيا أفقر مني اللهم لا تشمّت بي عدوي، ولا تسوء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلّط عليَّ من لا يرحمني"757.

هكذا أورده صاحب القوت وقد جاء عند الترمذي والحاكم من حديث ابن عمر في آخره وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا قال ابن عمر قلما كان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدّعوات758.

ومن دعائه العظيم ذلك الدعاء الذي كانت الاستجابة له معجزة وهي: تنزيل المائدة، قال تعالى: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}759

---

[756] آل عمران 30 . 35.

[757] تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، 2، ص 784.

[758] تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، 2، ص 784.

[759] المائدة 114 ،. 115.

نزول عيسى من علامات قيام السّاعة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "لا تقوم السّاعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكما مقسطا، وإماما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"760

وقال الإمام الموفق أبو محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى في عقيدته المشهورة: "يجب الإيمان بكلّ ما أخبر به النّبي صلّى الله عليه وسلّم وصح به النقل عنه فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنّه صدق وحقّ، ومن ذلك أشراط السّاعة؛ مثل: خروج الدجّال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السّلام فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشّمس من مغربها، وخروج الدّابة"761

وقال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى: "مسألة: عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وسلّم حي رفعه الله تعالى إليه بروحه وبدنه، مصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ}762؛ أي: قابضك، وكذلك ثبت أنّه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل الدجّال، ويكسر الصّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية"763.

760 التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ص 141.

761 إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، 3، ص 130.

762 آل عمران 55.

763 إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، 3، ص 130.

وكلمة متوفّيك هنا لا تعني الموت، بل تعني ما يشير إلى وفاء الله لعيسى عليه السّلام بمعجزة أخرى، وهي التي أصبحت اكتمالا لمشهد الوجود على الحياة الدنيا، فرفعه إليه ليكون عيسى وجودا في الحياة العليا.

ولهذا فلا استغراب! ومن يستغربّ ذلك؛ فكيف لا يستغربّ هبوط آدم والأزواج من السّماء إلى الحياة الدّنيا؟

أقول لتوضيح ذلك علينا بمعرفة الكيفية التي كانت عليها السماوات والأرض رتقا. ثمّ كيف انفتقت؟

انفتاق الأرض وهبوط آدم:

بعد أن حدث الانفتاق العظيم هبطت الأرض الدّنيا بالقوّة الفراغيّة حتى استقرّت اعتدالا جاذبيا في فلكها المتوازن، وصعدت السّماء بذات القوّة المنفجرة تتمدّد إلى النّهاية؛ فشكّلتا كونا دنيويا تملأه الحيويّة والحياة، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}764.

ولأنّ أمر فتق السّماوات والأرضين بيد الخالق؛ وأنّ فتقهما جاء قبل هبوط الأرض إلى الدّنيا، إذا؛ فلا أحد يعلم الكيفية التي بها فتقت السّماوات والأرض، ولا الزّمن الذي فيه فتقت، ولا الصّفة التي جاء عليها الانفتاق العظيم، فلا أحد يعلم بذلك إلّا الذي أمر بفتقها سماوات وأرضين، ولا أحد يعرف إلّا الأزواج التي هبطت عليها.

ولأنَّ الزّوجين (آدم وزوجه) المستخلفين في الأرض لم يتركا لنا شيئا من هذا؛ إذا؛ فلا حجّة بين أيدينا، وكذلك لم نعثر حتى الآن على

[764] الأنبياء 30.

هيكليهما العظمي لنقول هذا أثر الأنسان الأوّل، الذي قالوا عنه قد تطوّر بعد أن كان شبيه قردٍ. ولكن الإجابة العلمية وفقا للمعلومة المتوفّرة بين أيدينا حجّة هي: (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

ولذا؛ فُتقت السّماوات والأرضين؛ فكانت أكوانا، وفي كوننا علماء الفلك والفيزياء يبحثون ويتقصّون، ومع ذلك لم يعلموا إلّا قليلا، ومن ثمّ؛ فكيف لنا بمعرفة أسرار الأكوان الأخرى، ونحن لم نعلم من أسرار كوننا إلّا قليلا؟ {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}765.

ولأنّها أكوان مستقلّة بذواتها؛ فهي أكوان مخلوقة على الخصوصيّة والنّوعيّة التي تُميّز كلّ كونٍ عن غيره، وهذه من أسرار الخالق الذي يعلم ما لا نعلم، {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}766.

ومع أنّ السّماوات والأرضين كانت ملتحمة كونا لا فواصل بينها، لكنّ الأرض كانت صالحة لحياة الخلق الأوّل قبل أن تنفتق أرضا دنيا، وهناك كان نشوء أبينا آدم مثل نشوء النّبات، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}767، وهناك أيضا تمّ اصطفائه نبيا للخلق الأوّل (الملائكة والجنّ والإنس)، وهناك كانت جنّة الحياة الأوّلى، حيث تمام النّعمة ورغد العيش، وفي المقابل كانت هناك المعصية، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}768. أي: أنَّ معصية آدم وزوجه لم تكن على الأرض الدّنيا، بل كانت على ذلك الكون المرتق في وحدة وجود عظيم، أي: في جنّة

765 الإسراء 85.

766 الواقعة 61.

767 نوح 17.

768 طه 121.

عرضها كعرض السّماوات والأرض، {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}769.

ومن هذه الآية يمكن استقراء نهاية الأكوان التي فُتقت بعد رتق أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه مُرتقة، وهناك ستكون الجنّة التي يأملها المؤمنون، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}770.

إذا؛ فالخالق وعد بعودة الخلق إلى ما كان عليه خلقا أوّلا، وبالتّالي ستطوى الحيّزات الفراغية العظيمة التي فصلت الأكوان، وجعلت منها طرائق سماوية وأرضية؛ وسَتُرتق من جديد وجودا عظيما (جنّة ونارا) ولكلّ ثمار عمله، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}771.

ومع أنّ الإنسان الأوّل خُلق في أحسن التقويم، وكان في جنّة غير منقوصة، لكنّه لم يصمد أمام الوسوسة والإغواء؛ فأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها؛ فأهبط به وزوجه والجنّ على ظهر الأرض من الحياة العليا إلى الحياة الدّنيا، {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}772. فقوله: (اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) المقصود هما: الإنس والجن، اللذين أصبح بينهما العداء جزء من الحياة الدّنيا.

ولأنّ الإنس الأوّل (آدم وزوجه) يشكّل طرفا رئيسا في مخالفة أمر الله، وأنّ الجنّ طرف رئيس أيضا في المخالفة، فكان حكم الهبوط عليهم بلا استثناء، {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

---

[769] الحديد 21.

[770] الأنبياء 104.

[771] الأنبياء 104.

[772] طه 123.

وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}773؛ فهنا جاء القول موجّه للخطّائين، الذين تمّ تبليغهم بأنَّ الأرض هي نصيبهم في الحياة الدّنيا، وكأنّ المقصود: خذوا الأرض؛ فهي قد مُنحت لحياتكم، لكم فيها مستقر ومتاع إلى حين، وستظلون عليها ما حييتم، وستموتون عليها وستحييون منها.

إنّ القول جاء أمرا حاسما بأنّ وجود الخطّائين في الكون المرتق (الملتحم) أصبح غير ممكن، والإبعاد عن الجنّة لا مفرّ منه؛ فالجنّة التي لم يقدّر العيش فيها، من قِبل من خُلق خلقا كما هي خُلقت؛ فلابدّ من خروجه منها؛ فكان الخروج هبوطا للأرض ومن عليها، وكان الدّرس، ولعلّه يكون الموعظة.

ولذلك، فُتقت السّماوات والأرضين، وأهبطت الأرض الدّنيا بالحياة الدّنيا، وعلى ظهرها الأزواج التي أنبتت منها وخُلقت عليها، وعلى رأسها الإنس والجنّ، ممّا جعل الوسوسة والإغواء بين بني آدم نار فتنة حتى اقتتلا.

والتساؤل: كيف يفكّ اللبس بين مفهوم خلق آدم في الجنّة وخطيئته هناك، وبين خلقه من تراب الأرض؟

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرّتق مع السّماوات قطعة من الجنّة، ولذلك؛ فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنّة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنّة، ولذا؛ فآدم وزوجه لم يخلقا من الأرض بعد انفتاقها من ذلك الوجود الأوّل (سماوات وأرضين)، بل خُلق من الأرض قبل الانفتاق العظيم،

---

773 الأعراف 24، 25.

{فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى}774. ولا شكّ أنَّ البقاء في الجنّة بقاء في النّعيم، أمّا البقاء في الأرض بعد انفتاقها من السّماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنّة.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنّة، ولم يترك لها إلّا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدّنيا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}775. أي: أنّ السّماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنّة، ولكن بعد أن فُتقت؛ فلم يفتق معها من نعيم الجنّة إلّا الماء، الذي يحفظ الأحياء على الحياة الدّنيا، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

ولأنّ نشوء الإنس نشوء غير كامل؛ فكانت الخطيئة من الإنسان الأوّل (أصل السّلالة البشريّة)، ولذلك، لو أخذ آدم بأمر النّهي، وبقي ممتنعا عن الأكل من تلك الشّجرة، لكانت حياته مثل خلقه في النّعيم، {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَعَصَى آدَمُ ربّهُ فَغَوَى}776، ولكن التساؤل:

متى بدأت الحياة على الأرض؟

الفيزيائيون يقولون: لقد بدأت الحياة على الأرض بعد أن بردت من حرارة ذلك الانفجار العظيم؛ فتكوّنت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوي، حتى أصبحت جاهزة لاستقبال الحياة، وقد نادى

774 طه 117.

775 الأنبياء 30.

776 طه 121.

بعض العلماء الفيزيائيين وعلى رأسهم العالم الألماني ريختر Richter 1870، والعالم هلمهولتز Helmholtz 1894: إنّ الحياة انتقلت إلى الأرض من كوكب آخر عن طريق بذور نبات، أو حويصلات جراثيم الميكروبات، أو الأطوار ذات البيات، أو السّكون في كائنات أخرى، أو أنّ أحد النيازك قد حمل كائنات حيَّة لكوكب الأرض777، وهناك من يرى أنّ الأرض مرّت بزمن ارتفاع درجات الحرارة، ثمّ حلول العصر الجليدي، ثمّ أخيرا ظهر الإنسان بعد أن تمت تهيئة ظروف حياته778.

وهنا، تكمن حقّيقة، مفادها: أنّ دلائل تشير إلى وجود علاقة بين الأرض وكواكب أخرى، وهذا يؤّكد أن الأرض كانت غير مستقلة عن غيرها من خلائق الكون (السّماوات والأرض)، أي: أنَّ الكائنات والنباتات والنيازك السّماوية التي يعتقد إنّها قد هبطت على الأرض تعدّ مؤشرا ودليلا على أنّ الأرض والسّماوات كانتا رتقا.

ولذلك؛ فالأرض لو كانت نتاج الانفجار العظيم ذا الحرارة العالية كما قال عنها علماء الفيزياء والتي لا توصف بأيّة حرارة نعرفها، لكانت الأرض رمادا غير صالح للحياة (النّار لا تترك إلّا الرّماد)، ولكن لأنّها كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت؛ فأهبط بها وبمن على ظهرها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم إشباعا.

---

777 http://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/204.html

778 Cosmology: The Science of the Universe. Second edition. Edward Harrison. Cambridge University Press, 2000

ومع أنّ علماء الفلك والفيزياء يتحدّثون عن الأرض كونها نتاج انفجار تلك الذّرة، وليست نتاج الانفتاق العظيم الذي سبق علمه ما اكتشفه علماء الفلك والفيزياء، ولكن لو كانت الأرض على تلك الحرارة الموصوفة شدّة، لكانت عدما (حيث لا حياة) وهذه لا تكون صفة الأرض التي خلقت منها الأزواج، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[779].

ومع أنّ الإنسان الأوّل خُلق من الأرض؛ لكنّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدّنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي ترابها وطينها وصلصالها جنّة. ولذلك؛ فحياة الإنسان الأوّل كانت حياة عليا، أمّا الحياة على الأرض الدّنيا فهي الحياة السفلى.

أي: بمقارنة ذلك النّعيم مع ما يتوفّر على سطح الأرض الدّنيا؛ فلا مقارنة، وهنا، تكمن سُفلية الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو.

ولذلك، في الأرض العليا (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزّوجين كان الملائكة والجنّ من خلائق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض حيث أصبحت أرضا دُنيا بعد أن كانت أرضا عليا، وظلّت الملائكة في السّماوات العليا غير مخالفة لأمر الخالق، وهي لا تتنزّل للأرض إلّا لأمرٍ. {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ

---

[779] يس 36.

أَمْرٍ}780، أي: كلما لزم أمر تنزّلها تُنزل، {يُمِدَّكُمْ ربّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}781.

فالأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه، وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيئا، إلّا شيء من الماء، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}782؛ فالأرض خُلقت وهيأت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هُيأت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاق العظيم انفتاق أكوان (سماوات وأرضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعا في اتساعه، وإنّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلّا مؤشرات.

وعليه:

فإنّ أساس الخلق هو: كون مُرتق، ثم كون مُفتق، وفي كلا الحالتين الخالق واحد؛ فنحن بنو آدم لا نعلم إلّا ما أعلمنا به الخالق وحيا موحى، ومع ذلك لم يُظهرنا على ما أعلمنا به إلّا بمقدار، ومن ثمّ، فكلّما اكتشفنا شيئا تمكنّا من معرفة حقّيقة ذلك الشيء، وفي المقابل لم ننتج حقّيقة؛ فالحقّيقة: (وراء كلّ مخلوق خالق)، ولذلك فمنتج الحقّيقة هو خالقها، أمّا مكتشفها فهو المتعرّف عليها، وبين هذا وذاك قد يظهر مدّعيها وهو من لم يكن منتجا لها ولا متعرّفا عليها.

والسؤال هنا، أيهما أكثر سهولة أن تكون الأرض والسّماوات مرتقة، ثم تفتق وتهبط الأزواج عليها، أم أنّ الأيسر أن يرفع الله عيسى إليه حيّا ليبقى هناك في علوٍ في السّماء حيث وجود الجنّة؟

---

780 القدر 4.

781 آل عمران 124.

782 الأنبياء 30.

والسؤال الثاني: لو كان عيسى هو الله كما ظنّ البعض؛ فهل الله العظيم يتجسّد في صورة لا تخرج عن دائرة الإحاطة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها، ويشبّهون المخلوق بالخالق، حيث قالوا: إنّ الله هو المسيح بن مريم، وإنّ الله ثالث ثلاثة، وقالوا المسيح ابن الله[783].

ولهذا أقول:

أنّ الرّفع إلى السّماء معجزة خصّ الله بها عيسى عليه السّلام، ولأنّه رُفع؛ فلا يمكن أن يكون الله، ولا يمكن أن تكون صفاته صفات الله. أي لا يمكن أن تتساوى صفة الرّافع مع صفة المرفوع.

وعليه عندما نؤمن بوجود المعجزات لابدّ أنّ نكون قد آمنّا بوجود المعجز، ولهذا ما من رَسُول من رسل الله تَعَالَى إِلَّا وَقد كَانَ مؤيدا بمعجزة أَو معجزات كَثِيرَة تدلّ على صدقه وصدق رسالته، وَقد أخبر الله تَعَالَى عَن كثير مِنْ المعجزات التي منها: قصَّة مُوسَى عَلَيْهِ السّلام وفلق الْبَحْر وقلب الْعَصَا حَيَّة وَالْيَد الْبَيْضَاء وَفِي قصَّة دَاوُد وَسليمَان تليين الْحَدِيد وتسخير الرّيح وَالشَّيَاطِين والطيور وَجَمِيع دَوَاب الأَرْض فِي الْبر وَالْبَحْر، وَفِي قصَّة عِيسَى عَلَيْهِ السّلام إحْيَاء الْمَوْتَى وإبراء الأكمه والأبرص وَذكر فِي صفة الْمُصْطَفي صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم أَنه يَدْعُو مخالفيه إِلَى مُعَارضَة مَا أتى بِهِ من الْقُرْآن أَو سُورَة مِنْهُ[784] مصداقا لقوله تعالى: {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}[785].

---

[783] العرش للذهبي، 1، ص 122.

[784] التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ص 169.

[785] البقرة 23.

نعم أنّ القرآن كلام الله، وأُنزل على محمّد الأمي؛ فألمّ به محمّد عليه والصّلاة والسّلام على التمام والكمال وقت نزوله، وكأنّه لم يكن الأمي! وهنا تكمن المعجزة الأولى (الأمي يلمّ بكلام الله المعجز على التمام والكمال وكما أنزل). أمّا بقية معجزات محمّد فهي بالتمام عدد آيات القرآن الكريم الذي لن يأتي أحدا بآية تماثل أيّة من آياته. إنّها الآيات المنزلات على محمّد الذي قدّمها هي كما هي معجزات، ومن هنا أقول: إنّ عدد آيات القرآن الكريم التي هي: (6236 آية) هي بالتمام عدد معجزات النبي الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

عيسى يرفع التشديدات عن بني إسرائيل:

عن وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام كَانَ عَلَى شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السّلام "كَانَ يُقَرِّرُ السَّبْتَ وَيَسْتَقْبِلُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ إِنَّهُ فَسَّرَ قَوْلَهُ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ بِأَمْرَيْنِ:

. الأوّل: أَنَّ الْأَحْبَارَ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ شَرَائِعَ بَاطِلَةً وَنَسَبُوهَا إِلَى مُوسَى، فَجَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام وَرَفَعَهَا وَأَبْطَلَهَا وَأَعَادَ الْأَمْرَ إِلَى مَا كَانَ فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السّلام.

. الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ حَرَّمَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْيَهُودِ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى بَعْضِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْجِنَايَاتِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النّاس بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[786] ثُمَّ بَقِيَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ مُسْتَمِرًّا عَلَى الْيَهُودِ فَجَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام وَرَفَعَ تِلْكَ التَّشْدِيدَاتِ عَنْهُمْ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام رَفَعَ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، وَلَمْ

---

[786] النساء 160، 161.

يَكُنْ ذَلِكَ قَادِحًا فِي كَوْنِهِ مُصَدِّقًا بِالتَّوْرَاةِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ وَرَفْعَ السَّبْتَ وَوَضْعَ الْأَحَدَ قَائِمًا مَقَامَهُ وَكَانَ مُحِقًّا فِي كُلِّ مَا عَمِلَ لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ كِلَاهُمَا حقّ وَصِدْقٌ"787.

الحواريون أنصار الله لعيسى:

وفقا لسوائل عيسى: من أنصاري إلى الله؟

وجب التمييز بين مفهومين اثنين: أنصار عيسى مع الله، وهذا لا يليق بتاتا، وبين أنصار الله في نصرة عيسى، وهذا الذي حدث على التمام. فعيسى عليه السّلام حين قال لهم مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ؟ كانت الإجابة مطابقة نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ، فيكون المعنى في سؤال عيسى عليه السّلام: من جندي نصرة لله؟ وهنا يتضح الفرق المفهومي بين: من أَنْصارِي؟ وبين من أَنْصارَ اللَّهِ؟

فكانت الإجابة من الحواريين وضوحا (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ)

وهنا جاء في تفسير الزمخشري إنّ الحواريين قالوا: "نحن الذين ينصرون الله. ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرني مع الله، لأنّه لا يطابق الجواب. والدليل عليه: قراءة من قرأ: من أنصار الله. والحواريون أصفياؤه وهم أوّل من آمن به وكانوا أثني عشر رجلا، وحواري الرّجل: صفيه وخلصائه788

اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَى بِشَارَةَ مَرْيَمَ بِوَلَدٍ مِثْلِ عِيسَى وَاسْتَقْصَى فِي بَيَانِ صِفَاتِهِ وَشَرْحِ مُعْجِزَاتِهِ وَتَرَكَ هَاهُنَا قِصَّةَ وِلَادَتِهِ، وَقَدْ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَى الِاسْتِقْصَاءِ، شَرَعَ فِي بَيَانِ أَنَّ عِيسَى لَمَّا شَرَحَ لَهُمْ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ تِلْكَ الدَّلَائِلَ فَهُمْ بِمَاذَا عَامَلُوهُ فَقَالَ تَعَالَى:

---

787 تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 8، ص 231.

788 تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقّائق غوامض التنزيل، 4، ص 528.

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}789 وهنا فِي الْآيَةِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: الْإِحْسَاسُ عِبَارَةٌ عَنْ وِجْدَانِ الشَّيْءِ بِالْحَاسَّةِ وَهَاهُنَا وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنْ يُجْرَى اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا بِالْكُفْرِ، فَأَحَسَّ ذَلِكَ بِأُذُنِهِ وَالثَّانِي: أَنْ نَحْمِلَهُ عَلَى التَّأْوِيلِ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ عَرَفَ مِنْهُمْ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَزْمَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْعِلْمُ عِلْمًا لَا شُبْهَةَ فِيهِ، مِثْلَ الْعِلْمِ الْحَاصِلِ مِنَ الْحَوَاسِّ، لَا جَرَمَ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ الْعِلْمِ الإحساس.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: اخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي بِهِ ظَهَرَ كُفْرُهُمْ عَلَى وُجُوهٍ الْأَوَّلُ: قَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ فَتَمَرَّدُوا وَعَصَوْا فَخَافَهُمْ وَاخْتَفي عَنْهُمْ، وَكَانَ أَمْرُ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام فِي قَوْمِهِ كَأَمْرِ محمّد صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم وَهُوَ بِمَكَّةَ فَكَانَ مُسْتَضْعَفًا، وَكَانَ يَخْتَفِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا اخْتَفي النّبي صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم فِي الْغَارِ، وَفِي مَنَازِلِ مَنْ آمَنَ بِهِ لَمَّا أَرَادُوا قَتْلَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ عَلَيْهِ والصّلاة وَالسّلام خَرَجَ مَعَ أُمِّهِ يَسِيحَانِ فِي الْأَرْضِ، فَاتُّفِقَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَرْيَةٍ عَلَى رَجُلٍ فَأَحْسَنَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ضِيَافَتَهُ وَكَانَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ مَلِكٌ جَبَّارٌ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يَوْمًا حَزِينًا، فَسَأَلَهُ عِيسَى عَنِ السَّبَبِ فَقَالَ: مَلِكُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ جَبَّارٌ وَمِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ جَعَلَ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا يَوْمًا يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ هُوَ وَجُنُودَهُ، وَهَذَا الْيَوْمُ نَوْبَتِي وَالْأَمْرُ مُتَعَذِّرٌ عَلَيَّ، فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْيَمُ عَلَيْهَا السّلام ذَلِكَ، قَالَتْ: يَا بُنَيَّ ادْعُ اللَّهَ لِيَكْفِيَ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا أُمَّاهُ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ كَانَ شر، فَقَالَتْ: قَدْ أَحْسَنَ وَأَكْرَمَ وَلابدّ مِنْ إِكْرَامِهِ فَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام: إِذَا قَربَ

789 آل عمران 52.

مَجِيءُ الْمَلِكِ فَامْلأْ قُدُورَكَ وَخَوَابِيَكَ مَاءً ثُمَّ أَعْلِمْنِي، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَوَّلَ مَا فِي الْقُدُورِ طَبِيخًا، وَمَا فِي الْخَوَابِي خَمْرًا، فَلَمَّا جَاءَهُ الْمَلِكُ أَكَلَ وَشَرِبَ وَسَأَلَهُ مِنْ أَيْنَ هَذَا الْخَمْرُ؟ فَتَعَلَّلَ الرَّجُلُ فِي الْجَوَابِ فَلَمْ يَزَلِ الْمَلِكُ يُطَالِبُهُ بِذَلِكَ حَتَّى أَخْبَرَهُ بِالْوَاقِعَةِ فَقَالَ: إِنَّ مَنْ دَعَا اللَّهَ حَتَّى جَعَلَ الْمَاءَ خَمْرًا إِذَا دَعَا أَنْ يُحْيِيَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدِي لابدّ وَأَنْ يُجَابَ، وَكَانَ ابْنُهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، فَدَعَا عِيسَى عَلَيْهِ السّلام وَطَلَبَ منه ذلك، فقال عيسى: لا نفعل، فَإِنَّهُ إِنْ عَاشَ كَانَ شَرًّا، فَقَالَ: مَا أُبَالِي مَا كَانَ إِذَا رَأَيْتُهُ، وَإِنْ أَحْيَيْتَهُ تَرَكْتُكَ عَلَى مَا تَفْعَلُ، فَدَعَا اللَّهَ عِيسَى، فَعَاشَ الْغُلَامُ، فَلَمَّا رَآهُ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ قَدْ عَاشَ تَبَادَرُوا بِالسِّلَاحِ وَاقْتَتَلُوا، وَصَارَ أَمْرُ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام مَشْهُورًا فِي الْخَلْقِ، وَقَصَدَ الْيَهُودُ قَتْلَهُ، وَأَظْهَرُوا الطَّعْنَ فِيهِ وَالْكُفْرَ بِهِ"[790].

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا عَارِفِينَ بِأَنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ، وَأَنَّهُ يَنْسَخُ دِينَهُمْ، فَكَانُوا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ طَاعِنِينَ فِيهِ، طَالِبِينَ قَتْلَهُ، فَلَمَّا أَظْهَرَ الدَّعْوَةَ اشْتَدَّ غَضَبُهُمْ، وَأَخَذُوا فِي إِيذَائِهِ وَإِيحَاشِهِ وَطَلَبُوا قَتْلَهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام ظَنَّ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ لَا يؤمنون به وأنّ دعوته لا تنجح فِيهِمْ فَأَحَبَّ أَنْ يَمْتَحِنَهُمْ لِيَتَحقّقَ مَا ظَنَّهُ بِهِمْ فَقَالَ لَهُمْ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ فَمَا أَجَابَهُ إِلَّا الْحَوَارِيُّونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَحَسَّ بِأَنَّ مَنْ سِوَى الْحَوَارِيِّينَ كَافِرُونَ مُصِرُّونَ عَلَى إِنْكَارِ دِينِهِ وَطَلَبِ قَتْلِهِ[791].

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ فَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

---

[790] تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 8، ص 231.

[791] المصدر السابق، ص 231.

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ الْأَوَّلُ: أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام لَمَّا دَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدِّينِ، وَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ فَرَّ مِنْهُمْ وَأَخَذَ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ فَمَرَّ بِجَمَاعَةٍ مِنْ صَيَّادِي السَّمَكِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَمْعُونُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ابْنَا زَبْدِي وَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْحَوَارِيِّينَ الِاثْنَيْ عَشَرَ فَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام: الْآنَ تَصِيدُ السَّمَكَ، فَإِنْ تَبِعْتَنِي صِرْتَ بِحَيْثُ تَصِيدُ النّاس لِحَيَاةِ الابدّ، فَطَلَبُوا مِنْهُ الْمُعْجِزَةَ، وَكَانَ شَمْعُونُ قَدْ رَمَى شَبَكَتَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَاءِ فَمَا اصْطَادَ شَيْئًا فَأَمَرَهُ عِيسَى بِإِلْقَاءِ شَبَكَتِهِ فِي الْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، فَاجْتَمَعَ فِي تِلْكَ الشَّبَكَةِ مِنَ السَّمَكِ مَا كَادَتْ تَتَمَزَّقُ مِنْهُ، وَاسْتَعَانُوا بأهل سفينة أخرى، وملئوا السَّفِينَتَيْنِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ آمَنُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السّلام.

قتل الشبيه ورفع عيسى:

في هذا الشأن لا قولا قاطعا سوى كلام الله الذي قال: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}792

جاء في تفسير الرازي: "أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا طَلَبُوهُ لِلْقَتْلِ وَكَانَ هُوَ فِي الْهَرَبِ عَنْهُمْ قَالَ لِأُولَئِكَ الِاثْنَيْ عَشَرَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ:

أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الجنّة عَلَى أَنْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلَ مَكَانِي؟

فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُهُمْ وَفِيمَا تَذْكُرُهُ النَّصَارَى فِي إِنْجِيلِهِمْ: أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا أَخَذُوا عِيسَى سَلَّ شَمْعُونُ سَيْفَهُ فَضَربَ بِهِ عَبْدًا كَانَ فِيهِمْ

[792] النساء 157، 158.

لِرَجُلٍ مِنَ الْأَحْبَارِ عَظِيمٍ فَرَمَى بِأُذُنِهِ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: حَسْبُكَ ثُمَّ أَخَذَ أُذُنَ الْعَبْدِ فَرَدَّهَا إِلَى مَوْضِعِهَا، فَصَارَتْ كَمَا كَانَتْ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ طَلَبِ النُّصْرَةِ إِقْدَامُهُمْ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عنه793.

وكذلك يقول الرّازي: "الْيَهُودُ كَانُوا كَافِرِينَ بِعِيسَى أَعْدَاءً لَهُ عَامِدِينَ لِقَتْلِهِ يُسَمُّونَهُ السَّاحِرَ ابْنَ السَّاحِرَةِ وَالْفَاعِلَ ابْنَ الْفَاعِلَةِ، فَكَيْفَ قَالُوا: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ؟

وَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ قَالُوهُ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ كَقَوْلِ فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}794 وَكَقَوْلِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}795.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَضَعَ اللَّه الذِّكْرَ الْحَسَنَ مَكَانَ ذِكْرِهِمُ الْقَبِيحَ فِي الْحِكَايَةِ عَنْهُمْ رَفْعًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السّلام عَمَّا كَانُوا يَذْكُرُونَهُ بِهِ.

زعم الْيَهُودِ أَنَّهُمْ قد قَتَلُوا عِيسَى عَلَيْهِ السّلام؛ فكَذَّبَهُمْ الله (وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ).

يقول الرّازي: فِي الْآيَةِ سُؤَالَانِ:

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ شُبِّهَ مُسْنَدٌ إِلَى مَاذَا؟ إِنْ جَعَلْتَهُ مُسْنَدًا إِلَى الْمَسِيحِ فَهُوَ مُشَبَّهٌ بِهِ وَلَيْسَ بِمُشَبَّهٍ، وَإِنْ أَسْنَدْتَهُ إِلَى الْمَقْتُولِ فَالْمَقْتُولُ لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ.

وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

---

793 تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 11، ص 260.

794 الشعراء 27.

795 الحجر 6.

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ مُسْنَدٌ إِلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، وَهُوَ كَقَوْلِكَ: خُيِّلَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَكِنْ وَقَعَ لَهُمُ الشَّبَهُ.

الثَّانِي: أَنْ يُسْنَدَ إِلَى ضَمِيرِ الْمَقْتُولِ لِأَنَّ قَوْلَهُ وَما قَتَلُوهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَقَعَ الْقَتْلُ عَلَى غَيْرِهِ فَصَارَ ذَلِكَ الْغَيْرُ مَذْكُورًا بِهَذَا الطَّرِيقِ، فَحَسُنَ إِسْنَادُ شُبِّهَ إِلَيْهِ.

السُّؤَالُ الثَّانِي: أَنَّهُ إِنْ جَازَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّه تَعَالَى يُلْقِي شَبَهَ إِنْسَانٍ عَلَى إِنْسَانٍ آخَرَ؛ فَهَذَا يَفْتَحُ بَابَ السَّفْسَطَةِ، فَإِنَّا إِذَا رَأَيْنَا زَيْدًا فَلَعَلَّهُ لَيْسَ بِزَيْدٍ، وَلَكِنَّهُ أُلْقِيَ شَبَهُ زَيْدٍ عَلَيْهِ، وَعِنْدَ ذلك لا يبقى النكاح والطلاق والملك، وثوقا بِهِ، وَأَيْضًا يُفْضِي إِلَى الْقَدْحِ فِي التَّوَاتُرِ لِأَنَّ خَبَرَ التَّوَاتُرِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْعِلْمَ بِشَرْطِ انْتِهَائِهِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى الْمَحْسُوسِ، فَإِذَا جَوَّزْنَا حُصُولَ مِثْلِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ تَوَجَّهَ الطَّعْنُ فِي التَّوَاتُرِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْقَدْحَ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ، وَلَيْسَ لِمُجِيبٍ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّ ذَلِكَ مُخْتَصٌّ بِزَمَانِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ والصّلاة وَالسّلام، لِأَنَّا نَقُولُ: لَوْ صَحَّ مَا ذَكَرْتُمْ فَذَاكَ إِنَّمَا يُعْرَفُ بِالدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ الدَّلِيلَ وَذَلِكَ الْبُرْهَانَ وَجَبَ أَنْ لَا يَقْطَعَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَوَجَبَ أَنْ لَا يَعْتَمِدَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَأَيْضًا فَفِي زَمَانِنَا إِنِ انْسَدَّتِ الْمُعْجِزَاتُ فَطَرِيقُ الْكَرَامَاتِ مَفْتُوحٌ، وَحِينَئِذٍ يَعُودُ الِاحْتِمَالُ الْمَذْكُورُ فِي جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ: وَبِالْجُمْلَةِ فَفَتْحُ هَذَا الْبَابِ يُوجِبُ الطَّعْنَ فِي التَّوَاتُرِ، وَالطَّعْنُ فِيهِ يُوجِبُ الطَّعْنَ فِي نُبُوَّةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ والصّلاة وَالسّلام، فَهَذَا فَرْعٌ يُوجِبُ الطَّعْنَ فِي الْأُصُولِ فَكَانَ مَرْدُودًا[796].

وَالْجَوَابُ: اخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَذَكَرُوا وُجُوهًا:

---

[796] المصدر السابق، ص 262.

الْأَوَّلُ: قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ: إِنَّ الْيَهُودَ لَمَّا قَصَدُوا قَتْلَهُ رَفَعَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ فَخَافَ رُؤَسَاءُ الْيَهُودِ مِنْ وُقُوعِ الْفِتْنَةِ مِنْ عَوَامِّهِمْ، فَأَخَذُوا إِنْسَانًا وَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ وَلَبَّسُوا عَلَى النّاس أَنَّهُ الْمَسِيحُ، وَالنّاس مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ الْمَسِيحَ إِلَّا بِالِاسْمِ لِأَنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الْمُخَالَطَةِ لِلنَّاسِ، وَبِهَذَا الطَّرِيقِ زَالَ السُّؤَالُ. لَا يُقَالُ: إِنَّ يَنْقُلُونَ عَنْ أَسْلَافِهِمْ أَنَّهُمْ شَاهَدُوهُ مَقْتُولًا، لِأَنَّا نَقُولُ: إِنَّ تَوَاتُرَ النَّصَارَى يَنْتَهِي إِلَى أَقْوَامٍ قَلِيلِينَ لَا يَبْعُدُ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى الْكَذِبِ.

وَالطَّرِيقُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى شَبَهَهُ عَلَى إِنْسَانٍ آخَرَ ثُمَّ فِيهِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ حَاضِرٌ فِي الْبَيْتِ الْفُلَانِيِّ مَعَ أَصْحَابِهِ أَمَرَ يَهُوذَا رَأْسُ الْيَهُودِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ طَيْطَايُوسُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السّلام وَيُخْرِجَهُ لِيَقْتُلَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَخْرَجَ اللَّه عِيسَى عَلَيْهِ السّلام مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ وَأَلْقَى عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ شَبَهَ عِيسَى فَظَنُّوهُ هُوَ فَصَلَبُوهُ وَقَتَلُوهُ.

الثَّانِي: وَكَّلُوا بِعِيسَى رَجُلًا يَحْرُسُهُ وَصَعِدَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام فِي الْجَبَلِ وَرُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى اللَّه شَبَهَهُ عَلَى ذَلِكَ الرَّقِيبِ فَقَتَلُوهُ وَهُوَ يَقُولُ لَسْتُ بِعِيسَى.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا هَمُّوا بِأَخْذِهِ وَكَانَ مَعَ عِيسَى عَشَرَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ يَشْتَرِي الجنّة بِأَنْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي؟ فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنَا، فَأَلْقَى اللَّه شَبَهَ عِيسَى عَلَيْهِ فَأُخْرِجَ وَقُتِلَ، وَرَفَعَ اللَّه عِيسَى عَلَيْهِ السّلام. الرَّابِعُ: كَانَ رَجُلٌ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام، وَكَانَ مُنَافِقًا فَذَهَبَ إِلَى الْيَهُودِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ مَعَ الْيَهُودِ لِأَخْذِهِ أَلْقَى اللَّه تَعَالَى شَبَهَهُ عَلَيْهِ فَقُتِلَ وَصُلِبَ. وَهَذِهِ الْوُجُوهُ مُتَعَارِضَةٌ مُتَدَافِعَةٌ واللَّه أَعْلَمُ بِحَقَّائِقِ الْأُمُورِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}797 وَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: اعْلَمْ أَنَّ فِي قَوْلِهِ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ قَوْلَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ هُمُ النَّصَارَى وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ بِأَسْرِهِمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ، إِلَّا أَنَّ كِبَارَ فِرَقِ النَّصَارَى ثَلَاثَةٌ: النُّسْطُورِيَّةُ، وَالْمَلْكَانِيَّةُ، وَالْيَعْقُوبِيَّةُ.

أَمَّا النُّسْطُورِيَّةُ فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمَسِيحَ صُلِبَ مِنْ جِهَةِ نَاسُوتِهِ لَا من جهة لا هوته، وَأَكْثَرُ الْحُكَمَاءِ يَرَوْنَ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالُوا: لِأَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ عِبَارَةً عَنْ هَذَا الْهَيْكَلِ بَلْ هُوَ إِمَّا جسم شريف مناسب فِي هَذَا الْبَدَنِ، وَإِمَّا جَوْهَرٌ رُوحَانِيٌّ مُجَرَّدٌ فِي ذَاتِهِ وَهُوَ مُدَبِّرٌ فِي هَذَا الْبَدَنِ، فَالْقَتْلُ إِنَّمَا وَرَدَ عَلَى هَذَا الْهَيْكَلِ، وَأَمَّا النَّفْسُ الَّتِي هِيَ فِي الحقّيقة عِيسَى عَلَيْهِ السّلام فَالْقَتْلُ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، لَا يُقَالُ: فَكُلُّ إِنْسَانٍ كَذَلِكَ فَمَا الْوَجْهُ لِهَذَا التَّخْصِيصِ؟ لِأَنَّا نَقُولُ: إِنَّ نَفْسَهُ كَانَتْ قُدُسِيَّةً عُلْوِيَّةً سَمَاوِيَّةً شَدِيدَةَ الْإِشْرَاقِ بِالْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ عَظِيمَةَ الْقُرْبِ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ، وَالنَّفْسُ مَتَى كَانَتْ كَذَلِكَ لَمْ يَعْظُمْ تَأَلُّمُهَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ وَتَخْرِيبِ الْبَدَنِ، ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدَ الِانْفِصَالِ عَنْ ظُلْمَةِ الْبَدَنِ تتخلّص إلى فسحة السّموات وَأَنْوَارِ عَالَمِ الْجَلَالِ فَيَعْظُمُ بَهْجَتُهَا وَسَعَادَتُهَا هُنَاكَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ غَيْرُ حَاصِلَةٍ لِكُلِّ النّاس، بَلْ هِيَ غَيْرُ حَاصِلَةٍ مِنْ مَبْدَأِ خِلْقَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السّلام إِلَى قِيَامِ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِأَشْخَاصٍ قَلِيلِينَ، فَهَذَا هُوَ الْفَائِدَةُ فِي تَخْصِيصِ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام بِهَذِهِ الْحَالَةِ.

---

[797] النساء 157، 158.

وَأَمَّا الْمَلْكَانِيَّةُ فَقَالُوا: الْقَتْلُ وَالصَّلْبُ وَصَلَا إِلَى اللَّاهُوتِ بِالْإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ لَا بِالْمُبَاشَرَةِ.

وَقَالَتِ الْيَعْقُوبِيَّةُ: الْقَتْلُ وَالصَّلْبُ وَقَعَا بِالْمَسِيحِ الَّذِي هُوَ جَوْهَرٌ مُتَوَلِّدٌ مِنْ جَوْهَرَيْنِ، فَهَذَا هُوَ شَرْحُ مَذَاهِبِ النَّصَارَى فِي هَذَا الْبَابِ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ[798].

القول الثَّانِي: إِنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينِ اخْتَلَفُوا هُمُ الْيَهُودُ، وَفِيهِ وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ لَمَّا قَتَلُوا الشَّخْصَ الْمُشَبَّهَ بِهِ كَانَ الشَّبَهُ قَدْ أُلْقِيَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يُلْقَ عَلَيْهِ شَبَهُ جَسَدِ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام، فَلَمَّا قَتَلُوهُ وَنظَرُوا إِلَى بَدَنِهِ قَالُوا:

الْوَجْهُ وَجْهُ عِيسَى وَالْجَسَدُ جَسَدُ غَيْرِهِ.

الثَّانِي: قَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّ الْيَهُودَ حَبَسُوا عِيسَى مع عشرة مِنْ الْحَوَارِيِّينَ فِي بَيْتٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِيُخْرِجَهُ وَيَقْتُلَهُ، فَأَلْقَى اللَّه شَبَهَ عِيسَى عَلَيْهِ وَرُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَخَذُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ وَقَتَلُوهُ عَلَى أَنَّهُ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام، ثُمَّ قَالُوا: إِنْ كَانَ هَذَا عِيسَى فَأَيْنَ صَاحِبُنَا، وَإِنْ كَانَ صَاحِبَنَا فَأَيْنَ عِيسَى؟ فَذَلِكَ اخْتِلَافُهُمْ فِيهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: احْتَجَّ نُفَاةُ الْقِيَاسِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَقَالُوا: الْعَمَلُ بِالْقِيَاسِ اتِّبَاعٌ لِلظَّنِّ، وَاتِّبَاعُ الظَّنِّ مَذْمُومٌ فِي كِتَابِ اللَّه بِدَلِيلِ أَنَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَهُ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى وصف اليهود والنصارى هاهنا فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ بِهَذَا فَقَالَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي مَذَمَّةِ الْكُفَّارِ {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا

---

[798] المصدر السابق ص 263، 264.

يَخْرُصُونَ}799، وقال في آية أخرى {وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحقّ شَيْئا}800 وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ مَذْمُومٌ.

وَالْجَوَابُ: لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْقِيَاسِ اتباع الظن، فَإِنَّ الدَّلِيلَ الْقَاطِعَ لَمَّا دَلَّ عَلَى الْعَمَلِ بِالْقِيَاسِ كَانَ الْحُكْمُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الْقِيَاسِ مَعْلُومًا لَا مَظْنُونًا، وَهَذَا الْكَلَامُ لَهُ غَوْرٌ وَفِيهِ بحث"801.

تفرّق الملل:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ ذَكَرَ الْحَدِيثَ الذي حدّث عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: "حَدَّثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم عَنِ الْأُمَمِ قائلا: "تَفَرَّقَتْ أُمَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السّلام عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ مِلَّةً سَبْعُونَ مِنْهَا فِي النّار، وَوَاحِدَةٌ فِي الجنّة، وَتَفَرَّقَتْ أُمَّةُ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، إِحْدَى وَسَبْعُونَ مِنْهَا فِي النّار، وَوَاحِدَةٌ فِي الجنّة، وَتَعْلُو أُمَّتِي عَلَى الْفِرْقَتَيْنِ جَمِيعًا بِمِلَّةٍ، اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِي النّار، وَوَاحِدَةٌ فِي الجنّة، قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: الْجَمَاعَةُ"802.

قَالَ يَعْقُوبُ بْنُ زَيْدٍ: وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ إِذَا حَدَّث هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم تَلَا مَعَهُ قُرْآنًا {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يُهْدُونَ بِالحقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}803، ثُمَّ ذَكَرَ أُمَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام فَقَالَ: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءامنوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا

799 الأنعام 116.

800 يونس 36.

801 المصدر السابق 266.

802 المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 12، ص 498.

803 الأعراف 159.

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}804، ثُمَّ ذَكَرَ أُمَّتَنَا فَقَالَ: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالحقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}805.

الرّافع رفع عيسى:

قال تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}806

الرّافع "هو الذي يرفع من استحقّ الرّفع من رسله وأوليائه، يرفع منزلتهم في الدنيا بإعزاز كلمته ويرفعهم في الآخرة بارتفاع درجتهم"807. وهو الذي رفع عيسى على الخصوص حافظا ومنزّلا له حينما يأتي الموعد الذي لا يعلمه إلّا هو جلّ جلاله.

ولذا؛ فالرّافع هو الذي بيده القوّة الممكّنة من تحقّيق الرّفعة وإحداث النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد. والرّافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال على الله تعالى مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}808.

وفي لسان العربّ المحيط: الرّافع هو "الذي يرفع المؤمن بالإسعاد وأولياءه بالتقريب، والرفع ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض في كل شيء"809.

---

[804] المائدة 65.

[805] الأعراف 181.

[806] النساء 158.

[807] تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 41.

[808] الأنعام، 165.

[809] لسان العربّ، ج 1، ص 1197.

ولو عُدنا للآية السابقة (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إنَّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم) لعرفنا أنَّ الرّافع جلّ جلاله هو الذي جعل الخلائف تتوالى من ولادة سابقة إلى موت يلاحقّها، ومن ولادة جديدة إلى موت متجدد، حتى النهاية بالولادة التي لا يلاحقّها الموت أبدا (البعث).

وبما أنّ الله جعلنا خلائف الأرض، إذن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. وبما أنّ الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. إذن الرزق في الأرض والعيش عليها لن ينتهي مادام الموت لم يمت بعد. والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة، وحينها تصبح الأرض مطوية مثل طي السماوات.

والخلائف: جمع خليفة، وهم الذين يأتون من بعد سابق عليهم من بني جنسهم، وهم من ترتبط صفات اللحوق بهم، ممّا يجعل الموت يلاحقّ كل ولادة ويجعل الاتصال لا ينقطع بالرغم ممّا يفعله الموت، ولذلك فلله في خلقه شؤون.

وقوله: (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي مع أنّه خلقكم في أحسن تقويم، إلا أن مصائركم على الأرض تعتمد على ما تقدمه أيديكم من عملٍ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوى مع من يُفسد فيها. ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب، فالذين استجابوا لربّهم الذي جعلهم خلائف الأرض، سينالون جزاءهم حسنات، والذين لم يستجيبوا لربّهم الذي يُرِيدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[810]. ولذلك فالعلو في الدرجات

[810] الأنعام، 132.

الحسان رفعة مقام، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرّفعة الحسنة. فرفع الله بعض من الخلائف درجات ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب، أي بما تقدم الأيدي، ولذا فأسباب تحقّيق الرّفعة لم تكن محجوبة عن العباد، أو مقصورة على فئة منهم، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحا يرضاه الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرهُ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرهُ وما ربّك بظلام للعبيد. ولهذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحا، ويعمل على إصلاحها بإصلاحه لِما يفسده المفسدون فيها.

الرّافع: هو الممكِّن من إحداث النقلة، من مستويات دنيا إلى مستويات عُليا، والرّافع هو الذي لا يَرفَع إلا بعد تقديرٍ لِما يُرفع، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف بالرفع قبل أن يَقدِمَ على رفعه. ولكن لأن الرّافع في هذه الآية الكريمة هو الله عزّ وجلّ، لذا فهو الرّافع بقوّة علمه لعلم الغيب.

ولأنّ وراء فعل الرفع هدف وغاية، لذا أظهر الله الهدف من الرفع وهو (ليبلوكم في ما آتاكم) وهذه الآية تعني ليمتحنكم فيما رزقكم به وما أعطاكم من نعم، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك من مُلك من مُلكه تعالى في طاعته وإجلاله، يتفوق في ما يُبتلى به من امتحانٍ، ويفوز بالجنّة، ومن لم يطع الله ويشرك به أو يفسد في الأرض فيخسر المستوى الذي خلقه الله تعالى عليه وهو (أحسن التقويم) ويخفضه على كفة الميزان إلى أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلى العليين على الكفة المماثلة للميزان العدل.

ولذلك فإنّ الله سريع العقاب (إنَّ ربّك سريع العقاب) أي أنّه في الوقت الذي يَحدث فيه السلوك الانحرافي يُكتب في ذات الوقت الفعل العقابي المناسب للفعل الانحرافي، الذي لا يُمحى إلا بالاستغفار والتوبة

والرحمة من الله تعالى. ولذلك، مع أنّ ما يَقدِم عليه الإنسان ويراه سريعا من أفعال خارجة عن الطاعة التامة لله تعالى، إلا أن الله خالق العباد والأعمال يرى الأعمال والأفعال قبل حدوثها وحدوث السرعة التي يرى بها المخلوق ما يرى، وفقا لقاعدة: (يعلم ما لا نعلم) مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحقّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}811، وقوله جلّ جلاله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}812. ولهذا فالله سريع العقاب لمن عصاه فيما أمر، وهو سريع في إحداث المغفرة مصداقا لقوله تعالى: (وإنّه لغفور رحيم)، فالله القادر بكل سرعة على رفع الأعمال بالحسنات، قادر بالسرعة ذاتها على إحداث المغفرة والرحمة لمن يتعظ ويهتدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذا فإن الرحمة فعل استجابة للطاعة، فمن أطاع الله فقد فاز بالرحمة فوزا عظيما، ومن عصَ الله فقد خسر بخسران الرحمة خسرانا كثيرا، وما ربّك بظلامٍ للعبيد.

وبما أنّ الله هو الرّافع الذي قال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}813. بما أنّه كذلك، إذن الخليفة هو من يستمد صفة الرفع من صفات الرّافع المطلق جلّ جلاله، حتى يتمكن من الإسهام في إحداث النقلة لمن يستوجب رفعهم إلى درجات التفضيل والتمييز الحقّ.

---

811 الأنعام 73.

812 النعام، 59.

813 البقرة، 30.

فبالرفع يتحسَّن المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والذوقي والثقافي للأفراد والجماعات والمجتمعات، وبه أيضا يتأهلون إلى تأدية الوظائف والمهام المفضلة إنسانيا، ويلعبون أدوارهم بما يفيد وينفع ويُقدَّر من قبل الآخرين في مرضاة الله عزّ وجلّ، وبالرفع أيضا يتم حمْل المسؤوليات الشخصية والمسؤوليات المشتركة مع الآخرين سواء كانوا أزواجا أم أباء أم رفاق دراسة وعمل أم مواطنين من أبناء البلد.

وعليه فمن صفات الخليفة التي ينبغي بها أن يُصلح في الأرض هي: الرفع الذي به يتمكن من بلوغ الدرجات العلا، أي أنه كلما أسهم في رفع مستوى الأفراد إلى ما فيه خير، ارتفع مستواه عند الله في العليين مع الذين ورثوا الأرض واستخلفوا فيها، وورثوا الجنّة بما عملوا.

ولذا عليكم يا بني آدم أن ترفعوا من مستويات إخوانكم المسلمين حتى يبلغوا درجات الإيمان، ويكونوا متعاضدين معكم على الرفع بأفعال الخير، وعلى الأبناء الخلفاء أن يخفضوا لآبائهم أجنحة الذل من الرحمة ليزدادوا رفعة على المقامات العظام، وعلى أحفادهم من بعدهم أن يتعظوا بما يعمل المصلحون في الأرض ليكونوا على الطاعة والشهادة من العاملين عليها. وليتقوا الله ربّهم فيما يعملون ويؤدون من مهام وأعمال إنسانية، وفيما يحرثون ويزرعون ويحصدون، وما يرعون، ويكيلون ويَزِنُونَ، وفيما يشهدون عليه بالحقّ دون زيادة ولا نقصان.

الرفع علو من مستوى أقل إلى مستوى أعلى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[814].

[814] البقرة، 127.

القواعد ثوابت لإرساء ما هو قائم، والرفع علو من أسفل إلى أعلى، وقواعد البيت الحرام لم يعرف بالتحديد من وضعها، ولكن الذي يُعرف هو رافعها (إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما والصّلاة والسّلام) اللذين عَمِلا على رفعها من الأرض إلى ما هو قائم عليه، ممّا يجعل القواعد الثابتة في الأرض مؤسسة على حمْل ما يُرفع عليها.

والروايات تتحدث عن توقعات لواضعي القواعد، فهناك من يرى أن الملائكة هي الواضعة لها، وهناك من يرى أن آدم هو الذي هبط بها من الجنّة، وهناك من يقول بأن القواعد مؤسسة يوم أن خلقت الأرض، وهناك من يقول بأنّ علاقة قوية بين المكان الذي هبط عليه آدم وقواعد البيت الحرام. إلا أنَّ هذه الروايات والأقوال وإن وجدت في الكتب أمهات وفروع، فهي في حقّيقة الأمر لم تمتلك الدليل القاطع والحجّة اليقينية فيما كُتب فيها، ولكن الشيء الوحيد المتفق عليه هو أنَّ أسرارا كثيرة لا يعلمها إلا هو جلّ جلاله خلف هذه القواعد التي تم رفعها من قِبل إبراهيم وإسماعيل عليهما والصّلاة والسّلام[815].

ومن وجهة نظرنا وفقا للقاعدة التي تقول: (وراء كلّ مخلوق خالق) فإنّ الأرض وما فيها ومن عليها من ورائها خالق واحد أحد لا شريك له في الملك بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وبما أن البيت هو بيت الله الحرام، إذن هو المكان الذي لا يأتيه طائف ولا راكع ولا ساجد ولا عاكف إلا مؤمنا بالله جلّ جلاله. ولذا فهو المكان المقدس للمسلمين من آدم وإبراهيم إلى محمّد ومن تبع رسالة محمّد بالهداية والإيمان.

[815] تفسير القرطبي، ج 2، ص 120 . 124.

ومع أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما والصّلاة والسّلام هما اللذان رفعا القواعد بناءً ماديا، إلا أن الغاية من رفع القواعد هي إظهار الإيمان بربّ واحد لا شريك له. وفي ذلك الإظهار ارتفاع عن الكفر والشرك بعبادة الله الواحد القهار. وبالطواف والركوع والسجود والاعتكاف في البيت الحرام يُكفِّر الإنسان عن ذنوبه ويمحو سيئاته، وفي هذه نقلة من مستويات الدنوِّ، إلى مستويات العلو والارتفاع.

ولذا يُعد البيت الحرام آية من الآيات الكرام، فكما يطوف الملائكة حول العرش يطوف الخليفة حول بيت الله الحرام إيمانا وتوحيدا واعترافا وتقربّا وتضرعا لله جلّ جلاله؛ وفي كلا الطوافين تماثل، ففي العالم غير المنظور لبني الإنسان تطوف الملائكة، وفي العالم المنظور الذي اختير فيه الإنسان خليفة في الأرض يكون هو الطائف المشاهد حول البيت المحَرَّم. ولذا فالطَّواف المشاهد هو المقصور على الخليفة، والطواف غير المشاهد لله تعالى فيه من المسلمين والمؤمنين الموحدين الذين هم لله طائعين ولا يشركون بالله شيئا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}816.

إذن الرِّفعة هي الغاية التي تكمن وراء الإيمان والطاعة التامة لله جلّ جلاله، ولذا فمن رغب عن ملة إبراهيم عليه والصّلاة والسّلام لن يبلغ عند الله رفعة، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}817.

ولأنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما والصّلاة والسّلام غايتهما بلوغ الرِّفعة، قالا: (ربّنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم) أي بعد أن أتما

816 الذاريات، 56.

817 النساء، 125.

عملية رفع القواعد من المستوى الأرضي إلى المستوى الارتفاعي، كان لهما الأمل في بلوغ الغاية وهي أن يتقبل الله عملهما حتى ينالا الثواب الذي به تتحقّق الرّفعة لهما في الحياة الخالدة.

قال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}818. المقصود بالبيوت هي بيوت الله (المساجد) التي يُراد لها أن تُرفع وتعلو ما حولها من العمران، ليرتفع في مآذنها الآذان نداء المصلين للصلاة. ليعلم المسلمون بأنّ الوقت قد حان للصلاة فيأتون مقبلين على ذكر اسم الله جلّ جلاله، وإقامة والصّلاة والتسبيح باسمه في المساجد التي فيها يُذكر ويُسبح باسمه تعالى، دون خوض في حديث آخر لا علاقة له بعبادة الله عزّ وجلّ، ولذلك فالمساجد للصلاة والتعبد ولذكر اسم الله تعالى، فهي لم تكن آماكن للترف وقول الزور، ولا أماكن للهو واللعب فهذه الأفعال وما يماثلها تُبعد وتلهي عن ذكر اسمه جلّ جلاله فلا تُذكر في المساجد التي فيها يُرفع اسم الله فوق كل مسمى.

قال تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}819. بطبيعة الحال بما أنَّ هناك درجات بين العباد، هناك تفاوت بينهم في كل ما من شأنه أن يجعل بعضهم مرتفع أو على حالة من الرّفعة والارتفاع، وبين من هم في أسفل ومن هم في أسفل السافلين. فقوله تعالى: (رفعنا بعضهم فوق بعض درجات) تعود على ذات الرّافع جلّ جلاله، الذي رفع البعض درجات عن البعض الآخر، من حيث المقدرة والنبوة والملك، فهناك المؤمن وهناك الكافر، وهناك الموحّد وهناك المشرك، وهناك الرئيس

[818] النور، 36.

[819] الزخرف، 32.

والمرؤوس، والحر والعبد، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، والفطن والغبي، والبائع والمشتري، والحاكم والمحكوم، والجميل والقبيح، والحكيم ومن لا حكمة له، والماهر ومن لا مهارة له، وهناك الخليفة وهناك من لم يتمكن من الاستخلاف فيها؛ وبين هذه وتلك ينتشر العباد على درجات السلم القيمي بين عليين وأسفل السافلين.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}820 هذه الآية الكريمة تبين الضعف الإيماني الذي يَلمّ بالإنسان حتى يسخر البعض من البعض الآخر من بني جنسه، وذلك حيث يسخر الغني من الفقير، دون أن يمدّ له يد العون التي تُحفِّزه على الخروج من أزمات فقره وما يلمُّ به من حاجة، ويسخر الحاكم من المحكوم فيزجّ بالبعض في السجون دون رحمة ولا شفقة، وكأنّهم ليسو من طينته، ويقلل المالك من شأن المملوك دون أن يسعى لفك قيده أو كسره حتى تعم الحرية من يريد لهم الله أن يكونوا خلائف في الأرض، ويسخر القوي من الضعيف دون أن يمدّ له يد العون التي تخرجه من وهنه. وفي مقابل ذلك يجد المسخور منه نفسه تسخر هي الأخرى من الساخر الذي لم يذكر فضل الله عليه ويتوب إليه وينتهي عن كلّ سخرية واستهزاء ببني جنسه الذين فضلهم الله على ما خلق ويطيع الله تعالى استجابة لما نهي الله عنه بقوله عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}821. ولذلك قال تعالى: (ورحمة ربّك خيرُ ممّا

[820] التوبة 79.

[821] الحجرات، 11.

يجمعون)، أي أنّ رحمة الله عزّ وجلّ هي خير ممّا يجمعونه في الحياة الدنيا التي هم فيها يسخرون من بعضهم بعضا، ولذا لو يتذكرون هذه الرحمة الواسعة ما سخر أحد من احدٍ، ولا ظن أحد منهم ظن السوء الذي يجعل صاحبه يسخر من الآخرين ويعتقد في نفسه أنه بما يملك هو خير منهم، وهو في حقّيقة أمره قد لا يكون كذلك.

وعليه فالخليفة هو من يُسهم بلسانه وأفعاله وأعماله إلى ما يؤدّي إلى تغيير أحواله وأحوال بني جنسه من الدرجات السفلية إلى الدرجات الرفيعة العلية التي تجعل النفس بالاتعاظ تقتدي وتسلك سبل الحقّ. ولذا عندما يكون الخليفة رافعا للظلم عن المظلومين، والكيد عن المكيدين، والحقّد والحسد عن المحقّودين والمحسودين، والاستغلال عن المستغَلين، والعبودية عن المستعبدين، عندما يكون الخليفة كذلك يكون بطبيعة الحال من المصلحين الذين يرثون الأرض ويستخلفون فيها ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء بغير حقّ، وهم الذين إذا ما أخطؤوا يستغفرون من كل خطيئة، ولذا فهم الذين لا يقترفون ذنبا ولا إثما وهم الذين يخافون الله ويتقونه فيما يقولون وما يفعلون ويعملون ويسلكون.

فالإنسان بطبيعته خيِّر، ولكن بأساليب التربيّة المتباينة تتباين حياته وتختلف ممّا يجعل البعض في حاجة لمن يُسهم في رفعهم من المستويات الدنيا إلى المستويات العليا، فالكافر على سبيل المثال هو في حاجة لمن يرتفع به من مستويات الكفر إلى مستويات الإيمان، وهذه رسالة على المؤمنين المستخلفين في الأرض، وليست رسالة على المفسدين فيها، والمشرك دائما هو في حاجة لمن يرتفع به من الشرك إلى الوحدانية الإلهية، والجاهل في حاجة لمن يرفعه من جهله إلى النور ويظهره عليه، والمريض في حاجة لمن يرفعه من مرضه وعلته إلى الصحة والشفاء، والمظلوم في حاجة لمن يرتفع به إلى العدل حتى يتمكن من

ممّارسة حقّوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة وحرية، وهكذا كل إنسان في حاجة لبلوغ درجات الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة، التي ببلوغها تتحقّق الرّفعة بالأبناء حتى يرثوا الأرض ويعملوا على إصلاحها ولا يُفسدوا فيها، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعملون صالحا يرضاه الله تعالى. ولذا فإن عمليات الإصلاح تكون أوّل ما تكون للأسرة وبها من أجل مستقبل يُرسِّخ القيم والفضائل الإنسانية الخيرة، ومن يرد أن يكون خليفة الله في الأرض فعليه أن يعمل كل ما من شأنه أن يحقّق الرّفعة والارتفاع بالمستوى القيمي الأخلاقي لبني الإنسان ذكورا وإناثا.

قال تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}822. بدأت سورة الانشراح بالاستفهام المتضمن للإجابة اليقين، (ألم نشرح لك صدرك!) أي أنَّ شرح صدر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يقينا لا شك فيه، وذلك بالدليل القاطع وهو وضع الوزر عنه، والوزر: العبء. وهو الذنب الذي كان فيه، ويقصد بذلك (الجاهلية) أي لقد حدثت الرّفعة للرسول صلّى الله عليه وسلّم من الجاهلية إلى النور (الإيمان)، وهذه نقلة سريعة لم تتم بالتعليم المدرسي والمنهجي المقولب بل تمت النقلة بالإعجاز، الكامن في الأمر (كن).

وشرح الصدر ليس الشرح المادي، بل هو الشرح المعرفي الذي به انتقل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى العلم بالأمر الذي كان يجهله ممّا جعل الله عزّ وجلّ يصف الرّسول بالنّبي الأمي، وذلك تبرئة له من أي قول وظن بأنّ الرّسالة من بنات أفكاره قال تعالى: {وَبِالحقّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحقّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس

---

[822] الشرح، 6.

عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا}823.

وعليه لا يتحقّق شرحُ الصدر إلا بما يحقّق الرّفعة القولية والعملية وهذه لا تتحقّق إلا بالآتي:

. أوّلا: الإيمان: قال تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}824. إنَّ إيمان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بما أُنزل إليه من ربّه مبنيا على إيمان الرّسول بربّه أولا. ثم ثانيا الإيمان بما أنزل إليه. أي أنّه لو لم يؤمن بالله ربّه ما آمن بما أنزل إليه منه جلّ جلاله. وبذلك لا يمكن أن يتم الإيمان بالله وبما أنزل على الرّسول إلا بعد شرحٍ للصدر ليستوعب النور الذي يمتلئ به بعد غفلة وجهالة عنه.

. ثانيا: العلم: قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}825. القراءة نور يدخل الصدر وينير العقل بالعلم والمعرفة الواسعة التي تهدي للحقّيقة وتنقل القراء من ميادين الجهل التي تضيق بالصدور إلى ميادين العلم الواسعة التي ترشد وتهدي للتي هي أحسن.

. ثالثا حُب الآخرين أقاربّ وأباعد: قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}826. وقال

---

823 الإسراء 105 . 108.

824 البقرة، 285.

825 العلق، 1 . 5.

826 الحجرات، 10.

تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}827. وقال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}828. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}829.

بناء على هذه المتغيرات الثلاثة سابقة الذكر شرح الله تعالى صدر نبي الكافة بالإسلام، وبها نقلهُ من الأمية التي لا تعرف الحقّيقة يقينا إلى النور الذي يهدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذلك لم يُعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أميا بعد أن مكّنهُ الله تعالى من القراءة بقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}830. إنّها أوّل سورة نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفقا لما روته عائشة رضي الله تعالى عنها831. ومعنى اقرأ باسم ربّك: أن تذكر اسم ربّك افتتاحا لما تقرأه من القرآن الكريم وذلك بقولك (بسم الله الرّحمن الرّحيم) إنّها المفتاح لدخول آيات الله الكريمة باسمه الكريم.

ولأن محمّدا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يَعد أميّا، جاءه أمر القراءة لازما مع الضرورة وذلك بتكرار أمر القراءة لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: (اقرأ وربّك الأكرم) وفي هذه الآية تأكيد ودليل

---

827 الإنسان، 8، 9.

828 آل عمران، 103.

829 الفرقان 56.

830 العلق، 1 . 5.

831 تفسير القرطبي، ج 20، ص 118.

لعدم القنوط ممّا جعل القراءة بعد ذلك التأكيد متيسرة وممكنة، فقرأ عليه والصّلاة والسّلام ما أمره الله بقراءته ومكرمته حتى أصبح قادرا على قراءة القرآن بكامله وفقا لنزوله وحيا يوحى، ولهذا فالوحي الذي يوحى أصبح مُعلَنا ومعروفا بقبوله للامتداد العلمي والمعرفي في العقول والقلوب التي لا تطمئن إلا به، فآمن من آمن حتى وُصِفَ المِسَلِّمَون بأمره بالمؤمنين.

والأكرم: هو صاحب الفضل في جعل محمّد الأمي الذي لم يسبق له أن عرف القراءة والكتابة، أصبح قادرا على القراءة لِما يُقرأ عليه من وحي موحى مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}832. في هذه الآية الكريمة قال تعالى: (علمه شديد القوى) وهذا يعني أن محمّدا صلوات الله وسلامه عليه أصبح متعلما بالعلم الذي علمه له الله جلّ جلاله، ولم يعد أميا كما سبق وإن كان قبل الرّسالة التي أوحى بها الله تعالى لرسوله الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

وعلَّم بالقلم: تدلّ على أن التعلم الذي تلقاه محمّد صلّى الله عليه وسلّم لم يكن شفاهة فقط، بل هو المحفوظ في اللوح المحفوظ قراءة وكتابة، وبهذا الدليل أصبح القرآن يُعلَّم قراءة وكتابة وهو بين أيدي العباد الذين يُراد لهم أن يكونوا المستخلفين في الأرض بإعمارها وإصلاحها وعدم سفك الدماء فيها بغير حقّ مع عدم الإفساد الذي لا يرتضيه الله.

والذي علَّمه الله لرسوله الكريم وتعلَّمه العباد من بعده، هو العلم الذي لم يسبق له، ولا لهم، بأن عرفوه، ممّا جعل الله يصفه ويصفهم

---

[832] النجم، 4، 5.

بالأميين، ولذا كان الرّسول وقومه أميين لا يعلمون شيئا منه مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}833. ولذا جاء قوله تعالى: (علَّم الإنسان ما لم يعلم). الإنسان: جاءت مطلقة، ويقول البعض من المفسرين: إنَّ الأمر يتعلق بآدم الإنسان الذي علمه الله تعالى كل الأسرار التي لم يَعلَمُها الملائكة ولا الجن حتى أنبأهم آدم بها، ويقول البعض: الأمر يتعلق بمجمّد عليه والصّلاة والسّلام الذي علمه الله ما لم يكن يعلم من قبل834. ولهذا فمجمّد عليه والصّلاة والسّلام قبل الرّسالة كان أمِّيا ومن بعدها أصبح قارئا حيث علمه شديد القوى ما لم يعلم. وقال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}835. وقرآنا فرقناه، تعني قرآنا مفصلا يبين الحقّ من الباطل ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وبيَّنها وفصَّلها تفصيلا، وهذا التفصيل والتبيان يتطلب منك يا مجمّد أن تقرأه بروية ومهل وتؤدة، حتى يتمكن العباد من معرفته ومعرفة الحقّ من الباطل ليتمكنوا من بعده من التمسك بالحقّ والثبات عليه، والابتعاد عن الباطل والنهي عنه.

وجاء في الآية قوله: (لتقرأه على النّاس) تأكيدا على أن مجمّدا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد الوحي أصبح قادرا على القراءة، ولهذا أمره الله أن يقرأه على النّاس بروية دون استعجال، وذلك ليتمكن المسلمين من الفهم والإدراك والتدبر فيما يُقرأ عليهم من آيات الذكر الحكيم.

833 الجمعة، 2.

834 تفسير القرطبي، ج 20، ص 118 . 119.

835 الإسراء، 105.

قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}836. تؤكد هذه الآية الكريمة على أن محمّد كان أميا قبل نزول القرآن عليه وحيا موحى، ولهذا جاء قوله تعالى: (وما كنت تتلوا من قبله) وهذه دليل إثبات على أن محمّدا صلّى الله عليه وسلّم أصبح يتلو القرآن بعد نزوله عليه وحيا موحى، أمّا من قبله فلم يكن قارئا ولا كاتبا ولو كان كذلك لارتاب المبطلون. ومع أنّ رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم لم يكن قارئا ولا كاتبا إلا أنه بنزول الوحي عليه أصبح عالما بأمور الأنبياء والرّسُل الذين سبقوه من آدم إلى عيسى عليهم جميعا والصّلاة والسّلام، وأصبح أيضا عالما بقصصهم وأممهم وشعوبهم ومعجزاتهم، ولذا فمن يؤمن بمحمّد لا يفرق بين أحدٍ من رسله الذين قالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير، وذلك لأن محمّدا عليه والصّلاة والسّلام هو خاتم الأنبياء والرّسُل وهو للإنس والجن كافة.

وعليه فبعد الرّسالة لم يعد محمّد عليه والصّلاة والسّلام أميا، وإلا هل يَقبل العَقل بأن يكون محمّد أميا ويوصف بها، والذين تعلموا منه الوحي ومن بعده يوصفون بالعلماء والفقهاء والمشايخ والمتبحرين في علوم الدين؟ ولذا لم يكن ولن يكون أحد من بعده عالما بأمور الدين أكثر منه بالمطلق. وعليه أتساءل: هل الذي يُعلّمَهُ الله الكتاب والحكمة أيها المسلمون هو الأعلم بأمور الدين، أم من يُعلّمه البشر هو الأعلم؟

بالتأكيد لا مجال للمقارنة والحقّ دامغ للباطل وله زاهق. قال تعالى: {وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}837. وعلّمك

[836] العنكبوت، 48.

[837] النساء، 113.

ما لم تكن تعلم، هذه آية تُثبت أن محمّدا قد علمه الله ما لم يكن يعلم، أي لقد كان عليه والصّلاة والسّلام أميا، ثم أصبح بعلم الله له عالما بما علمه به تعالى.

وبما أنَّ الأمي هو من يجهل الحقّيقة ولا يعلم بأمرها، إذن فمحمّد عليه والصّلاة والسّلام ليس بأمِّي، وذلك لعلمه بالحقّيقة وأمرها. والحقّيقة هي: أن الله واحد أحد، لا شريك له في الأمر، ولا في الملك، وهو القادر على قول الأمر وتحقّيقه، وهو الرّحمن الرّحيم الذي له الأسماء الحسنى، وهو الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو الملك المتعالي.

وقد يتساءل البعض: عن العلاقة بين الأمية والهداية على درجات السُلَّم القيمي للفضيلة والأخلاق. فتكون الإجابة: هي علاقة تنافر لا تجاذب، كالعلاقة بين العليين وأسفل السافلين. ولهذا لقد تحقّقت الرّفعة لمحمّد عليه والصّلاة والسّلام بما علمه الله به من وحي (بما أنزله عليه من رسالة)، ولهذا لقد رفع الله تعالى لمحمّد ذكره برفعه من الجاهلية إلى الهداية والنور الذي شرح صدره بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (ورفعنا لك ذكرك). والذي قال فيه حسَّان ابن ثابت:

أغرُّ عليه للنبوّة خاتَمُ من الله مشهودُ يلوح ويُشهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسم النّبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أَشهَدُ[838]

فرفعنا لك ذكرك، جاءت مطلقة، وذلك برفع ذكر محمّد عليه والصّلاة والسّلام في قول الله في اللوح المحفوظ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد ارتبط ذكر محمّد مع اسم الله في

---

[838] تفسير القرطبي، ج 20، ص 106.

الشهادة والآذان، وفي التشهد أثناء والصّلاة، وكذلك ارتبط ذكره المحقّق للرفعة بارتباط طاعته بطاعة الله مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرّسول فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}839. وقد ارتبط ذكره بالرحمة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}840. وقد ارتبط اسمه بالحقّ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}841.

ولأنّ الله قد رفع له ذكره فقد صلّى عليه والملائكة وسلّموا تسليما، وأمر الله الذين آمنوا أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}842. وهكذا أصبح اسمه مرتبطا باسمه تعالى بدخول الإسلام في الدار الدنيا ومرتبطا اسمه مع كل من يدخل الجنّة، وسيحاسب ويعاقب من أمته كل عنيد أشرك بالله أو كفر به ولم يشهد لمحمّد صلوات الله وسلامه عليه بأنه رسول الله وخاتم النّبيين.

ومن يرد أن يكون خليفة لله تعالى في الأرض فعليه بالإيمان بالله جلّ جلاله واحدا أحدا لا شريك له، له الملك وله الحمد سبحانه وتعالى عمّا يصفون، وأن يؤمن بمحمّد رسول الله ويصلي عليه ويسلم تسليما، ولا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير.

وأن يعلم الحقّ ويتبعه، ويعلم الباطل ويجتنبه ويحرّض الآخرين على اتباع الحقّ وإحقّاقه، والابتعاد عن الباطل وإزهاقه.

---

839 النساء، 80.

840 الأنبياء، 107.

841 فاطر، 24.

842 الأحزاب، 56.

وأن يُحب الخليفة لأخيه ما يحب لنفسه حتى تسود المحبة بين النّاس على قول الحقّ وإحقّاقه، وحتى يتم التعاون على البر والتقوى ولا يتم التعاون على الإثم والعدوان.

قال تعالى: {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}843. تتضمّن هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد فضَّل الرّسُل جميعا صلوات الله وسلامه عليهم، أي أنهم جميعا مرتفعون على درجات التفضيل، ولم يستثن الله منهم أحدا من بلوغ درجات التفضيل. ولذا فكل الرّسُل هم مفضلون، ومن بين المفضلين عند الله مفضلون. هذه علاقة واضحة بين الله تعالى ومن اصطفي من الأنبياء والرّسُل.

المفسرون اجتهدوا في ذلك كثيرا، ونحن نعتقد أنّنا لم نبلغ ما بلغه الرّسُل والأنبياء من مقامات عظام وما أظهرهم الله عليه من أسرار، ولذا فنحن سنكون ملتزمين بقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}844. اليهود والنصارى لا يؤمنون بجميع الأنبياء والرّسُل، ولذا فهم يُفرّقون بينهم، وهذا التفريق نهت عنه الآية السابقة بقوله تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير). ولهذا جاءت رسالة الله كافة على يد الرّسول محمّد عليه والصّلاة والسّلام لتنهى عن بث روح التفرقة

[843] البقرة، 253.

[844] البقرة، 285.

بين الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم بين اتباع الرسالات السماوية، فمنهم من آمن واهتدى، ومنهم من لم يهتدِ بعد.

وما ينبغي قوله هنا: أن الله قد بعث بعض الرّسُل والأنبياء إلى أقوامهم أو شعوبهم أو سكان قراهم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}845، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ}846. وهناك من بعثه الله عزّ وجلّ إلى الكافة (أنسا وجنا) مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}847. وهناك من كلمه مباشرة وهناك من لم يكلمه مباشرة، وهناك من رفعه الله إليه، وجميع هذه المعطيات أسرار لا يعلمها إلا من فضَّل بعض الرّسُل على بعض جلّ جلاله.

قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}848. الحجّة التي أُتيت لإبراهيم عليه والصّلاة والسّلام هي الكلام الإعجازي الذي جعل المشركين غير قادرين على محاجَّته، فقد سألوه: من الذي كسَّر آلهتنا؟ قال تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ

---

[845] هود، 84.

[846] الأعراف، 94.

[847] سبأ، 28.

[848] النعام، 83.

أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}849.

بهذه المعجزات الحجّة سلّم الله تعالى إبراهيم عليه والصّلاة والسّلام من كيد وأفعال المشركين ونصره عليهم جميعا نصرا عزيزا، وبذلك رفعه الله تعالى درجات العلاء بما بث فيه من إيمان راسخ به جلّ جلاله، ولذا فمن تُرفع درجاته يُرفع، ومن تخفض درجاته يُخفض. وعليه فإبراهيم عليه والصّلاة والسّلام كان خليفة الله تعالى في الأرض الذي رُفِعَ بِرفعِ درجاته.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}850. الله عزّ وجلّ هو الذي جعل العباد خلائف يتوارثون الأرض جيل بعد جيل، وفي كل جيل أناس يتميزون عن غيرهم من بني جيلهم بقدراتهم واستعداداتهم ومواهبهم ومهاراتهم وفطنتهم وإيمانهم وأقوالهم وأعمالهم وأفعالهم، وبرسالاتهم وأنبائهم، ولهذا فقد رفع الله بعض العباد فوق البعض درجات، فمنهم من مكّنهم في الأرض برسالاتهم وأنبائهم، ومنهم من مكّنهم فيها بمُلكهم وبعلمهم وبمالهم وبإحسانهم وما يقومون به من فضائل. وفي مقابل ذلك خفض آخرين بسوء أعمالهم، وبكفرهم وشركهم به جلّ جلاله، وبسفكهم الدماء في الأرض بغير حقّ، وبإفسادهم فيها بقول الزور والبهتان، وبما تقترف أيديهم من أعمال السوء، وأكل أموال النّاس بينهم بالباطل، وبما

---

849 الأنبياء، 59 . 70.

850 الأنعام، 165.

يقدمون عليه من تزوير للحقّائق وظلم للعباد وإفساد ذممهم وأخلاقياتهم وهتك عِرضهم.

وفي مقابل كل فعل ردُّ فعل بالسلب أو بالإيجاب، بالثواب أو بالعقاب، وبين هذا وذاك تظل الفرصة متاحة لمن استغفر وتاب وآمن بالله ربّ العالمين؛ ولذا فإنّ الله تعالى سريع العقاب وإنه لغفور رحيم لمن آمن وتاب واستغفره بقلب سليم. وعليه لا تستوي السيئة والحسنة مصداقا لقوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[851]. فالله عزّ وجلّ لا يظلم أحدا وإن تَكُ حسنة يضاعفها مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[852].

قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[853]. التوفية إتمام ورفعة تحقّقت لعيسى عليه والصّلاة والسّلام في حياته قبل ممّاته، وذلك برفعه الله إليه ليكون آية من آياته العظام التي تَشُدُّ العباد إليها إيمانا بالله الذي قال في كتابه العزيز: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[854].

---

[851] النساء، 79.

[852] النساء 40.

[853] آل عمران، 55.

[854] يس، 82، 83.

وفي اللغة متوفيك تعني: قابضك. وما تدل عليه هو: إنَّ الله قد رفع عيسى إليه من الأرض إلى السماء من غير موت. ولهذا فإن عيسى عليه والصّلاة والسّلام ما قتلوه يقينا ولكن شُبّه لهم مصداقا لقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}855.

وقوله: (ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا) تؤكد هذه الآية بأن المسيح عيسى عليه والصّلاة والسّلام لم يمت بعد، وأن الله تعالى قد رفعه إليه (إلى السماء) المكان اللائق بالأرواح الطاهرة، خاصة وأن الله عزّ وجلّ قال: (ورافعك إليّ). وفي هذا القول الكريم حُجّتان للرفعة:

ـ الحجّة الأولى اصطفاء الله إليه: إن الله جعل المسيح عيسى عليه والصّلاة والسّلام من الرّسُل الذين اصطفاهم ورفعهم على درجات التفضيل القيمي.

ـ الحجّة الثانية رَفْعُ الله إليه: أنَّ عيسى عليه والصّلاة والسّلام قد رفعه الله إليه هوَّ كما هوَّ، وفي هذه الرّفعة طهارة له من مجاورة المشركين والذين كفروا في الدار الدنيا، وأصبح عيسى في السماء مع العليين.

وعليه فإن الله تعالى قد رفع عيسى عليه والصّلاة والسّلام بثلاثة أمور استنادا على قوله تعالى: (ومطهرك من الذين كفروا) والأمور الثلاثة هي:

---

[855] النساء، 57 ـ 59.

. الأمر الأول توفيته: والتوفية تعني الإتمام أي أن عيسى قد أتم رسالته التي يُراد لها أن تتم هِيَّ كما هِيَّ، فقد آمن من آمن وكفر من كفر، ولا إكراه في الدين. ولهذا فمتوفيك: تعني فيما تعني، أن الله قد خلق عيسى واصطفاه وهو معصوما ولم يكن منقوصا، فقد اصطفاه رسولا وهو أعلم به وبأمره، فلو لم يكن عيسى عليه والصّلاة والسّلام قادرا على حمل الرّسالة، ما اختاره الله رسولا لها. ولقد قام بتبليغ الرّسالة التي يُراد لها أن تُبلَّغ، وبهذا أوفي عيسى المهمة التي من بعدها جاء السرُّ الذي به رفعه الله إليه.

. الأمر الثاني الرفع إلى الله: وهذا الرفع سر لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله، ولأنه سرُّ، إذن لابدّ وأن يأتي اليوم الذي سينكشف فيه، وهذا يعني أن عيسى عليه والصّلاة والسّلام لن يموت قبل أن ينكشف السر الذي به ومن أجله رُفع إلى السماء، ممّا يجعل الرفع إلى السماء مؤقتا والعودة به إلى الأرض أمرا ضروريا.

. الأمر الثالث التطهير: بقاء عيسى عليه والصّلاة والسّلام في الأرض بين أوساط الكافرين لا يتساوى بطبيعة الحال مع وجوده مع الملائكة في العليين، وفي هذا الأمر رِفعة به وبدرجاته العلا. فالذين كفروا هم على دنس، فطهَّر الله تعالى عيسى من هذا الدنس برفعه إليه، ولذا في تطهير عيسى تزكية وإشادة وثناء ورفعة له.

وعليه فمن يُريد أن يكون خليفة لله في الأرض فعليه بالآتي:

. أولا: أن يُطهِر نفسه بالإيمان التام بالله تعالى ولا يُشرك به شيئا، وأن يؤمن بكل ما أمر الله أن يُؤمن به، وأن ينتهي عن كل ما نهى عنه، ويُصلي ويُسلّم على جميع الأنبياء والرّسُل ولا يفرق بين احد منهم. قال تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}856.

. ثانيا: أن يستمد صفاته من صفات الله الذي يُريده خليفة له في الأرض، وإلا هل يُعقل أن يكون الإنسان خليفة لله وهو لم يستمد صفاته منه؟ وكما أن الصفة تتبع الموصوف فكذلك يتبع الخليفة مستخلفه. {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}857.

. ثالثا: أن يرتفع عن مواقع الفساد فلا يشربّ مسكرا، ولا يسرق ولا يزني ولا يعمل حراما ولا يأكل أموال اليتامى والمساكين بالباطل، ويقول الحقّ ولا يشهد شهادة زورٍ. قال تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العزّة بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}858.

856 آل عمران، 83 . 85.

857 البقرة، 30 . 33.

858 البقرة، 204 . 206.

. رابعا: أن يؤدّي رسالته في الأرض التي يُراد له أن يكون خليفة فيها بالعمل الصالح، وألا يسفك الدماء فيها بغير حقّ، وأن يكون صادقا مع نفسه وربّه الذي خلقه في أحسن تقويم. قال تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}859.

. خامسا: أن يعمل كلّ ما من شأنه أن يرفعه إلى مرضاة الله تعالى. قال تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}860.

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}861. لو عدنا إلى ما سبق تبيانه بشأن عيسى صلّى الله عليه وسلّم لعرفنا الفرق بين قوله تعالى: (إني متوفيك ورافعك إليّ)، وبين قوله في إدريس عليه والصّلاة والسّلام (ورفعناه مكانا عليا). ففي الأولى رفع الله عيسى إليه، وفي الثانية رفع إدريس إلى مكان عليٍّ. ومن هاتين الآيتين نتبيّن حقّيقة بقاء عيسى حيا وحقّيقة بقاء إدريس ميتا، وكلاهما على حالة من الرّفعة والارتفاع إلى السماء. قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}862.

بناء على ما تقدم فالرفع أنواع: هناك رفع الأعمال الخيرة مصداقا لقوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ

[859] البقرة، 27.

[860] البقرة، 207.

[861] مريم، 56، 57.

[862] مريم، 58.

يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}863. ورفع الدرجات حتى بلوغ مستوى العليين، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}864. وهناك رفع عيسى حيا إلى الله تعالى في السماوات العلى، وهناك رفع إدريس إلى الموت في مكانٍ في السماء، ولذا فالرفع أنواع كثيرة ومتنوعة ومتعدد، فمنه رفع القامة ومنه رفع المكانة والشأن وزيادة الهيبة والتقوى، ورفع الطائر بجناحيه من الأرض إلى ما هو فوقها. وهناك رفع السماوات بغير عمدٍ مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}865. وكذلك هناك رفع سمك السماء واستوائها مصداقا لقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}866. وهناك رفع الحجّة الرّافعة للدرجات العلا مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}867. وهناك رفع الذكرِ مصداقا لقوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}868. وهناك الرفع بالعلم حتى النهاية مصداقا لقوله تعالى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}869.

وفي أهل العلم يقول الشاعر:

النّاس من جهة التمثيل أكفاءُ أبوهمُ آدم والأم حواءُ

---

[863] فاطر، 10.

[864] المجادلة، 11.

[865] الرعد، 2.

[866] النازعات، 27، 28.

[867] المجادلة، 11.

[868] الانشراح، 4.

[869] يوسف، 76.

فإن يكن لهم في أصلهم شرفُ يتفاخرون به فالطين والماءُ

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمُ على الهدى لِمن استهدى أدلاءُ

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففز بعلم تعش حيًّا به أبدا فالنّاس موتى وأهل العلم أحياء870.

وعليه كل الرفع الذي توقفنا عنده أو هو استوقفنا إنما هو رفع خير، ولذا على الخليفة أن يسعى إلى كل ما من شأنه أن يبلغه أو يبلغ به خيرا يرضاه الله تعالى. وبما أن بلوغ السماء خير، فلماذا لا يكون ذلك نصب أعيننا حتى نلتقي بالرّافع الأعظم جلّ جلاله.

ولهذا فالعلاقة قوية وموجبة بين الرّفعة والارتفاع وبين الطموح والأمل، ولذلك لا يوجد في قاموس الخليفة اليأس، بل الأمل كل الأمل هو الذي يملأه بعباراته وجمله وقوانينه وإيمانه. ولذا فالخليفة هو متقدم لغزو الفضاء حتى بلوغ الجنّة التي يجد فيها نفسه بجانب من بثَّ فيه روح الرّفعة والارتفاع حتى يصبح بجانبه مع العليين.

وعلى الخليفة أن يُميِّزَ بين الرّفعة والارتفاع وبين الترفُّع على العباد، فالرّفعة والارتفاع لا يتحقّقان على درجات الفضائل والسُلَّم القيمي إلا بالأعمال الحسنة، أما الترفُّع فهو تكبُّر في غير محله، وفي ذلك قال ابن المقفَّع: "من تكبَّر على النّاس ذل، ومن أعجب برأيه ضل، وذلك لأن الكبرياء لله وحده"871. قال تعالى: {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}872، الكبرياء صفة من صفات الله التي عندما يقتدي بها الخليفة يجد نفسه متكبرا عن أفعال الرذيلة ومتكبرا

870 محمّد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرجع سابق، ص 97.

871 المرجع السابق، ص 98.

872 الجاثية، 37.

عن الإفساد في الأرض وعن سفك الدماء فيها بغير حقّ، ومتكبرا عن ارتكاب المظالم والمحرمات ومتكبرا عن كلّ ما نهى الله تعالى عنه. ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "من تواضع لله رفعه"[873].

وفي ذلك قال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالدخان يعلوا بنفسه على طبقات الجو وهو وضيعُ[874].

وعليه فالتواضع رحمة، لا يتم نيله إلا برحمة من رحمن رحيم، فمن يريد بلوغه فليرتفع عن كل ما من شأنه ألا يُرضي الله تعالى ولا يُرضي من استخلفهم في الأرض، وأن يخاف مقام ربّه وينهى النفس عن الهوى مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[875].

ومن يريد الرّفعة وبلوغها فعليه بأسبابها، وأولها أن يرتفع بنفسه عن الطمع وظلم النّاس وأكل أموالهم بالباطل، يرتفع عن الإقدام على الأعمال الدنيئة حتى يرفعه الله إليه مقاما محمودا. وآخر هذه الأسباب أن يستغفر الله ربّه من كل خطيئة أو ذنب ارتكبه ليتوب عليه ويفوز بالرحمة التي تُعيده إلى الصعود على درجات الفضائل والقيم الخيّرة.

فالحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزّة والجبروت، الرّافع السماء بغير عماد حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ

---

[873] المرجع السابق، ص 98.

[874] المرجع السابق، 98.

[875] المرجع السابق، ص 100.

عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ ربّكُمْ تُوقِنُونَ} 876 فالله الذي رفع السموات وما يجرى فيها النجوم بغير أعمدة تُرى ولا يعلمها إلا الله، وإن كان قد ربّط بينها وبين الأرض بروابط لا تنقطع إلا أن يشاء الله، وعلى الرغم من رفع الشمس والقمر وبعدهما عن الأرض فقد سخرهما وذللهما بسلطانه لمنفعة الخلق، وهما يدوران بانتظام لزمن قدّره الله سبحانه وتعالى، وهو أيضا المقدر لخفض ورفعة العباد، الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقّيقا بأن جميع أصناف الخلق من العباد لا تُبتغى عندهم الرّفعة، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ورفعها ووضعها بعزّته وقدرته وقوته وجبروته، فقد ارتفع بكل شيء عن كل شيء حيث قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ربّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} 877 أي أنّه ارتفع بذاته وتنزه عن ممّاثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الجليلة، وهو الذي يحقّ له الملك على الإطلاق إيجادا وإعداما، وبدأ وإعادة، وإحياء وإماتة، وعقابا وإثابة، وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكه العظيم سبحانه جلّ جلاله، والملك لما له من الرّفعة والمكانة العالية، فهو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود، وقد وصف نفسه بربّ العرش الكريم لأنه يقسم فيض كرم الحقّ ورحمته ومنه تنقسم آثار رحمة كرمه إلى جميع مخلوقاته، يرفعهم بها كل حسب ما قدر له من الرّفعة كونه الرّافع، فإن كان هو الرّافع فقد

---

[876] الرعد 2

[877] المؤمنون 116

تنزه جلّ جلاله عن جميع صفات المخلوقين، استعظاما له تعالى ولشؤونه سبحانه التي يصرف عليها عباده جلّ وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أي ارتفع سبحانه بذاته وتنزه عن ممّاثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وتتضح أعلى درجات الرّفعة والعلو والتنزيه للرافع جلّ وعلا بقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}878 فالله وحده مالك التصرف في الأمر كله، يمنح من يشاء ما يشاء من الحكم والسلطان، وينزعه ممن يشاء، ويهب العزّة من يريد من عباده بتوفيقه إلى الأخذ بأسبابها فيرفعه بهذه الأسباب، ويضربّ الذل والهوان على من يشاء فيضع من كانت الرّفعة إلى جانبه، فهو وحده أيضا يملك الخير، ولا يعجزه شيء عن تنفيذ مراده، وما تقتضيه حكمته في نظام خلقه، ولهذا فهو مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقّيقيا بحيث يتصرف فيه كيف يشاء له إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممّانع، وهو الرّافع من كونه تعالى بيده الميزان حيث قال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحقّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}879 يخفض القسط ويرفعه فيرفع ليؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويغني من يشاء، إنه الخافض لينزع الملك ممن يشاء ويذلّ من يشاء ويفقر من يشاء بيده الخير وهو الميزان فيوفي الحقّوق من يستحقّها، والذي يرفع ويخفض، هو الذي يعز ويذل، فأعز بطاعته وأذل بمخالفته، وفي الدنيا أعز كما آتى من المال من آتاه وبما أعطى من اليقين لأهله وبما أنعم به من الخلافة والولاية وتحكم في الخلق بإمضاء الكلمة، فقهر وأذلّ الجبارين والمتكبرين وأنزلهم عن مكان

---

[878] آل عمران 26

[879] الأعراف 8

رفعتهم، وبما أذلّ به في الدنيا بعض المؤمنين بتواضعهم ليرفعهم في الآخرة بحسن أعمالهم وبما كانوا يفعلون من الخيرات والامتثال لأوامر الله تعالى فيما أحل وحرم وفي ما أباح ومنع من الموجودات التي أوجدها للخلق اختبارا وامتحانا، فالموجودات كلها كانت بكلمة الله (كن) وإليه يرجع الأمر كله والعمل الصالح يرفعه إلى ما انتهت إليه همة العبد وما تعطيه حقّيقة العمل الرّافع له، ورفعة الله لا تدرك ولا تعرف، فلا حد لها، ولذلك يقال يوم القيامة لصاحب القرآن كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فإنّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا"880 فدرجات الجنّة على هذا على عدد آي القرآن في الرّفعة. وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}881، إن تسخير ما في السموات والأرض رفعة للإنسان الذي فضله الرّافع على جميع مخلوقاته، وجعل علة تسخير بعضها لبعض مع كون العالم مسخرا للخلق، إنها رفعة لبعضنا على بعض بالدرجة التي يحتاج إليها كل إنسان، فالإنسان مسخر لحاجته وأهله وأرضه، ولهذا سخر له الله تعالى ما في السماوات وما في الأرض، وهذا التسخير بطريق الإذلال لكل ما في السماوات وما في الأرض لترفع من شأنه وتصلح من أحوال معيشته، وهناك نوع آخر من التسخير وهو تسخير القيام، حيث يسخر من له قدرة على خدمة من ليس له قدرة على القيام بمهام أحواله الخاصة. وهذا معنى الإنسان المستخلف في الأرض الذي رفعه الله تعالى عن بقية ما خلق، فالاسم الإلهي الرّافع يرفع الليل ويضع النهار، وهكذا هو رافع السماوات بغير عمد ورافع الشمس والقمر والنجوم والكواكب وجاعلها سابحة في أفلاكها، فالله

---

[880] مسند أحمد 14،46

[881] الجاثية 13

تعالى بيده القدرة والقوّة والميزان يخفض ويرفع من يشاء متى ما شاء سبحانه إنه ربّي جلّ جلاله، ولهذا فالإنسان الذي يعلم معنى أنه خليفة فهو الذي يرفع مقام نفسه بكل ما يرضي الرّافع جلّ جلاله، والمرء حيث وضع نفسه، إن أعز نفسه علا أمره، وإن أذلها ذل وهان قدره. والخليفة كونه وارثا للأرض فيجب أن يكون صاحب همة لا محالة، ومعنى الهمة أن يرفع نفسه فإن أنفة القلب من همم النفوس العالية لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها، ولا يُرفع قدر أحد حتى يكون هو الرّافع لقدر نفسه. وإعزاز المرء نفسه أن لا يختلط بالأراذل ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ولا ما يعاب به والهمة والأنفة للخليفة لأن الله ركب فيه الخصلة الحسنة ليتعلمها منه بقية من خلق، والرّافع سبحانه هو الله يرفع ويخفض، بيده ميزان القسط، وخير ما يرفع قدر الإنسان وقيمته وأجره وثوابه هو العلم الذي هو غذاء العقل وطريق الهدى وسبيل الرشاد، ذلك أن العالم يكون مرفوع الدرجة، والمتعلم كذلك، ومن يستمع للعلم يكون له نصيب من الرّفعة، فما تشبه أحد بقوم إلا أوشك أن يكون منهم إن لم يكون قد أصبح، فإن تعلّم علمك لمن يجهل، وتتعلم ممن يعلم ما تجهل هو من باب الرّفعة المتبادلة، فمن فعل ذلك فقد علم ما جهل وحفظ ما علم، والأمر بتعلم العلم تعني في ما تعنيه دعوة إلى رفع قيمة الإنسان وقدره وترفعه عن بقية المخلوقات التي لا تختص بأمر الخلافة التي هي حكر على الإنسان الذي فضله الله به، فلذلك كان تعلم العلم لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربّة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الصواب، والمصبِّر على السراء والضراء، والمعين عند الأخلاء، والقريب عند الغربّاء، ومنار سبيل الجنّة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة، يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم

وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوّة الابدّان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل أعلى درجات الرّفعة، ومدارسته تحيي القلوب والعقول، وبه يطاع الله عزّ وجلّ وبه يعبد، وبه يوحد ويمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام.

والسبب الذي من أجله تدرك أشرف العلوم هو الرّفعة والتسامي عن الأشباه والنظائر، وأن ذلك يراد به شيئان:

الأول: شرف الثمرة.

الثاني: وثاقة الدليل وقوته.

وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الابدّية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف، وأن أشرف العلوم العلم بالله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم، وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل للقربّ من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربّين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومّمارة السفهاء ومباهاة الأقران ولكن العلم يدعو إلى التواضع الذي هو من صفات العلماء، وهذا التواضع هو الرّفعة بعينها، ومن غير باب العلم من الذين يزيدهم الله عزة ورفعة بعفوه عنهم لتواضعهم، فما زاد الله عبده بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله تعالى، وقال صلّى الله عليه وسلّم: "من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله في أعلى عليين ومن يتكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين،

ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليه باب ولا كوة، لخرج ما غيبه للناس كائنا ما كان"882 وهو التواضع للمخلوقين في ذات الله لأن التواضع دليل العزّة والمقدرة وهو من باب العلم اليقين بأنه مقتدر، أما الجاهل فإنه يتكبر ويعلو على الآخرين ظنا منه أنه يترفع أو أنه أوتي الرّفعة وهذا من فرط جهله بنفسه وبالنّاس، فقد يُؤتى الإنسان من قبل جهله من وجه آخر، حيث يظن أن فعله هذا مبارك مشروع، وصاحبه مأجور مشكور، وليس الأمر على ظنه وحسبانه في الواقع، كمن يظلم فاجرا أو فاسقا، ويتعمد الإساءة إليه بالقول والفعل، وهو يظن أن عمله هذا قربّة يرفعه الله بها درجات، ويجهل أن الظلم حرام في حقّ كل أحد، سواء كان مسلما أو كافرا، برا أو فاجرا، وأن فعله هذا من الصد عن سبيل الله، والظلم لعباد الله، وكلاهما حرام بنصوص كثيرة في الكتاب والسنة والعرف والأخلاق، وبهذا نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحرمان ذلك إذ تضمنا تفويت مصلحة أكبر أو جلب فتنة ومفسدة أعظم.

لقد اختار الله تعالى الأنبياء والمرسلين من خلقه، وهذا الاختيار الإلهي إنما هو رفعة من الله تعالى رفعهم بدرجاتهم عن بقية خلقه، وهذه الرّفعة من جانبين:

أولهما: اختيارهم أنبياء ورسلا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثانيهما: أنه أوحى إليهم دون بقية خلقه، فقد قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنّبيينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا

[882] صحيح ابن حبان 23،382

لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}883 فقد خاطب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنه أوحى إليه القرآن والشريعة، كما أوحى من قبله إلى نوح وإلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وإلى عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، وبذلك رفعهم بالرسالات والنبوة، ومع أنّهم رسل الله وأنبيائه الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، إلا أن لكل رسول رسالة خاصة إلا محمّد عليه والصّلاة والسّلام فكانت رسالته للكافة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}884 وكانت طريقة الوحي إلى موسى أن كلَّمه الله تكليما من وراء حجاب بلا واسطة، وقد ذكر نوح في البداية لأنه أول نبي عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض حيث قال تعالى: {وَقَالَ نُوحُ ربّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}885 ومن رفعة مقامه أن نوحا عليه والصّلاة والسّلام عمر ألف سنة وكان يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وجهارا وكان يُضربّ من قومه حتى يغمى عليه فإذا أفاق عاد وبلغ، وإبراهيم وإسماعيل واسحقّ ويعقوب والأسباط الذين هم أولاد يعقوب عليه والصّلاة السّلام، وكذلك عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان خصهم بالذكر مع اشتمال النّبيين عليهم تشريفا لهم وإظهارا لفضلهم ورفعة لشأنهم، فإبراهيم عليه والصّلاة والسّلام أول أولي العزم.

إن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم ذلك حسب ما نعلم لا لأن العمل هو الرّافع للكلم، وأنه يزيد في رفع من تكلم به ويحسن موقعه، إذا تعاضد الكلم الطيب والعمل الصالح من الأمر بالمعروف

---

[883] النساء 163 164

[884] سبأ 28.

[885] نوح 26

والنهي عن المنكر، وأن يعمل بما يقول من النصيحة فإن ذلك يرفع صاحبه وفاعله أعلى الدرجات، والرفع يعود على الله عزّ وجلّ، أي أنّ العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب، لأن العمل تحقّيق الكلم، والعامل أكثر تعبا من القائل، وهذا هو حقّيقة الكلام، لأن الله هو الرّافع الخافض، فيرفع الكلم الطيب لأنّه صادر عن الطيبين والطيبات حيث قال الله تعالى: {الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}886، وكذلك الطيبات من النساء يكن للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال يكونون للطيبات من النساء، وهؤلاء الطيبون مبرّؤون من التهم التي يصفهم بها الخبيثون، وطيب الكلام يرفعهم إلى الدرجات العلا والمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي رفعهم الله تعالى إليها . قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العزّة فَلِلَّهِ العزّة جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}887 فمن كان يريد الشرف والرّفعة فليطلبها بطاعة الله، فإن له القوّة والرّفعة كلها، وإليه يعلو الكلم الطيب، ويرفع الله العمل الصالح فيقبله قبول رضا؛ لأن له عزة الدنيا وعزة الآخرة، ولا يملك غيره شيئا منها، فمن أرادها فليطلبها من عنده تعالى بطاعته وتقواه لا من عند غيره، قال تعالى: {وَلِلَّهِ العزّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}888 فما لله تعالى من العزّة هي بالذات وما للرسول صلّى الله عليه وسلّم من العزّة هي بواسطة الرّسالة والاصطفاء الذي قربّه من الله تعالى، وما للمؤمنين من العزّة بواسطة اتباعهم وتسليمهم بما آتاهم به الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فالله الرّافع رفع نبيه صلّى الله عليه وسلّم بعزته، والنّبي صلّى الله عليه وسلّم رفع المؤمنين بما أعزه الله به. فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرى في

[886] النور 26

[887] فاطر 10

[888] المنافقون 8

الحياة الدنيا كما قال تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}889، فالبشرى لا تكون إلا بالخير، والخير لا يكون إلا عزة ورفعة بما وعدَهم اللهُ من نصرٍ وعز في الحياة الدنيا، وفي الآخرة بتحقّيق وعده بعظيم الجزاء من الرّفعة، ولذا فإن وعد الله حقّ وكلامه صدق لا تبديل فيه، قال تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}890 وإن كان لعمل العبد تبديل، فيبدل الله سيئاته حسنات، وكذلك للعمل الصالح شكر من الرّافع الذي يرفع الدرجات، لأنه الغفور الشكور فسعي العبد مقبول وكلامه مسموع ولو لم يكن في العمل الصالح إلا إلحاق عامله بالصالحين وإطلاق هذا الاسم عليه لكان كافيا، وقد زكاهم الله تعالى بالصلاح حيث قال في حقّ إبراهيم: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}891، وكذلك في جميع الأنبياء عليهم والصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ}892 والصلاح من أعظم النعم التي أسبغها الله على أنبيائه عليهم والصّلاة والسّلام، فهي رفعة وعظمة، وذلك أن الصلاح مطلب الأنبياء عليهم والصّلاة السّلام ومبتغاهم، وهم أرفع الخلق من عباد الله، والصلاح أرفع صفة لهم فإن الله أخبرنا عنهم: أنهم مع كونهم رسلا وأنبياء، سألوا الله أن يدخلهم برحمته في عباده الصالحين، وذكر في أولي العزم من رسله أنهم من الصالحين في معرض الثناء عليهم، فالصلاح يكون أخص وصف للرسل والأنبياء عليهم والصّلاة السّلام، وهم بلا خلاف أرفع النّاس منزلة وإن

889 يونس 64

890 ق 29

891 البقرة 130

892 الأنعام 85

فضّل بعضهم على بعض درجات، ومن نال الصلاح من عباد الله فقد نال ما دونه من خير بالضرورة، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف النّاس ولا يحزنون إذا حزن النّاس"893. ولذا قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لما قضى صلاته أقبل إلى النّاس بوجهه فقال يا أيها النّاس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عزّ وجلّ عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله فجاء رجل من الأعراب من قاصية النّاس وألوى بيده إلى نبي الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا نبي الله ناس من النّاس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله انعتهم لنا يعني صفهم لنا فسر وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لسؤال الأعرابي فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هم ناس من أفناء النّاس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربّة تحابوا في الله وتصافوا يضع الله لهم يوم القيامة منابرا من نور فيجلسهم عليها فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا يفزع النّاس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"894. فهؤلاء الذين هم على رفعة من الله تعالى بطيب كلامهم وصالح أعمالهم لا يحزنهم الفزع الأكبر، ليسوا بأنبياء يغبطهم النّبيون، ولذا فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل ولا يكون هذا إلا لأهل الصلاح والذين كتبهم الله من الصالحين ورفع درجاتهم مع الأنبياء والصديقين والشهداء، فيحكّمون نفوسهم ويمشون بها مشي

---

[893] سنن أبي داود 9،404

[894] مسند أحمد 46، 382

ربّهم من حيث هو على صراط مستقيم حيث قال تعالى: {إِنَّ ربِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}895 فمن حياتهم الطيبة في الدنيا أنهم وإن دعوا الخلق إلى الله، فإنهم يدعونهم بلسان غيرهم ويشهدون من سمع دعوتهم من المدعوين وإن ترد دعوتهم فلا يألمون لذلك الرد بل يتنعمون بالقبول نعيمهم بالرد، لا يختلف عليهم الحال وسبب ذلك أنهم مترفعون عن الذنوب والخطايا وهم في حياة طيبة، وهذا أكبر نعيم أهل الله، ولا تكون هذه الحياة الطيبة إلا أن تكون مصحوبة بالعمل الصالح، وما ينالها إلا الصالحون من عباد الله وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة وظهر عليهم آثار الآلام فالنفوس منهم في الحياة طيبة، وآلامهم حسيّة لا نفسيّة، فالذي يراهم يحملهم في ذلك على حاله الذي يجده من نفسه لو قام به ذلك البلاء وهو في نفسه غير ذلك فالصورة صورة البلاء والمعنى معنى العافية والإنعام، وما يعقلها إلا العالمون فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ}896 أي لهم العافية في الدنيا وحسن مآب في الآخرة، فهم جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح، وهذا جزاء العمل الصالح ومكانته عند الرّافع جلّ جلاله الذي جعل كل إنسان في المنزلة التي يستحقّها بعمله ونيته، فالله تعالى رفع بعضهم فوق بعض درجات، ونحن نعلم رفعة الدرجات في الأسماء بعضها فوق بعض كانت ما كانت ليتخذ بعضهم بعضا بحسب مرتبته، وما يقتضيه الرفع والميزان الذي به يخفض الله ويرفع الأعمال، قال: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فإن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب وخبيث، فالخبيث يبقى فيما تجسد فيه ما له من صعود، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته

---

[895] هود 56

[896] الرعد 29

وتشكلت فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملا، وعمل صاحبها ذلك العمل، قدَّر الله لهذه الكلمة رفعة ومنزلة عالية، فيصعد به هذا العمل إلى الله صعود رفعة يتميز بها، والكلم الطيب يرجع إلى العلم من جانب معنوي مثل الكلمة الطيبة التي تكون بمثابة الصدقة، فهذا الكلم هو الذي يصعد ويقع موقع الرّفعة والمنزلة العالية، والعمل إنما هو مثل الوعاء للكلم الطيب يحمله ويرفعه. فرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد أن ذكر النّار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ثم قال: "اتقوا النّار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة"897.

إنّ كلذ شيء بالنسبة للإنسان الخليفة من حيث ارتفاع الدرجة والرقي منوط بالعمل، وكل ما له علاقة بالتسامي منوط بالأخلاق، لذلك وجب على الإنسان الخليفة أن يسمو إلى الدرجة التي أرادها الله له فلا يغفل، وأن يرتفع إليها بالقدرات والإمكانيات التي تؤهله لأن يكون خليفة وفق المشيئة الإلهية كما أرادها الله جلّ جلاله، فالله سبحانه وتعالى هو العاطي والرّافع والخافض وهو على كل شيء قدير، فقد أعطى الخليفة الأسباب، وبين له الطرق والسبل الواجبة الاتباع وكذلك المنهي عنها والمطلوب تجنبها، ووضح له الخير والشر، وجعل الميزان بيده يخفض ويرفع بما كسبه كل إنسان، وبهذا يمتاز الخليفة عن غيره باتباعه سبل الرشاد فترتفع به الدرجات حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}898 فهو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة في عمارة الكون، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذكم في

[897] صحيح مسلم، ج 5، ص 197

[898] الأنعام 165

أسبابه، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونه عليها، وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها حتى تهتدون، إن ربّك سريع العقاب للمخالفين، لأن عقابه آت لا ريب فيه، وكل آت قريب، وإنه لعظيم المغفرة لمخالفات التائبين المحسنين، واسع الرحمة بهم.

وأمّا كون ابن آدم خليفة فإنه "جعل كل واحد من بني آدم، آدم وقته وخليفة ربّه في الأرض، وسر الخلافة أنه صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا"[899].

وأمّا من جانب آخر فإنه يفهم من سياق الآية أن الله تعالى هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم، ثم رفع بعضكم على بعض في أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوّة والفضل، فجعل منهم الحسن والقبيح، والغني والفقير، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفاته النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان، لكي يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده، ليبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته، ولهذا لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه جلّ جلاله، وهكذا غيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصرا فيما كلف به وإما أن يكون موفيا ما أمره به. وهذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل، فإنه تعالى متعال عن هذه، فالله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم.

---

[899] تفسير حقّي، ج 4، ص 96

ومن الرفع أيضا، ما كان بفعل المخلوقين بأمر الخالق، فيوسف عليه والصّلاة والسّلام الذي كان أبوه يؤثره على إخوته محبة ورفعة وحنانا، إنما كان ذلك بأمر الله تعالى وإيذانا من الله جلّ جلاله منذ أن كان طفلا حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}900 فإن كان المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره، أو المراد به حقّيقة السجود، وأيا كان يعني هذا السجود، فإنّما هو رفعة ليوسف عليه والصّلاة والسّلام على غيره، وخاصة أن رؤيا الأنبياء عليهم والصّلاة والسّلام هي رؤيا صادقة، فقد رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له فكان ذلك أباه وأمه وإخوته، فوقع حقّا ما كان إدراكه رؤيا في صورة كوكبية، فلما دخلوا عليه خرّوا له سجدا فقال يوسف عليه والصّلاة والسّلام لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل جعلها ربّي حقّيقة واقعة في الحس، وقد كانت حقّيقة في الخيال في موطن الرؤيا حيث قال تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}901 فعندما جاء يعقوب عليه والصّلاة والسّلام إلى مصر وبلغوا دار يوسف عليه والصّلاة والسّلام فدخلوها وصدَّر يوسف أبويه، فأجلسهما على سرير، وغمر يعقوب وأهله شعور بجليل ما هيأ اللّه لهم على يدي يوسف من رفعة المنزلة وعلو المكانة، إذ جمع به شمل الأسرة بعد الشتات ونقلها إلى مكان عظيم من العزّة والتكريم، فحيَّوه تحية مألوفة تعارف النّاس عليها في القديم للرؤساء والحاكمين، وأظهروا الخضوع

[900] يوسف 4

[901] يوسف 100

لحكمه، فأثار ذلك في نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير، فقال لأبيه: هذا تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا، حين رأيت في المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لي ساجدين، قد حقّقه ربّي، فقد أكرمه الله تعالى وأحسن إليه فقد رفعه بأن جعله نبيا ومن أصحاب الملك والسلطان، وأظهر براءته برفع التهمة عنه ممّا اتهم به، ورفعه من السجن إلى قصر الملك وكرسي الحكم فقد قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}902 وذلك لأنه علم في الرؤيا التي رآها الملك أن النّاس يصيبهم القحط فخاف عليهم القحط والتلف فأحب أن تكون يداه على الخزائن ليعينهم وقت الحاجة شفقة على عباد الله وهذا من أخلاق الخليفة الذي رفعه الله في المكانة والعلم والجاه، وبالتالي فإنه لعلمه أنه خليفة الله في أرضه فقد قام بما يجب أن يقوم به من حقّ الخلافة، في نشر العدل والحفاظ على أرواح النّاس وحياتهم والخوف عليهم من الشدائد والنوازل التي تصيب الخلق، ففي هذه المواقف يتجلى دور الخليفة بأبهى صوره بالقيام بما أمر الله تعالى به من إسعاد العباد وإعمار البلاد.

نزول عيسى ابن مريم:

قال الشّيخ الإمام الحافظ العلّامة شهاب الدين أبو محمّد عبد الرّحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي، رضي الله عنه: ولقوله صلّى الله عليه وسلّم: "لا مهدي إلا عيسى ابن مريم"903.

---

902 يوسف 55، 56

903 عقد الدرر في أخبار المنتظر، ص 64.

وذكر الإمام أبو الحسن محمّد بن عبيد الكسائي، في قصص الأنبياء عليهم السّلام عن كعب الأخبار رضي الله عنه أنّه قال: "لابدّ من نزول عيسى عليه السّلام إلى الأرض، ولابدّ أن يظهر بين يديه علامات وفتن، فأوّل ما يخرج ويغلب على البلاد الأصهب، يخرج من بلاد الجزيرة، ثمّ يخرج من بعده الجرهمي من الشّام، ويخرج القحطاني من بلاد اليمن"904.

عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى عليه السّلام قال: قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم ويهلك في زمانه الملل كلّها إلا الإسلام. عن المقداد قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزّ عزيز أو بذل ذليل وإمّا أن يعزّهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإمّا أن يذلهم فيدينون له"905

ومِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الْعُظْمَى الْعَلَامَةُ الثَّالِثَةُ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السّلام، وَنُزُولُهُ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ أَمَّا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}906 أَيْ لَيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى وَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ آخِرَ الزَّمَانِ حَتَّى تَكُونَ الْمِلَّةُ وَاحِدَةً مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا907.

وهكذا هو في السُّنَّةُ؛ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم "وَالَّذِي نَفْسِي

---

904 عقد الدرر في أخبار المنتظر، ص 149.

905 تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 2، ص 354.

906 النساء 159.

907 لوامع الأنوار البهية، 2، ص 94.

بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ". وَفِي مُسْلِمٍ عَنْهُ "وَاللَّهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ"908.

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى نُزُولِهِ وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ الْفَلَاسِفَةُ وَالْمَلَاحِدَةُ مِمَّنْ لَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِ، وَقَدِ انْعَقَدَ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهُ يَنْزِلُ وَيَحْكُمُ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمحمّديَّةِ وَلَيْسَ يَنْزِلُ بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ عِنْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِنْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ قَائِمَةً بِهِ وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا، وَيَتَسَلَّمُ الْأَمْرَ مِنَ الْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ الْمَهْدِيُّ مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ كَسَائِرِ أَصْحَابِ الْمَهْدِيِّ حَتَّى أَصْحَابِ الْكَهْفِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَهْدِيِّ كَمَا مَرَّ.

وروى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام يُصَلِّي وَرَاءَ الْمَهْدِيِّ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَلَا يَقْدَحُ ذَلِكَ فِي نُبُوَّتِهِ، وَكَذَلِكَ يُسَلِّمُ إِلَيْهِ تَابُوتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلَّ مَا مَعَهُ مِنْ آلَاتِ الْأَمْرِ909. والحمد لله ربّ العالمين.

908 المصدر السابق، ص 95.

909 لوامع الأنوار البهية، 2، ص 95